كتاب

معيار الاختيار

في ذكر المعاهد والديار

للمؤرخ الوزير لسان الدين بن الخطيب السلماني
٧١٣ - ٧٧٦ هـ

تحقيق ودراسة
الدكتور محمد كمال شبانة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

كتاب

معيار الاختيار

في ذكر المعاهد والديار

للمؤرخ الوزير لسان الدين بن الخطيب السلماني
٧١٣ - ٧٧٦ هـ

تحقيق ودراسة
الدكتور محمد كمال شبانة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

طبعة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

رقم الإيداع	٢٠٠٢/٧٧٠٧
I . S . B . N الترقيم الدولي	977-341-066-8



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر - القاهرة
ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - ف: ٥٩٣٦٢٧٧

مقدمة

ان كتاب « معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار » لابن الخطيب من اطرف كتب المؤلف الشهيرة ، فقد صاغه على هيئة مقامة ادبية ذات منهاج واسلوب فني انفرد به لسان الدين روعة وابداعا ، مستهدفا وصف اهم المدن الاندلسية والمغربية جغرافيا واجتماعيا كما رآها وعاصرها فى منتصف القرن الثامن الهجرى (منتصف الرابع عشر الميلادى) . فلم تكن المقامة التقليدية لديه هدفا لذاتها من شعوذة واستجداء كما هي عند الحريرى والهمذاني وغيرهما ، او وعظ وتذكير بالدار الاخرة وما فيها من ثواب وعقاب كما هي عند الزمخشري والدمياطي وامثالهما ، بل ان المؤلف كانت غايته علمية بحتة ابرزها فى صورة ادبية ثقافية ممتعة ، وبالرغم من قيود السجع والمحسنات البديعية الا ان وصفه للبلدان فى مناحى شتى قد جاء فى صورة مشوقة تنبض حياة ، وتتالق براعة . ويصف المقرى هذا الكتاب فيقول : « وللسان الدين مقامة عظيمة بديعة ، وصف بها بلاد الاندلس والعدوة ، واتى فيها من دلائل براعته بالمعجب العجاب (1) » .

ولقد اورد ابن الخطيب « معيار الاختيار » ضمن مؤلفه الادبي الضخم « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » الذى ما يزال مخطوطا ، وان كان بعض الباحثين قد قام بتحقيق اجزاء منه ، فمن اشهر نسخ « الريحانة » التى ورد بها « المعيار » واقتضت طبيعة التحقيق والدراسة الرجوع اليها فى كل من المغرب (الرباط — فاس) وتونس والجزائر والقاهرة واسبانيا وروما :

1 — نسختان بدار الكتب بالقاهرة .

الاولى : يوجد منها الجزء الاول وبعض الجزء الاخير فى مجلدين ، وبخط مغربى ، فى ثناياها ثقوب ونقص واضطراب ، وهذان الجزآن مصوران بالفوتوستات عن النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة تونس ، ويقعان فى 309 لوحة ، مسجلين برقم 19875 ز .

---

1) النفح : ج 8 ص 315 ط محى الدين — القاهرة .

الثانية : بها نقص يسير من الخطبة ، اولها بعد الديباجة : « . . وسميته لتنوع بساتينه المنسوقة ، وتعدد افانينه المعشوقة ، بريحانة الكتاب، ونجعة المنتاب » . . الخ ، وتقع هذه النسخة في مجلدين كتبا بخط النسخ ، وقد نقلا عن الجزاين المخطوطين المقيدين بدار الكتب المصرية برقم 524 ادب س ، ويقعان في 460 — 650 صفحة ، مسطرتها 21 سطرا ، وقد سجلا تحت رقم 3459 ز ، وقد اتخذنا لهذه النسخة في التحقيق الرمز « د » .

2 — نسخة الاسكوريال بمدريـــد .

وهي مسجلة برقم 554 من فهرس الغزيري ، وهي نسخة جيدة للغاية قد كتبت بخط اندلسي باهت ، وتقع في 281 لوحة كبيرة ، اعني 562 صفحة ، بكل صفحة 27 سطرا ، وفي كل سطر 12 كلمة في المعدل العام ، وقد ذكر في نهاية هذه النسخة انها كتبت سنة 888 هـ ، وقد رمزنا اليها خلال البحــث بالرمز « أ » .

3 — جزء مخطوط بمكتبة الفاتيكان الرسولية بروما ، مكتوبة بخط مغربي وهي عبارة عن السفر الثالث من « الريحانة » ، وعدد لوحاتها 119 لوحــة كبيرة ، مسجلة برقم 252 .

وقد احتوى هذا السفر على « معيار الاختيار » ، ورمزنا لهذا المخطوط اثناء التحقيق بالرمز « ف » .

4 — قطعة مخطوطة اخرى في مكتبة الجزائر الوطنية من « الريحانة » ، تشتمل على 181 لوحة مزدوجة من القطع الكبير ، مكتوبة باكثر من خــط معظمه قديم ، والبعض منها — ولاسيما الوسط — قد اكمل مؤخرا، او بتاريخ احدث ، وهذه النسخة تشتمل على النصف الثاني والاخير من « الريحانة » ، حيث تبدا بالفصل الذي يحمل عنوان « جمهور الاغراض السلطانيـــات » ، ويغلب على الظن ان هذه النسخة هي اقدم جزء من المخطوط رقم 2010 ، وقد احتوى هذا الجزء — ضمن ما احتوى — كتاب «معيار الاختيار» موضوع الحديث ، وقد رمزنا اليها بالرمز «ج» .

5 — وفي خزانة القرويين بفاس قطعتان من « ريحانة الكتاب » :

الاولى : تضم السفرين الرابع والخامس ، وتقع في 99 لوحة مزدوجة من القطع الكبير ، في كل صفحة منها 27 سطرا ، قد كتبت بخط مغربي ، وفي نهايتها تاريخ الفراغ من نسخها ، وهو يوم الاحد قبل الزوال عام تسعة عشر

ومائة والف (لم يذكر تاريخ اليوم أو الشهر) وهـي برقـم 40 ـ 565 ، ورمزها ((س)) في تحقيقنا .

اما القطعة الثانية : فهي برقم 3011 ، وتنطبق عليها نفس اوصاف الاولى ولاسيما الخط .

6 ـ اما في الخزانة العامة بالرباط (قسم المخطوطات والمحفوظـات) فتوجد عدة نسخ من ((الريحانة)) ، اظهرها واشهرها النسخـة الكتانيـة المسجلة برقم 331.ك ، وهي عبارة عن مجلد ضخم يتالف من 609 صفحة من القطع الكبير ، وفي كل صفحة 25 سطرا ، قد كتبت بخط مغربي واضح، وبها زيادات حديثة ، اغلب الظن أنها ليست من انشاء ابن الخطيب ، ولاسيما الجزء الخاص بذكر ملوك بني امية والخلفاء من بني العباس ، وهو غفل من تاريخ كتابته ، اما النسخة الاساسية للريحانة فتقع في 599 صفحة ، وقد رمزنا اليها بالرمز ((ك)) .

وتوجد بنفس هذه الخزانة غير التي ذكرنا ـ سبع نسخ من ((الريحانة)) قد اشتمل معظمها على ((معيار الاختيار)) وفيما يلي مـا تضمن منهـا ((المعيار)) :

فاولها : نسخة كاملة عبارة عن مجلدين من الحجم المتوسط ، ويشتمل اولها على 222 لوحة ، مكتوبة بخط مغربي واضح ، والمجلد الاخر عبارة عن 215 لوحة من نفس الحجم ، وقد كتب بنفس الخط المغربي الواضح . وهذه النسخة بمجلديها مسجلة برقم 2195 بالمكتبة الملكية ، وقد رمزنا اليها بالرمز ((ل)) اثناء التحقيق .

وثانيتها : تشتمل على السفرين الرابع والخامس من ((الريحانة)) وعدد لوحاتها 145 لوحة من الحجم الصغير ، ورقم التسجيل 600

وثالثها : عبارة عن النصف الثاني من ((الريحانة)) ، وهي نسخـة تحتوي على الاسفار الرابع والخامس والسادس ، وتقع جميعها في 186 لوحـة .

ورابعها : نسخة ذات اوراق بالية وقديمة تشمل 40 لوحة كبيرة ، قد كتب على الصفحة الاولى منها ((السفر الثالث من ريحانة الكتـاب)) ، وفي نهاية اللوحة الاخيرة عبارة ((كمل السفر الخامس)) ورقم تسجيلها 6400 .

هذا ، ولا يغيب عن الفكر ان هناك نسخا اخرى من مؤلف ابن الخطيب « ريحانة الكتاب » فى حوزة المكتبات الخاصة ، جلها فى المغرب الاقصى ، ومعظمها قد انتظم « معيار الاختيار » ، بيد انه لا يتسنى للباحث ان يستدل ويطلع عليها فى سهولة ويسر لسبب أو لآخر ، فمن ذلك على سبيل المثال النسخة الجيدة التى بمكتبه صديقى الاستاذ عبد الكبير الفهرى الفاسى بالرباط ، وقد تصفحت سفرا خاصا بـ « معيار الاختيار » فوجدتها نسخة قريبة الشبه خطا ونسخا من النسخة الاولى الخاصة بالمكتبة الكتانية التى اشرنا اليها فى ثنايا الحديث عن نسخ الخزانة العامة بالرباط .

ونرى — بهذه المناسبة — أن نذكر أن مؤرخ المملكة المغربية الاستاذ عبد الوهاب بن منصور قد اخبرنا فى صدد « معيار الاختيار » بانه سبق ان راى نسخة تكاد تكون فريدة منه لدى احد شيوخ مدينة « تلمسان » منذ مدة طويلة ، وترجع اهميتها لكون هذه النسخة قد اشتملت على وصف تلك المدينة وهو ما تنفرد به من دون النسخ الاخرى الخالية منها تماما ، ويعزز رواية الاستاذ عبد الوهاب وجود وصف مدينة تلمسان فى كتاب « نفح الطيب » (ج 9 ص 340 — 341) وهو لابن الخطيب كما اثبته المقرى ، والاسلوب فى الوصف على نمط الاسلوب الذى انتهجه المؤلف فى « معيار الاختيار » من بداية بالاستفسار : « قلت فمدينة تلمسان ؟ فاجابة من الراوى : قال : « تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت فى موضع شريف .. الخ » ، ثم يعقب وصفه للمدينة بما عودنا من ايراد ابرز المثالب كمثيلاتها ، فقال : « .. الا انها بسبب حب الملوك ، مطعمة للملوك . ومن اجل جمعها الصيد فى جوف الفرا ، مغلوبة للامراء ، .. الخ » .

حقا لقد كانت « تلمسان » يومئذ ضمن مملكة بنى مرين حينما امتد ملكهم الى الجزائر عام 796 هـ (1393 م) ، واضحى ملك بنى زيان تابعا لبنى مرين ، وبقى الامر كذلك حتى دب الضعف فى الدولة المرينية ، واستبد بنو وطاس ووزراؤهم بالامر ، فهيا ذلك لبنى زيان ان يستقلوا مرة اخرى بامر تلمسان ، كما هيا مثل هذا الاستقلال للاشراف ان يظهروا فى مراكش بجنوب المغرب (1) .

وقد وفد ابن الخطيب فى ذلك الابان على مدينة تلمسان سفيرا ثم زائرا، واخيرا عندما لجا فارا من الاندلس ، حيث احتمى بظلال بنى مرين على ما

---

1) ابن خلدون فى « العبر » ج 7 ص 166 ، والذخيرة السنية ص 148 ، والاستقصا ج 2 ص 16 .

سنفصله فى الترجمة للمؤلف من بعد ، الامر الذى يقطع بان المؤلف اورد وصف تلمسان ضمن « المجلس الثانى » الخاص باهم المدن المغربية ، كما لا نستبعد من ناحية اخرى ان تاليف لسان الدين للمعيار كان زمن امتلاك المرينيين لتلمسان ، وربما كان ذلك اواخر ايامه ، حيث اتيحت له اكثر من فرصة لدراسة المدينة وسواها من مدن المغرب ، ورسم صورة واقعية لها ، كمهدنا به نحو المدن الاخرى التى تناولها بالوصف فى مؤلفه هذا .

لقد كنت تواقا الى رؤية تلك النسخة ، عسى ان اتمكن من ازالة علامة الاستفهام التى ترتسم حيال بقية النسخ من « الريحانة » المشتملة على « معيار الاختيار » والتى خلت — للاسف — من وصف مدينة « تلمسان » ، ومن يدرى فربما كانت نسخة الجزائر اقرب من غيرها الى عصر المؤلف ان لم تكن قد نسخت على ايامه ، ولكن ما الحيلة وقد طوى الزمن صاحب النسخة، ولا ندرى بالتالى الىمن آلت، هذا ان لم تكن قد انقرضت هىبدورها حيث لم نسمع عنها حتى يومنا هذا من قريب او بعيد ، ولم تتناولها من قبل فهارس المستشرقين ، كما لم تشر اليها اقلام الباحثين من المهتمين بالتراث الاندلسى خاصة .

وعلى اى حال فلا مناص من الحاق وصف مدينة « تلمسان » فى نهاية « المجلس الثانى » للمدن المغربية ، وذلك نقلا عن « نفح الطيب » بنصه ، معترا للاستاذ عبد الوهاب بن منصور لفتته العلمية .

هذا ، وقد نوهت اثناء عرض الكتاب بـ « الفصل الثالث » ان النسخة التى رايت انها اوفى واحق بالاعتماد فى التحقيق — مع اعتبار بقية النسخ — هى نسخة الاسكوريال (554) .

وقد رايت استكمالا للفائدة ، والماما بما قد يحتاجه الباحث ان اختط فى هذا التحقيق النحو التالى فى اربعة فصول :

الفصل الاول :

وقد اوردت فيه ترجمة تكاد تكون وافية بالغرض لحياة المؤلف « لسان الدين ابن الخطيب » .

الفصل الثانى :

وبه بيان لوجهة نظر بعض المستشرقين والباحثين تجاه ابن الخطيب .

الفصـــل الثالـــث :

وقد اوردت فيه دراسة خاصة بـــ « معيار الاختيار » فى عرض تحليلى من الناحيتين الادبية والتاريخية ، واهمية الكتاب كعمل ادبى ، ثم كوثيقــة تاريخية هامـــة .

الفصـــل الرابـــع :

وقد اوردت فيه « المجلس الاول » من النص ، وهو الخاص بوصف « المدن الاندلسية » .

الفصـــل الخامـــس :

وقد اوردت فيه « المجلس الثانى » من النص ، وهو الخاص بوصف « المدن المغربية » . وفى ذيلا كـــلا « المجلسين » اثبت فى التعليق ما اقتضاه التحقيق ، واستوجبته الدراسة .

ولا يسعنـــــى ــ أن اقـــدم هـــذا العمـــــل كتـــحقيــــق جديد فى مجال التراث الاندلسى ــ الا ان اعترف بالفضل لكل سابق فى هـــذا الميدان ، ولا سيما حيال من اسهموا بدراسة او تحقيق لابن الخطيب ومؤلفاته فقد كانت بحوثهم عونا جديرا بالتقدير ، كما اذكر لاستاذنا العلامة عبد الله كنون فضله فى هذا العمل ، جزاه الله خير الجزاء ، وانوه بسبق الزميـــل الدكتور احمد مختار العبادى ، معترفا بالاستفادة الحقة من دراسته فى هذا الموضـــوع .

أخيرا ، آمل بهذا التحقيق ــ على هذه الصورة ــ لكتاب «معيار الاختيار» أن اكون قد اسهمت بلبنة فى صرح الذخائر الاندلسية .

والله اسأل ان يجد فيه رواد الفكر وعشاق التراث ما ينشـــــدون او يؤملون ، انه سميع قريب ، وبالاجابة جدير .

وهو ــ سبحانه ــ ولى التوفيق

المحقـــق
دكتـــور محمـــد كمـــال شبانه
استاذ التاريخ والحضارة الاسلامية
بجامعا ت المغرب

القاهرة / ٢-٣-٢٠٠٢

الفصل الأوّل

حياة ابن الخطيب
وآراء بعض المستشرقين حوله



ابن الخطيب

(713 ـ 776 هـ (1313 ـ 1374 م)

ثاني اثنين أرخا لعصر بني الأحمر ، فكشفا عن السلالة النصريـة ، حتىعصرهما الذي عاشاه جنباً الى جنب ، ولم ينل من علاقتهما الطيبة سوى التنازع على المزيد من السلطة ، في دولة طالما استبد فيها الحجاب والوزراء ، وانتقصوا من سلطة السلطان ، فكانت نهايتهم على يـدي من نازعوهم أمـور المملكة ، بايعاز من صاحب سلطة قضائية أو ادارية ، وهذا ما حدث بين ابن الخطيب ، وبين قاضي الجماعة أبي الحسن علي النباهي الجذامي ، على نحو ما سنرى من خلال سيرة الأول .

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد ، بن عبد الله ، بن عبد الله ، بن سعيد ، بن علي ، بن أحمد ، السلماني ، نسبة الى سَلْمان ، بقعة باليمن نزلت بها بعض القبائل القحطانية ، وكانت أسرة ابن الخطيب احدى هذه القبائل ، ومن اليمن وفدت الأسرة الى الأندلس ، حيث اتخذت قرطبة مقراً لها .

ثم هاجرت الأسرة الى طليطلة ـ كما أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه في مقدمة « الاحاطة » ـ عام 202 هـ 817 م ، وهو العام الذي حدثت فيه ثورة أهل الربض بقرطبة ، ضد أمير الأندلس الحكم بن هشام ، حيث حرض الفقهاء أهل الربض ضد الأمير ، ولكن الحكم قضى على الثورة في الموقعة المشهورة

بـ (موقعة الربض) وشتت شمل القائمين بها ، فنفى من نفى ، وشرد من شرد ، وغادر قرطبة جمهور من المعارضين وعديد من العلماء ، ومن هؤلاء أسرة ابن الخطيب ، حيث قصدت طليطلة ، فبقيت بها قرابة قرن ونصف ، ولما أحست أسرة المترجم له بالخطر المحدق بالمدينة ـ حيث أصبحت هدفاً للأسبان في أواسط القرن الخامس الهجري (أوائل القرن الثاني عشر الميلادي) ـ بادرت بالنزوح عنها الى مدينة لوشة (1) مسقط رأس ابن الخطيب في 25 رجب 713 هـ (16 نوفمبر 1313 م) .

تربى ابن الخطيب في أسرة عرفت بالاصالة والعلم والجاه ، فقد كان أبوه عبد الله من أكابر العلماء والخاصة ، كما أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه ، حيث ترجم لأبيه في كتابه (الاحاطة في أخبار غرناطة) فروى لنا أنه ولد في (672 هـ = 1273 م) واستقر حيناً في غرناطة ، ثم عاد الى لوشة مقر الأسرة ، ثم رجع الى غرناطة أخيرا ، حيث التحق بخدمة السلطان أبي الوليد اسماعيل ملك غرناطة (713 ـ 725 هـ ـ 1314 ـ 1324 م) .

وقد كانت اسرته تحمل اسم « الوزير » الى أن جاء جده سعيد فعرفت باسم « الخطيب » .

ولما توفي هذا السلطان ، وخلفه ابنه السلطان أبو عبد الله محمد ، التحق والد ابن الخطيب بديوان كتابته أيضا ، ثم بأخيه السلطان أبي الحجاج يوسف (733 ـ 755 هـ ـ 1333 ـ 1354 م) ، حيث عاصر الكاتب الكبير ، والرئيس العظيم أبا الحسن علي بن الجيَّاب ، والذي مُنِح من قِبَله لقب الوزارة ، وأخيراً سقط عبد الله مع ولده الأكبر ـ أخي لسان الدين ـ قتيلا في موقعة طريف الشهيرة ، التي تمخضت عن فوز الأسبان على المسلمين من الأندلس والمغرب ، وسقوط كل من طريف ثم الجزيرة الخضراء وقلعة بني سعيد ، وذلك في جمادى الأولى 741 هـ (1340 م) .

---

1) تعرف في الاسبانية اليوم باسم « Loja » ، تقع على بعد 55 كم غرب غرناطة ، وهي احدى المدن الاسلامية الشهيرة أيام حكم العرب ، وقد استردها الأسبان قبل سقوط غرناطة بقليل (891 هـ = 1486 م) ، يقدر عدد سكانها حالياً بعشرين الف نسمة تقريبا ، بينما كان عدد السكان ـ على عهد ابن الخطيب ـ يجاوزون هذا العدد بكثير كما يتضح من تاريخ المدينة يومئذ .

لقد نشأ ابن الخطيب في العاصمة غرناطة ، وتلقى بها دراسته (2) ، فقد كانت وقتئذ ميداناً احتشد فيه الأكابر من العلماء والأدباء ، فدرس اللغة والشريعة والأدب على جماعة من أقطاب العصر ، مثل « أبي عبد الله بن الفخار الألبيري » شيخ النحاة في عصره ، « وأبي عبد الله بن مرزوق » فقيه المغرب الكبير ، « والقاضي أبي البركات بن الحاج البلفيقي » ، ودرس الأدب والشعر على الوزير « أبي عبد الله ابن الحكيم اللخمي » وعلى الرئيس « أبي الحسن على بن الجياب » ، وغير هؤلاء ، كما درس الطب والفلسفة على حكيم العصر وفيلسوفه الشيخ « يحيى بن هذيل » . فلا نبالغ اذن اذا قلنا : ان غرناطة ـ في ذلك الوقت ـ كانت أعظم مركز للدراسات الأدبية والعلمية والاسلامية ، في هذا القطر الغربي من العالم الاسلامي ، وكان هذا من حظ ابن الخطيب الى حد بعيد .

هذا ، وقد تأثر مستقبل ابن الخطيب السياسي بحكم منصب والده ، فمنذ شب عن الطوق ونفسه تطمح للوصول الى مركز أبيه ، فلما توفى الوالد دعي ابنه للخدمة مكانه ، وكان حينئذ في الثامنة والعشرين من عمره ، حيث تولى أمانة السر لأستاذه الرئيس « أبي الحسن بن الجياب » وزير السلطان ابى الحجاج يوسف الأول النصرى وكاتبه (3) ، ثم خلف أستاذه في الوزارة ، وتقلد ديوان الانشاء لهذا السلطان ، وكان ابن الخطيب يومئذ قد ملك زمام أرفع الأساليب شعراً ونثراً ، بفضل أستاذه الراحل ، وظهر أثر هذه التلمذة على رسائله السلطانية ، التي حررها بقلمه على لسان ملوك الأندلس والمغرب ، والتي نعتها المؤرخ ابن خلدون بالغرائب ، وقد جمع ابن الخطيب نفسه منها الكثير في كتابه « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » ، كما أورد المقرى عددا منها في مؤلفه « نفح الطيب » (4) ، ويعتبر كتاب ابن الخطيب « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » مجموعة من الرسائل السلطانية التي تمثل العلاقات السياسية بين غرناطة والمغرب ، في منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، على لسان سلطانه يوسف الأول ابن الأحمر ، الى معاصره في فاس أبي عنان فارس المريني .

---

2) العبر لابن خلدون ج 7 ص 332 .

3) توفي ابن الجياب بوباء الطاعون الجارف ، في شوال 749 هـ (يناير 1349 م) .

4) ج 3 ص 570 ، وما بعدها ، ج 4 في عدة مواضع منه .

ولقد كسب ابن الخطيب ثقة هذا السلطان الغرناطي ، حيث قربه من مجلسه ، وخلع عليه الجم من النعم ، كما انه أصبح أثيراً لديه ، مودعاً اياه أمانة سره وكتابته ، وذلك لروعة هذه المكاتبات السلطانية التي دبجها له من جهة ، ولنجاح سفاراته مع ملوك النصارى والمغرب من جهة أخرى ، فقد بعثه عاهل غرناطة سفيراً الى أبي الحسن المريني ملك المغرب عام 749 هـ (1348 م) .

ولما توفي السلطان أبو الحجاج يوسف قتيلا ــ في يوم عيد الفطر 755 هـ (19 أكتوبر 1354 م) ــ خلفه في الملك ولده السلطان محمد الخامس الغني بالله ، واستمر ابن الخطيب في معاونة الوزير أبي النعيم رضوان على خدمة السلطان الجديد ، كما تولى الوصاية على الأبناء القصر للسلطان المتوفى ، ثم قام بسفارة الى السلطان « أبي عنان فارس المريني » عام 755 هـ = 1354 م ، ولقد نجح ابن الخطيب في مهمته هذه نجاحاً عظيماً ، ذلك أن ملك المغرب استجاب للمطالب التي حملها ابن الخطيب لصالح ملك غرناطة ، وفي مقدمتها العون الحربي لمقاومة أطماع ملك قشتالة .

ولقد ظفر ابن الخطيب بمكانة ممتازة لدى الغني بالله ، اذ منحه ثقته كابيه من قبل ، وخلع عليه لقب (ذو الوزارتين) ، لجمعه بين وزارة القلم ووزارة السيف .

ولكن حدث أن اندلعت الثورة بغرناطة ، في رمضان 760 هـ = 1359 م ، ونتج عنها فقدان السلطان الغني بالله لملكه ، واستيلاء أخيه الأمير اسماعيل على العرش ، كما تمخضت هذه الثورة عن مقتل الحاجب أبي النعيم رضوان ، ثم فرار الغني بالله الى وادي آش (5) ، وعليه فأصبح ابن الخطيب لا يملك من الأمر شيئا ، غير أنه حاول أن يستميل السلطان الجديد ، فقبله في منصب الوزارة مؤقتا ، ثم تشكك بعد قليل في نواياه ، وذلك بتحريض منافسيه وحساده ، فقبض عليه ، وصادر أملاكه ، وبذلك فقد ابن الخطيب جاهه ونفوذه ، بل ومتاعه بين عشية وضحاها .

---

5) راجع ما كتبناه عن هذه المدينة في وصف ابن الخطيب للمدن الأندلسية من هذا الكتاب .

لم تطل هذه النكبة بابن الخطيب ، فقد بعث ملك المغرب السلطان أبو سالم سفيره (الشريف أبا القاسم التلمسباني) الى ملك غرناطة الجديد ، يطلب اليه أن يسمح للملك المخلوع (الغني بالله) ووزيره ابن الخطيب بمغادرة الأندلس الى المغرب ضيفين عزيزين ، فرضخ سلطان غرناطة لهذا الطلب ، سياسة منه في الابقاء على أواصر الوداد مع بني مرين ، واحتفاظاً بهم سنـدا لمستقبل الدولة الاسلامية بالأندلس . ولهذا أطلق سراح ابن الخطيب ، ولحق بسلطانه ، حيث لجأ إلى وادى آش ، ومن ثم الى المغرب ، ومعهما نفر كبير من الحاشية ، فوصل الركب فاس فى محرم 760 هـ (ديسمبر 1358 م) حيث استقبلهما السلطان أبو سالم استقبالا حاراً ، واحتفل بقدومهم احتفالا عظيما ، والقى ابن الخطيب فى هذه المناسبة ـ بين يدى المضيف ـ قصيدته الشهيرة (6) ، يستنصره ويستصرخه ؛ ليعين سلطانه على أمره .

ويشهد ابن خلدون المؤرخ ذلك الحفل ـ بصفته من كبار رجال البلاط المريني ـ فيصفه لنا ويقول : « إن ابن الخطيب استولى على سامعيه ، فأبكاهم تاثـراً » .

هذا وقد طاب العيش لابن الخطيب بالمغرب فى رعاية السلطان« أبى سالم »، الذى أقطعه الأراضي، ورتب له الرواتب ، حيث استقر فى مدينة « سلا » (7) حوالى ثلاثة أعوام منفياً 760 ـ 763 هـ (1358 ـ 1361 م) ، اقتنى خلالها الضياع والأموال، ولكن لم ينس ـ فى الوقت نفسه ـ نزعته الثقافية والتاليفية، فجاس خلال مدن المغرب دارساً باحثاً ، ملتقياً بالعلماء فى تجواله ، وفي نهاية المطاف يرجع الى سلا ، حيث يرابط بضاحية « شالة » ، قرب أضرحة ملـوك بنـى مريـن .

6) نفح الطيب للمقرى جـ 3 ص 46 ـ 48 ، أزهار الرياض لنفس المؤلف جـ 1 ص197 ـ 200 وهي ثمانون بيتا .

7) سنعرف أيضاً بهذه المدينة من بعد في مناسبة ومنها .

ولقد أصيب ابن الخطيب ـ ابان هذه الفترة ـ في زوجته أم أولاده ، وبالرغم من كل ما أصابه من نكبات متوالية فانه لم يقعد عن التأليف ، ولم يخلد الى الراحة والسكينة ، ويكفي دليلا على هذا تلك المؤلفات التي حررها وقتئذ ، ومن أهمها :

1) معيار الاختيار ، في ذكر المعاهد والديار (هذا الكتاب) .

2) نفاضة الجراب ، وعلالة الاغتراب .

3) اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية .

4) الحلل المرقومة ، في اللمع المنظومة (8) .

5) رقم الحلل ، في نظم الدول .

6) كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان .

7) رسائل في فنون مختلفة ، معظمها نظمه شعرا .

وفي هذه الأثناء تم انقلاب في فاس ، ترتب عليه مصرع السلطان أبي سالم ، في ذي القعدة 762 هـ (1360 م) ، وتقلد السلطان صاحب الانقلاب الوزير عمر بن عبد الله ، الذي أعان ابن الأحمر المخلوع على أمره ، ووقف الى جانبه في استرجاع عرشه ، حتى سنحت الفرصة ، وواتت الظروف ، باندلاع ثورة جديدة في غرناطة ، صرع فيها السلطان اسماعيل بن الأحمر على يد الرئيس أبي سعيد ، الذي فر الى (قشتالة) عقب عودة الغني بالله الى الأندلس ، واستيلائه على ولاية مالقة ، ثم دخوله غرناطة ، وتربعه على العرش من جديد عام 763 هـ = 1361 م .

لقد استدعى سلطان غرناطة الجديد ، محمد الخامس الغني بالله ، وزيره المنفي ابن الخطيب ، ليقدم الى دار ملكه ، برسالة مؤرخة : 14 جمادى الآخرة 763 هـ (15 أبريل 1361 م) وليتقلد منصبه السابق ، فاستجاب ابن

8) هذا الكتاب يتحدث فيه ابن الخطيب عن تاريخ الدولة الاسلامية ، وقد أهداه الى السلطان ابي سالم المريني ملك المغرب ، فكافأه عليه بمضاعفة رواتبه ، كما كتب ـ في شأن المؤلف ـ الى سلطان غرناطة ، يطلب منه الافراج عن ممتلكات ابن الخطيب المصادرة .

الخطيب ، وجاز البحر صحبة أسرة السلطان وأسرته ، ثم وصل العاصمة ، وهناك وجد من يزاحمه منصبه ، وينافسه السلطة ، وهو شيخ الغزاة (عثمان بن أبي يحيى) ، صاحب اليد على السلطان في استرجاع العرش ، فنشب خلاف بين الرجلين ، وحقد كلاهما على الآخر ، ولكن ابن الخطيب كان أشد مراساً بأساليب الكيد والدس ، فتغلب على خصمه ؛ اذ زين للسلطان خطورة نفوذ عثمان هذا ، وبدأ يخيفه من غدره وغدر أشياعه ، فاستجاب ابن الأحمر لنصح ابن الخطيب ، وقضى على عثمان وآله في شهر رمضان 764 هـ = 1363 م ، وبذلك استرد ابن الخطيب كامل سلطته ، دون مناوىء أو منافس ، ولكن الى حين ، فقد شعر مرة أخرى بما يحاك حوله من دسائس ومكائد ، ورأى سلطانه يتأثر بسعاية الخصوم ، وقد تزعم هذه الحملة الجديدة ضد ابن الخطيب رجلان وثيقا الصلة بالسلطان بحكم وضعيتهما في الخدمة السلطانية ، ولمكانتهما السياسية في الدولة ، وهما :

1) الشاعر محمد بن يوسف المعروف بـ « ابن زمرك » تلميذ ابن الخطيب ، ومعاونه في الوزارة .

2) قاضي الجماعة أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي ، ولي نعمة ابن الخطيب .

وحينئذ شعر ابن الخطيب بخطورة موقفه عند السلطان ، بين هذين الرجلين الداهيتين ، فدبر أمره على مغادرة الأندلس نهائياً ، دون أن يشعر السلطان مطلقاً بذلك ، وفعلا طلب منه أن يأذن له في تفقد بعض الثغور والموانىء الأندلسية ، فأجابه السلطان ، وكان وزيرنا ـ من جانبه ـ قد أعد العدة للابحار الى المغرب ، حيث يحل ضيفاً لاجئاً على السلطان أبي عنان فارس بن أبي الحسن المريني ، وقد تم له ذلك بوصوله الى جبل طارق ، الذي كان يومئذ ضمن أملاك المرينيين ، ونجحت الخطة ، اذ استقبله قائد الميناء بحفاوة، وسهل له مهمته ، بأمر من سلطان المغرب ، وأجازه الى سبتة هو ومن معه من ولده ، وقبل أن يودع هذه البقاع بعث برسالة مؤثرة الى السلطان الغني بالله

يعلل فيها مسلكه هذا ، ويبرر تصرفه الاضطراري ، وأخيراً يطلب غفرانه ، راجياً عونه لأسرته التي خلفها وراءه في غرناطة .

وصل ابن الخطيب الى سبتة ومنها التحق بتلمسان ، مقر السلطان عبد العزيز الذي احتفي به وأكرمه ، ثم بعث بسفرائه الى غرناطة ، يلتمس من سلطانها ان يجيز أسرة ابن الخطيب ، فأجابه ابن الأحمر الى طلبه ، وكان ذلك عام 773 هـ = 1371 م .

وكان من المتوقع أن يهنأ ابن الخطيب بهذا المقام بالمغرب ، فالسلطان قد أحله مكانته اللائقة به ، وأبدله مما فقد الشيء الكثير ، ولكن ــ للاسف ــ اتخذ منافسوه بغرناطة من هربه ــ على هذه الصورة ــ مادة دسمة للكيد ، وأكدوا للسلطان محمد الخامس ابن الأحمر ادانته ، وعدم وفائه لولي نعمته ، وزاد الاتهام تأكيداً أن ابن الخطيب كان حريصا على أن يحمل معه أمواله وذخائره الى المغرب ، وفي هذا يخاطب القاضي النباهي غريمه ــ في الرسالة المعروفة التي بعث بها اليه : « فهمزتم ولمزتم ، وجمعتم من المال ما جمعتم ، . . . ثم هربتم بأثقالكم » (9) .

كان القاضي النباهي فيما سبق من أنصار الوزير ابن الخطيب ، بل إن تعيينه قاضياً للجماعة واستصدار ظهير هذا المنصب قد تم على يدي ابن الخطيب نفسه ، كما نجد في كتاب الاحاطة ترجمة للنباهي تنبىء عن تقدير ابن الخطيب لهذا الرجل ؛ اذ ينعته بأنه « قريع بيت مجادة وجلالة ، وبقية تعين وأصالة ، عف النشأة ، طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، بعيد الغور ، مرهف الجوانب ، ناظم ، ناثر ، نثره يشف عن نظمه ، ذاكر للكثير ، بعيد المدى في باب النزاهة ، ماضي غير هيوب . . . الخ » ، ولكن ذلك « النباهي » تنكر تماماً لابن الخطيب ، ولم يحفظ لـه هـذا الجميل ؛ فقد آزر الوزير « ابن زمرك » ضده ، وسعى سعياً حثيثاً في سبيل القضاء عليه ، وتتجلى هذه الروح الشريرة ، وما يمليه الحقد الشخصي ، والضغائن الدفينة ، في تلك

9) المقري في « نفح الطيب » جـ 7 ص 56 .

الرسالة التى بعث بها القاضى النباهى الى ابن الخطيب بالمغرب ، وفيها يعيب عليه الانصراف الى اقتناء الضياع والديار ، كما أنـه نسب اليـه ـ فى بعض مؤلفاته ـ بعض محدثات فى الدين ، مما يمس الشريعة الاسلامية ، كما تناول فى بعض هذه المؤلفات الأموات من الناس ، وذلك بالطعن أو العيب فيهم ، الأمر الذى يستنكره الدين . . . . ، الى آخر ما جاء فى تلك الرسالة من هذه المثالب ، وحتى مغادرة ابن الخطيب للأندلس مؤخراً ـ على تلك الصورة ـ رأى فيها النباهي غدراً بالسلطان ولى نعمته ، كما كذبه فى ادعائه الانقطاع للعبادة فى المغرب ، وأنه لو أرادها حقيقة لقصد الديار المقدسة ، أو أبقى على نفسه بغرناطة بجوار الكفاح والجهاد ، لنصرة المملكة الاسلامية التى يتهددها خطر الأسبان كل حين .

وفي الأخير ينهى النباهي رسالته بالنيل من أسرة ابن الخطيب ، بأنها حديثة النعمة ، وأن ثروتها هذه لم تات الا عن طريق المنصب والسلطة . .

وقد كان لهذه الرسالة اثر كبير فيما بعد ؛ حيث كانت صك الاتهام ، وأدين ابن الخطيب على أساس ما ورد فيها ، وذلك عندما حلت نكبته ، ودنت ساعة نحسه (15) .

هذا ، ويرجع تاريخ الرسالة هذه الى أواخر جمادى الأولى 773 هـ = 1371 م ، وقد تسلمها ابن الخطيب بتلمسان ، وأجاب على ما جاء بها مفصلا ، فى كتابه « الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » ، وشدد النكير على القاضى النباهي ، عندما وصفه بانه « الجعسوس » أى : القزم الدميم ، وزاد ابن الخطيب فوضع رسالة خاصة للنيل من خصمه اللـدود ، وسماها « خلع الرسن ، فى وصف القاضى أبى الحسن » .

ظل القاضى النباهي وابن زمرك على عزمهما بسحق غريمهما ابن الخطيب ، فبعد احراق كتبه العقائدية ، عهد النباهي الى قضاة غرناطة باستصدار حكم الشرع فى جريمة الالحاد ، وهو الاعدام ، وحصل من السلطان على مصادقة بهذا

---

15) المقرى فى « أزهار الرياض » جـ 1 ص 212 ـ 224، حيث أورد المؤلف الرسالة كاملة.

الحكم ، وبعث القاضي أبو الحسن بنوابه الى السلطان عبد العزيز وبأيديهم هذا الحكم ، فقابل السلطان رسل غرناطة بالاستنكار ، وخاطبهم قائلا : « هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه ! ! ! » وبالغ في اكرام ابن الخطيب ، وأضفى عليه مزيداً من عنايته .

وتجدر الاشارة هنا الى أن ابن الخطيب قد لاحظ وقتئذ قوة المغرب في عهد صديقه السلطان عبد العزيز ، ومبلغ العداء بين فاس وغرناطة وقد بلغ أوجه ، فحرض السلطان على ضم غرناطة لمملكته ، وقد رمى من وراء ذلك الى سحق أعدائه هناك ، وتأمين مقامه بالمغرب ، وما يتبع ذلك من حماية مصالحه .

ويظهر أن هذه السياسة قد لاقت قبولا عند السلطان عبد العزيز ، فصمم على تنفيذها ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ثم تأكدت العداوة بينه (ابن الخطيب) وبين ابن الأحمر ، فرغب السلطان عبد العزيز في ملك الأندلس وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان الى المغرب (11) » ، وبلغت ابن الأحمر رغبة ملك المغرب هذه ، فتخوف لذلك كثيراً ، وأسرع الى ايفاد رسله بالهدايا والتحف الثمينة الى بلاط فاس ، آملا في نيل رضا السلطان عبد العزيز ، واتقاء شره . ثم تفاجيء الظروف الموقف ، فيموت السلطان عبد العزيز بعدئذ بقليل ، ويجلس على عرش المغرب ابنه « أبو زيان محمد السعيد » طفلا في الرابعة من عمره ، في ربيع الآخر 774 = 1372 م ، وقبض على زمام السلطة الفعلية وزيره « أبو بكر بن غازي » ، فتغيرت الأوضاع السياسية بالمغرب تماما ، واضطر ابن الخطيب حينئذ أن يتزلف الى الملك الطفل ووزيره ، فألف كتابه المعروف باسم « أعمال الأعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » ، وفيه يبرر هذا الوضع الجديد شرعا ، وعرفا وتاريخا ، وأورد لذلك الأشباه والنظائر ، رداً على المناهضين بالمغرب ، وخاصة بني الأحمر وعملائهم .

---

11) ابن خلدون في « العبر » جـ 7 ص 338 — 341 .

وفي هذه الأثناء قام السلطان ابن الأحمر بمحاولة أخرى للايقاع بابن الخطيب ، وذلك بأن أوعز الى الوزير « ابن غازى » أن يبعث اليه بابن الخطيب ، فامتنع ابن غازى ، وتوترت العلاقات مرة أخرى ، بين غرناطة وفاس ، الأمر الذى جعل ابن الأحمر يوغر صدور هؤلاء الأمراء المرينيين ضد النظام القائم فى فاس ، وبذل فى سبيل القضاء على هذا النظام مساعدات ضخمة ، كما أقنع من اتصل بهم من حكام الأقاليم ـ وخاصة حاكم سبتة أبا محمد بن عثمان ـ بأن من الأفضل للمغرب أن يكون الملك رجلا راشداً ، لا طفلا صغيرا ، لا يدرك شيئاً ، واتفق معه على تنصيب الأمير المرينى أبى العباس أحمد بن أبى سالم ملكاً على المغرب ، وأنه ـ أى محمد بن عثمان ـ سيكون الوزير مستقبلا ، وأعطاه المزيد من المساعدات الهائلة لتنفيذ هذا الاتفاق ، على أن يحقق هذا الوزير لابن الأحمر ثلاثة مطالب ، بعد نجاح الخطة ، وهى :

1) تسليم ابن الخطيب .

2) تسليم الأمراء المناهضين لابن الأحمر .

3) تسليم جبل طارق .

ووقعت بعض الحوادث بالمغرب ، وتمخضت عنها ثورة قاضية ، أدت الى حدوث الانقلاب المنشود لابن الأحمر ، ونودى حينئذ بالأمير أحمد بن السلطان أبى سالم والياً على المغرب (776 هـ = 1374 م) .

وهنا أسرع السلطان الجديد بالقبض على ابن الخطيب ، وسجنه ، وبذلك تهيأت الفرصة لوضع نهاية الوزير المنكود ؛ فقد كان الوزير الجديد ببلاط فاس سليمان بن داود من الد خصوم ابن الخطيب ، ومن جهة أخرى فقد أرسل سلطان غرناطة سفيره ووزيره عبد الله بن زمرك الى فاس ليشهد آخر فصل فى هذه الرواية ، وليدق آخر مسمار فى نعش ابن الخطيب ، وبوصول ابن زمرك عقد السلطان أحمد مجلساً من مستشاريه وكبار رجال الدولة ، ونوقش ابن الخطيب أمام هذا المجلس ، حول كافة الادعاءات المقامة ضده ، وبالأخص دعوى الالحاد ، تلك الدعوى التى صاغها القاضى النباهى من قبل ، وكان مجلساً

صوريا بطبيعة الحال ؛ فان نتيجة المحاكمة كانت مقررة ، ومتفقا عليها من قبل، في كل من غرناطة وفاس .

لقد أوذى ابن الخطيب أمـام شهود هذه المؤامرة ، وافتـى الفقهـاء المتعصبون باعدامه شرعاً ، فأعيد الى سجنه حيث دبر الوزير سليمان بن داود أمر قتله في السجن ، وفعلا بعث اليه ببعض الأشرار الذين قتلوه خنقاً أواخر عام 776 هـ = 1375 م ، وفى الصباح سحبت جثته الى الفضاء ، حيث تم حرقها ، ودفن بضاحية فاس (12) .

ويروى المقرى أنه تمكن مؤخراً من معرفة قبر ابن الخطيب ، وذلك خلال اقامته بفاس ، أوائل القرن الحادى عشر الهجرى (القرن السابع عشر الميلادى) ، فزاره مراراً حيث يرقد ، وفى هذا يقول : « وقد زرته مراراً ـ رحمه الله تعالى ـ بفاس المحروسة ، فوق باب المدينة الذى يقال له : باب الشريعة ، وهو يسمى الآن « باب المحروق » ، وشاهدت موضع دفنه غير مستو مع الأرض، بل ينزل اليه بانحدار كثير (13) » .

رحم الله ابن الخطيب كفاء ما زود التاريخ من ذخائر ، واهدى العلوم والمعارف من نفائس .

12) ابن خلدون « العبر » ، جـ 7 ص 341 ـ 342 .

13) المقرى « نفح الطيب » ، جـ 7 ص 83 .

ابن الخطيب
في نظر بعض المؤرخين والمستشرقين

قضى الوزير الفذ ، والمفكر العظيم ، والمؤرخ الكبير ، والموسوعة العلمية ، على هذا النحو ، ضحية الأحقاد والأضغان ، وبالرغم مما أثير حول الرجل إبان محنته من موجة عارمة بالسخط ، فان هذه الموجة لم يطل أمدها ، اذ كانت مغرضة عارية من ثوب الحقيقة ، يدل على هذا ما رأيناه من المؤرخين القدامى ، الذين انبرت أقلامهم لانصافه ، واجلاله المكانة اللائقة به بين رجال التاريخ ، ونخص من المؤرخين أولئك الذين قربوا من عهده ؛ فابن خلدون صديقه القديم يسجل أولا أنه « هو الهالك لهذا العهد ، شهيداً بسعاية أعدائه (14) » ، ثم يورد ــ في مقام آخر ــ أنه « شاعر الأندلس والمغرب في عصره » ، كما يشهد له في ميدان الشعر والنثر بقوله : « وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره ، مع انتقاء الجيد منه ، وبلغ في الشعر والترسل ، حيث لا يجارى فيهما ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر ، وملأ الدولة بمدايحه ، وانتشرت في الآفاق قدماه » ، ويتحدث ابن خلدون كذلك عن رسائل ابن الخطيب السلطانية بقوله : « وصدرت عنه غرائب من الترسل في مكاتبة جيرانهم (ملوك بني الأحمر) من ملوك العدوة » .

وحقا لقد خلف ابن الخطيب من هذه الرسائل روائع ، تعد نموذجاً رفيعاً ، لما بلغه قلم الرجل من شأو في فن النثر الوزاري السياسي خاصة ،

---

14) المقري « أزهار الرياض » جـ 1 ص 191 .

سواء – من هذه الرسائل – ما بعث به على لسان سلطانه الى ملوك المغرب أو ملوك النصارى ، أو سلاطين مصر ؛ فبين أيدينا الكثير الجم ، ويعتبر كتابه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » مجلداً ضخماً لألوان نثر ابن الخطيب المختلفة، ما بين أغراض سلطانية ، الى رسائل اخوانية ، الى أوصاف حربية لمعارك دارت رحاها على أيامه .

أما المقرى فقد جمع في مؤلفه « نفح الطيب » معظم آثار ابن الخطيب ، وما كان له من أخبار في الفترة التى عاشها بالأندلس والمغرب ، ويكاد يكون معظم هذا السفر الضخم وقفاً على ابن الخطيب ، حتى أنه قرن اسم الكتاب به .

وقد أشاد المقرى في أكثر من موضع – من كتابه هذا – بوزيرنا ، فيقول عنه مثلا : « اذ هو فارس النظم والنثر في ذلك العصر ، والمنفرد بالسبق في تلك الميادين بأداة الحصر (15) » .

وفي مجال العلوم والآداب بألوانها هو « امام هذه الفنون ، المحقق لذوى الآمال والظنون ، المستخرج من بحار البلاغة درها المكنون ، وله اليد الطولى في العلوم على اختلاف أجناسها ، والألفاظ الرائعة التى تزيح وحشة الأنفس بايناسها (16) » .

وبالجملة ، فالمقرى يرى أن ابن الخطيب « قد قصرت ألسن البلغاء عن علاه ، وزانت صدور الدواوين حلاه ، وجمع خلالا حسانا ، وكان للدين لسانا (17) » .

أما الأمير « أبو الوليد اسماعيل ابن الأحمر » ، معاصر ابن الخطيب ، فيسجل في كتابه « نثير فرائد الجمان ، فيمن ضمنى واياهم الزمان » مواهب

---

15) المصدر السابق جـ 1 ص 77 .

16) المقرى « نفح الطيب » جـ 1 ص 110 .

17) المقرى « نفح الطيب » جـ 1 ص 111 .

هذا الوزير وعبقرياته ، فيقول : « هو شاعر الدنيا ، وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب العَرْض الى يوم العَرْض ، لا يُدافَع مدحه في الكتب ، ولا يُجنح فيه الى العتب ، آخر من تقدم في الماضي ، وسيف مقولة ليس بالكهام ؛ اذ هو الماضي ، والا فانظر كلام الكُتاب الأوّل من العُصْبة ، كيف كان فيهم بالافادة صاحب القصبة ، للبراعة ، باليراعة ، وبه أسكت صائلهم ، وما حمدت بكرهم وأصائلهم ، المشربة بالحلاوة ، الممكنة من مفاصل الطلاوة ، وهو نفيس العدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والامتاع بالفهوم العقلية (18) » .

كذلك يبدي النقاد الأجانب اعجابهم وتقديرهم لابن الخطيب ، وينوّهون في كثير من المناسبات بمنزلة الرجل العلمية والأدبية ، وما زالت آثاره محل دراستهم المستفيضة ، معينا لا يغيض ، ومنهلا بالمعارف يفيض .

وفي طليعة هؤلاء النقاد الأجانب المستشرق الأسباني (سيمونيت Simonet) حيث يقول : « ان ابن الخطيب قد خلّف لنا آثاراً كثيرة ، في النثر والشعر ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والرحلات ، والبلاغة ، والشريعة ، والعلوم ، والأخلاق ، والدين ، والنبات ، والطب والبيطرة ، والموسيقي ، والفن الحربي ، والسياسة ، وكلها غنية في الابتكار والتعمق والرشاقة (19) » .

وبهذه المناسبة نذكر أن المستشرق « سيمونيت » تناول بالتحقيق والترجمة المدن الأندلسية التي وصفها ابن الخطيب في كتابه « معيار الاختيار ، في ذكر المعاهد والديار » موضوع هذا الكتاب ــ كما أسلفنا في المقدمة ــ على نحو ما سنفصل القول عنه في الباب الثالث ، عند حديثنا عن قيمة مؤلفه هذا من الناحيتين التاريخية والأدبية .

---

18) المقري « أزهار الرياض ، في أخبار القاضي عياض » جـ 1 ص 191 .

19) F. J. Simonet. Discripcion Del Rieno de Granada, Sacada Del Los Autores Arabigos.

هذا ، ويكفينا في هــذا العرض الموجز للتعريف بابن الخطيب أن نقتصر على آراء هؤء المؤرخين وبعض المستشرقين كشهادة صادقة للرجل الذي دخل دخل التاريخ من أوسع أبوابه ، وإن هذه الشهادة من أمثال هؤلاء لفي غنى منا عن التعليق ، فقد استقاها أصحابها من واقع مؤلفاته العديدة ، أبلغ حجة ، وأوضح بيان ، واقوى برهان ، على مدى ما بلغه ابن الخطيب من شهرة سمت الى الأوج ، لما تمتع به من عقلية فذة ذات آراء نافذة .





الفصلُ الثاني

تراثه الفكري


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

آثار ابن الخطيب

مؤلفات الوزير العبقرى الغرناطي ابن الخطيب متعددة الفنون ، ما بين شعر ونثر ، وتاريخ ، وطب ، وموسيقي ، وسياسة ، وغيرها ، وهي ــ على وجه التقريب ــ تربو على الخمسين مؤلفاً ، ففى الترجمة التى عقدها ابن الخطيب لنفسه في آخر كتابه « **الاحاطة فى أخبار غرناطة** » أورد أسماء مؤلفاته ، بيد أن قدراً هاماً من هذه المؤلفات قد أعدم قبله ، على يد الوزير ابن زمرك والقاضى النباهي بغرناطة ، عام 773 هـ (1371 م) ، ومعظم هذه الكتب تتعلق بعلوم الأخلاق والعقائد ، أما مؤلفاته التى بين أيدينا الآن فهي القسم الأدبي والتاريخى في الغالب ، وقد حاول كثير من المؤرخين والمستشرقين حصر هذه المؤلفات في فهارسهم ، ولكن حياة ابن الخطيب السياسية ، والتقلبات التى تعرض لها جعلت هؤلاء المستشرقين أو المؤرخين لا يفرقون بين ما ألفه الرجل فى المغرب ، وبين ما ألفه فى الأندلس . ويرى « ليفي بروفنسال » أن مؤلفات لسان الدين قد بلغت حوالي ستين كتابا، ولكن لم يبق منها الا الثلث تقريبا.

هذا ، وإن كتب ابن الخطيب ــ سواء منها ما هو مخطوط لم يحقق بعد ، أم ما حقق ونشر ــ لتحتل مركزاً ممتازاً بين المصادر التاريخية المعتمدة ، لاسيما منها ما يتناول هذا الجزء من الغرب الاسلامى فى المغرب والأندلس ، فقد أنارت السبيل أمام المؤرخين والعلماء ، ويسرت لهم بحوثهم عن هــذه البقاع ، لقلة المصادر الأخرى المعاصرة ، ولأن ابن الخطيب قد عاش هــذه الحقبة من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

ونزيد فنقول : إن هذه المؤلفات العديدة ـ بصفة عامة ـ ما تـزال تحظى بالتقديـر والبحث منذ عصر وزيرنا حتى الآن ، لا عند العرب فقط ، بل وعند غيرهم أيضاً ، فذخائر ابن الخطيب تراث مشاع ، يدرسه المستشرقون على اختلاف أجناسهم ، ويجلون كنوزه ، ويبرزونها الى الفكر الانسانى فى العالم، ليشهد طلاب الأدب والمعرفة ما تمخضت عنه عقلية الرجل الواسعة ، مما تحتويه المكتبات العربية والأجنبية منها .

ويجدر بنا أن نعرض هنا موجزاً لأهم آثار ابن الخطيب مما ينسب إليه تأليفه ، سواء أكان موجوداً أم مفقوداً ، وسواء أكان مخطوطاً أم تم تحقيقه ونشره ، والذى لا أعتقد أنه بيان شامل لكل مؤلفاته ، فقد يتسنى لباحث آخر أن يعثر على مؤلفات أخرى له زيادة عما أعرض منها مما فاتني تحصيله (1) :

1 ـ « الاحاطة فى اخبار غرناطة » .

(تاريخ وتراجم)

من أشهر مؤلفات ابن الخطيب ، توجد له نسخ فى كل من القاهرة (الأزهر ودار الكتب) وتونس ، والرباط ، ومدريد ، والاسكوريال ، وعنوان الكتاب ينبىء عن موضوعه ، فقد تناول فيه أخبار هذه المدينة الشهيرة، تاريخياً وجغرافياً وسياسياً واجتماعياً وأدبياً ، منذ الفتح العربى لاسبانيا حتى عصر المؤلف (دولة بنى الأحمر) ، منتهياً منه إلى عهد السلطان الغني بالله محمد

(1) هذا القدر من مؤلفات ابن الخطيب اعتمدنا فى ايراده على المصادر التالية :

أ ـ نفح الطيب ، للمقري ، جـ 4 ص 653 ـ 657 .

ب ـ أزهار الرياض ، للمقري ، جـ 1 ص 189 ـ 190 .

جـ ـ فهرس بروكلمان C. BROCKELMAN : Geschichte der Arabischen Li teratur : (1948) 13. 11. p. 339.

د ـ فهرس العزيزى CASIRI : Bibliotheca Arabi co-Hispana Escurialensis

هـ ـ فهرس ديرنبور H. DIRENBOURG : Les Manuscrite Arabes de l'Escurial

F. PONS BIOGYES : Ensayobio - Bibliogr afico sobre los Historiodores y, V. I. & V. III. Geografas Arabiyo - Espanales (Madrid 1898) P. 334 - 347.

و ـ ابن الخطيب من خلال كتبه ـ للأستاذ التطوانى (جزءان) المغرب 1948 .

الخامس ثامن ملوك بني نصر ، حيث وزر له مرتين ، ويتألف هذا الكتاب من خمسة عشر سفراً ، وهي في مجموعها قسمان ، كما جاء بنهاية المقدمة :

1) « القسم الأول في حلي المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن » ، وهو الخاص بالعاصمة « غرناطة » ، ويشغل هذا القسم عشرين لوحة (أربعين صفحـــة) .

2) « القسم الثاني في حلي الزائر والقاطن ، والمتحرك والساكن » ، وهو لب الكتاب ، ففيه تراجم الملوك والوزراء والقواد والعلماء والأدباء ، ومن إلى هؤلاء ، ملتزماً فى هذا الترتيب الأبجدى لا التاريخى . ويرجع تأليف ابن الخطيب للاحاطة إلى ما قبيل عام 760 هـ ، ولكنه لم يفرغ منه إلا في أواسط عام 765 هـ ، ففى نهاية ترجمته لنفسه يحدثنا عن فراغه من « الاحاطة » بقوله : « والحال إلى هذا العهد ، وهو منتصف عام خمسة وستين وسبعمائة ، على ما ذكرته » . هذا، وتوجد من الاحاطة نسخة مطبوعة فى جزأين (القاهرة 1319 هـ)، ثم حقق الأستاذ عبد الله عنان الجزء الأول منها ، بتحقيق جديد ، ضمن مجموعة (ذخائر العرب 17) نشر دار المعارف بالقاهرة عام 1955 م .

2 ـ « **الاماطة عن وجه الاحاطة ، فيما أمكن من تاريخ غرناطة** » .

(تاريـــخ)

ورد ذكر هذا المؤلف في كتاب ابن الخطيب (اللمحة البدرية) ، فربما كان مختصراً لكتابة (الاحاطة) ، على أنه لم يرد اسمه ضمن كتبه التى ذكرها في هذه الاحاطة .

3 ـ « **مركز الاحاطة ، فى أدباء غرناطة** » .

مؤلف أورده المستشرقون في فهارسهم ، ويعتقد أنه تكملة لتراجم الاحـــاطـــة .

4 ـ « **ريحانة الكـُتـّاب ، ونُجعَة المُنْتاب** » .

(ألوان أدبية وسياسية)

عبارة عن مقتبسات من مؤلفاته الأخرى ، مثل بستان الدول ، ورقم

الحلل ، وغيرهما ، وتوجد لهذا المؤلف الضخم أكثر من مخطوطة ، في كل من الرباط والقاهرة ومدريد والفاتيكان ، بيد أن نسخاً كاملة منه موجودة في الخزانة العامة بالرباط ، بالاضافة الى أخرى بمكتبة مدريد الوطنية .

5 ـ « اعمال الأعلام ، في من بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام ، وما يجز ذلك من الكلام » .

(تاريــخ)

وهو مؤلف في التاريخ الاسلامي ، يقع في جزأين ، أولهما خاص بالشرق الاسلامي ، وثانيهما خاص بتاريخ الأندلس ، ولاسيما ملوك الطوائف ، وبني نصر ، وملوك النصارى ، وذلك على سبيل الايجاز . . . ، وقــد أشار المؤلف في مقدمته الى أن هذا الكتاب هو آخر مؤلَّف له ، فقد وضعه في الفترة الأخيرة من حياته وقبيل مقتله بالمغرب ، استجابة للظروف التي كان يجتازها حينئذ ، ثم انقلب الوضع بعدها ، وكانت نهايته على نحو ما سبق تبيانه .

توجد للكتاب نسخة في مدريد ، نقلا عن نسخة الجزائر ، وقد حقق الجزء الأول منه والخاص بتاريخ الأندلس ـ الأستاذ ليفي بروفنسال سنة 1934 م وحقق الجزء الثاني منه الدكتور العبادي والأستاذ محمد ابراهيم الكتاني ـ وهو الخاص بتاريخ المغرب ، العصر الوسيط ـ (دار الكتاب بالمغرب عام 1967 م) .

6 ـ « الكتيبة الكامنة ، في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة » .

(تراجــم)

هذا الكتاب عبارة عن تراجم لطائفة من الأدباء والعلماء والكتــاب المعاصرين للمؤلف ، متضمناً نماذج من آثارهم شعراً ونثراً ، ويقع المؤلف في ست وثمانين لوحة بمكتبة مدريد الوطنية ، وهي نسخة من مخطوطة الجزائر ، وقد حقق هذا الكتاب الدكتور إحسان عباس سنة 1963 م ، (دار الثقافــة ببيروت ـ المكتبة الأندلسية 8) ، وأثبت لنا أن ابن الخطيب كان يحرر الكتيبة في جمادى الآخرة 774 هـ ، معتمداً في ذلك على قول المؤلف نفسه في (الورقة 85 ب) : « . . وكل من ذكر الى هذا الحد من المشايخ والأتراب ، فقد تسابقوا تسابق الغراب الى التراب . . . ، ومن يجرى ذكره بعد هذا فهم بقيد الحياة لتمام جمادى الآخرة عام أربعة وسبعين وسبعمئة » ، كذلك استنتج المحقق

من دراسته الدقيقة لمقدمة هذا الكتاب أن ابن الخطيب ألفه في سن عالية بعد أن نفض عن كاهله غبار السياسة ، مستدلا بقول ابن الخطيب في المقدمة « . . . واستوعبت من صحبة المغرب حصتي ، وختمت بالدعاء قصتي ، ونزلت عن منصتي ، وابتلعت غصتي (21) » .

7 _ « اللمحة البدرية ، في الدولة النصرية » .
(تــاريخ)

مؤلف تاريخي موجز ، يدور حول أخبار ملوك بني الأحمر ، منذ قيام دولتهم حتى عام 765 هـ . . ، والكتاب مطبوع في القاهرة عام 1947 م .

8 _ « رقم الحلل ، في نظم الدول » .
(شعــر)

نظم شعري في ألف بيت ، يتناول فيه المؤلف تاريخ الدولة الاسلامية بالمشرق والأندلس ، مذيلا كل قصيدة بشرح لها ، ويقع المؤلف في مجلد واحد ، طبع بتونس عام 1316 هـ .

وتجدر الاشارة الى أن هذا الكتاب هو نفسه « الحلل المرقومة » ، تبعاً لما جاء في نسخة مكتبة مدريد الوطنية ، والتي نسخت عن مخطوطة الاسكوريال (رقم 1776) .

9 _ « مفاخرة بين مالقة وسلا »
(اجتماعيات)

10 _ « خطرة الطيف ، في رحلة الشتاء والصيف »
(تاريخ لرحلة ملكية)

---

(21) راجع : (الكتيبة الكامنة) لابن الخطيب ، تحقيق الدكتور احسان عباس ص 13 _ 15 وهذا يخالف ما ارتآه الأستاذ محمد عبد الله عنان في مقدمة « الاحاطة » من أن « الكتيبة » قد ألفها ابن الخطيب في باكورة حياته ، ونحن نميل الى الأول .

11 ـ « نفاضة الجراب ، في علالة الاغتراب »

(تاريخ مغربي)

يقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء ، أولهـا ما زال مفقوداً . وقد نشر الدكتور العبادي الجزء الثاني منه بمعرفة دار الكاتب العربي بالقاهرة 1968 م . أما الجزء الثالث فقد عثر عليه الأستاذ عبد الوهاب ابن منصور مؤخرا .

12 ـ « **معيار الاختيار ، في ذكر المعاهد والديار** » .

(الذي هو بين أيدينا الآن) .

13 ـ « **مقنعة السائل ، عن المرض الهائل** » .

(طـب)

عبارة عن رسالة وصف فيها ابن الخطيب الوباء الكبير ، الذي اجتاح الأندلس وحوض البحر الأبيض المتوسط ، عام 749 هـ (1348 م) ، وسقط فيه جمهرة من أعيان الأندلس والمغرب وعلمائهما ، وقد نشرت هذه الرسالة مع ترجمتها للألمانية بمعرفة مجلة أكاديمية العلوم الباڤارية (1863 م) .

14 ـ « **الاشارة الى أدب الوزارة** »

(سياســـة)

مؤلف تحدث فيه لسان الدين عن واجبات الوزير ، وما ينبغـــي توافره من الشروط فيمن يتقلد هذا المنصب ، وبالكتاب مقامة «السياسة» ، والكل ما زال مخطوطا بالأسكوريال ، وذلك ضمن المخطوطة (554) ، وقد فرغت من تحقيقـه، مردفا به « مقامة السياسة » لنفس المؤلف . وسيظهر ذلـــك قريبـــا .

15 ـ « **عمل من طب لمن حب** » .

(طـب)

مؤلف طبي كبير ، تكلم فيه المؤلف عن الأمراض المختلفة ، وشخّص الاصابات ، كما شرح وسائل الوقاية ، وسبل العلاج ، والكتاب مهدى من ابن

الخطيب الى السلطان أبي سالم المريني ، فقد ألّفه من أجله عام 761 هـ ، وهو مخطوط توجد منه نسخة بمدريد ، ويقع في 151 لوحة من الحجم الكبير .

16 ـ « **المسائل الطبية** » .

17 ـ « **اليوسفي في الطب** » .

18 ـ « **رجز الأغذية** » .

19 ـ « **رسالة تكوين الجنين** » .

20 ـ « **الرجز في عمل الترياق** » .

21 ـ « **الوصول لحفظ الصحة في الفصول** » .

22 ـ « **رجز في الطب** » .

23 ـ « **البيطرة والبيزرة** » .

وكلها رسائل طبية (16 ـ 23) ، ألفها ابن الخطيب في مناسبات شتى ، وأورد ذكرها في كتابه الاحاطة ، كما أشار الى معظمها المقري في مؤلفيه نفح الطيب ، وأزهار الرياض .

24 ـ « **عائد الصلة** » .

(تراجـم)

يحتوي على تراجم لطائفة من الأعلام ، ممن لم يرد لهم ذكر في كتاب « الصلة » لابن الزبير .

25 ـ « خلع الرسن ، في وصف القاضي أبي الحسن » .

(رسالة شخصية)

في وصف القاضي أبي الحسن ، هذه رسالة كتبها ابن الخطيب ، جواباً عن الرسالة التي وجهها إليه هذا القاضي النباهي ، إثر مغادرة الأول للأندلس نهائياً ، والتجائه الى المغرب دون علم سلطان غرناطة يومئذ (الغني بالله محمد الخامس) .

26 ـ « **التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى** » .

(تراجم وتاريخ)

وهو عبارة عن تراجم لأعيان الأندلس في القرن الهجرى ، وتنويه بمملكة بني الأحمر منذ نشأتها حتى عصر المؤلف ، وقد اعتمد المقرى على هذا الكتاب في كثير من التراجم التى أوردها في كتابه « نفح الطيب » ، ويوجد للتاج المحلى نسخة مخطوطة ضمن مخطوط كبير بالاسكوريال (554 الغزيرى).

27 ـ « **بستان الدول** » .

(تاريخ سياسى)

كتاب سياسى شامل ، تحدث فيه المؤلف عن القضاء ، والحرب ، والصناعة وأهلها ، وطبقات الشعب ، وأفرد لكل شجرة ، بحيث ألف من المجموع هذا « البستان » . ويبدو أن الظروف لم توات ابن الخطيب حتى يكمله .

28 ـ « **السحر والشعر** » .

(أدب)

مجموعة مختارة من شعر المشارقة والمغاربة ، فيما يتعلق منها بالوصايا والمواعظ ، اختارها ابن الخطيب لولده عبد الله حيث أهداه اليه يافعاً ، والكتاب ما زال مخطوطاً في كل من مدريد والرباط (المكتبة الكتانية) ، وهو لدىّ الآن تحت التحقيق والدراسة .

29 ـ « **كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان** » .

(وثائق تاريخية)

مؤلف تاريخي ، يضم مجموعة من الرسائل السياسية ، بعث بها ابن الخطيب على لسان السلطان أبى الحجاج يوسف الأول ، الى معاصره السلطان أبى عنان فارس المرينى ، فيما عدا وثيقة عقد زواج نصرى ، صدّر بها كتابه هذا تلو المقدمة ، وقد قمت بتحقيق هذا المؤلف ، من نسخة يتيمة بالاسكوريال برقم(1712 الغزيرى) وتقع فى ستين لوحة ، ونشرته دار الكتاب العربى بالقاهرة سنة 1968 م .

30 ــ « **اوصاف الناس في التواريخ والصلات** » .

(تراجم)

كتاب يشتمل على تراجم أدبية تاريخية ، توجد له مخطوطة جيدة للغاية بمكتبة الاسكوريال بمدريد ، قمت بتصويرها ، وقد فرغت الآن من تحقيقه، وسيظهر قريباً .

31 ــ « **تافه من جمّ ، ونقطة من يمّ** » .

(شعــر)

مصنف من أشعار أستاذ ابن الخطيب الرئيس أبي الحسن علي ابن الجيـّـاب .

32 ــ « **الدرر الفاخرة ، واللجج الزاخرة** » .

(شعــر)

مختارات من شعر صديقه وأستاذه أبي جعفر بن صفوان .

33 ــ « **جيش التوشيح** » .

(موشحات)

مجموعة من الموشحات الأندلسية ، جمعها ابن الخطيب في كتـاب أسماه بهذا الاسم ، ونسبها لأصحابها من أئمة التوشيح في الأندلس ، وقد نشر في تونس 1967 م .

34 ــ « **روضة التعريف بالحب الشريف** » .

(تصوف)

مؤلف في التصوف ، يعزو المؤرخون الى هذا الكتاب أنه كان وثيقة الاتهام بالالحاد والزندقة ضد ابن الخطيب ، حسبما أملت الأهواء عـلى من صاغوا صك الاتهام للرجل ، حتى سيق إلى الموت من أجله ، وتوجد من الكتاب نسخة مخطوطة بالرباط ، بيد أنها ناقصة ومشوهة (22) .

---

22) لقد عثر الأستاذ عبد القادر احمد عطا على نسخة مخطوطة لهذا الكتاب بالمدينة المنورة ، بمكتبة الشيخ عارف حكمت ، ولما كانت النسخة في درجة جيدة فقد اتخذها اساساً لتحقيق الكتاب ، مسترشداً معها بنسخة أخرى عثر عليها بمكتبة الظاهرية بدمشق ، الى جانب نسخة أسعد أفندي بتركيا المصورة بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ، وقد نشر المحقق « روضة التعريف » بمعرفة دار الفكر العربي بالقاهرة عام 1968 م .

35 ـ « استنزال اللطف الموجود ، في سر الوجود » .
(تـصـوف) .

36 ـ « فتات الخوان وسقط الصوان » .
(رسالة شعرية) .

37 ـ « المختصر في الطريقة الفقهية » .
(ديـن) .

38 ـ « مثل الطريقة ، في ذم الوثيقة » .
(رسالة شخصية)

39 ـ « الألفية في أصول الفقه » .
(رسالة دينية شعرية في ألف بيت) .

40 ـ « النفاية بعد الكفاية » .
(رسالة أدبية) .

41 ـ « كتاب المحبة » .
(اجتمـاع) .

42 ـ « المنح الغريب ، في الفتح القريب » .
(أ د ب) .

43 ـ « تلخيص الذهب ، في اختيار عيون الكتب » .
(أ د ب) .

44 ـ « مساجلة البيان » .
(تراجم أدبية) .

45 ـ « المباخر الطيبية ، في المفاخر الخطيبية » .
(أ د ب) .

هذه المؤلفات (35 ـ 45) وردت في فهارس المستشرقين ، كما أشار إليها بعض المؤرخين القدامى .

46 ـ « رسائل في الموسيقى » .

47 ـ « رسائل في الفلسفة » .

48 ـ « رسائل في الفقه » .

وهذه رسائل أخرى متفرقة ، ذكرتها الفهارس أيضاً ، ولم يصل إلينا منها شيء .

49 ـ « الصيّب والجهام ، والماضي والكهام » .

(شعـر)

وهو عبارة عن « الديوان » الذي نسبه إليه حاجي خليفة ، في كتابه « كشف الظنون » ، وتوجد للكتاب ـ بهذا العنوان ـ نسخة مخطوطة في مكتبة القرويين بفاس . وقد حقق أخيرا بالجزائر ، وتم طبعه .

50 ـ « ظل الغمام ، المقتضب من الصيّب والجهام » .

(شعـر)

وهو مختصر لديوانه السابق ، لم يعثر عليه بعد ، ولكن ورد ذكره ضمن مؤلفاته في الاحاطة .

51 ـ « طرفة العصر ، في اخبار دولة بني نصر »

(تـاريخ)



الفصل الثالث

عرض وتحليل لمعيار الاختيار



موضــــوع الكـــتــــاب

ذكر الوزير ابن الخطيب فى آخر كتابه « الاحاطة » أسماء مؤلفاته اجمالا ، وأورد من بينها مؤلفه «معيار الاختيار، فى ذكر المعاهد والديار» على أنه مؤلف قائم بنفسه ، ثم أورده فى باب « المقامات » من مؤلفه الضخم « ريحانة الكتاب ، وتحفة المنتاب » والذى يشتمل على أكثــر من غرض ولون أدبى تاريخى .

والمعيار الذى نتعرض لدراسته عبارة عن وصف شامل لأهم مدن مملكــة غرناطــة ، وأهم مـــدن المغرب ، تناول فيـــه ابن الخطيـــب النواحى الجغرافية والتاريخية والاجتماعية لمعظم المدن التى أوردها .

لقد بدأ أول ما بدأ بجبل الفتح (جبل طارق) ، وهو يومئذ ضمن مملكة بنى مرين المغربية ، وكان طبيعيا أن يبدأ الوصف بالجبل ، فهو كما يقول المؤلف : « فاتحة الكتاب من مصحف ذلك الاقليم ، ولطيفة السميع العليم ، وقصـــص المهـــارق ، وأفق البـــارق ، ومتحـــف هـــذا الوطن المباين للارض المفارق » ، والجبل بالنسبة للبـــلاد الاندلسيـــة « محط طارقها بالفتح طارق » وله دوره الهام فى حماية البلاد الاندلسية حيث أنه « مسلحة من وراءه من العباد ، وشقة القلوب والاكباد » .

أما المدن الاندلسية التى أعقبها الجبل فى الوصف ، فهـــى ـــ حسب الترتيب الذى أوردها به ـــ كما يلى :

1	اسطبونة	Estepona
2	مربلة	Marabilla
3	سهيل	Fuenjerola
4	مالقة	Malaga
5	بليش مالقة	Velez Malaga
6	قمارش	Comares
7	المنكب	Almuncar
8	شلوبانية	Salobrana
9	برجة	Berja
10	دلاية	Dalias
11	المرية	Almaria
12	طبرنش	Tabernas
13	بيرة	Vera
14	مجاقر	Mujacar
15	قنتورية	Cantoria
16	برشانة	Purchena
17	أورية	Oria
18	بليش الشقراء	Velez Robia
19	بسطة	Baza
20	اشكر	Huescar
21	أندرش	Andarax
22	شبالش	Jubles
23	وادى آش	Juadix
24	فنيانة	Finana
25	غرناطة	Granada
26	الحمة	Alhama
27	صالحة	Zalia



28 ـ أليرة ومنتفريد	Illora e Mouteferio
29 ـ لوشة	Loja
30 ـ أرجذونة	Archidona
31 ـ أنتقيرة	Antequera
32 ـ ذكوان	Coin
33 ـ قرطمة	Cartama
34 ـ رندة	Ronda

وأما المدن المغربية فهى حسب ترتيب المؤلف أيضا :

1 ـ بادس ، 2 ـ سبتة ، 3 ـ طنجة ، 4 قصر كتامة ، 5 ـ أصيلا ، 6 ـ سلا ، 7 ـ أنفا ، 8 ـ أزمور ، 9 ـ تيط ، 10 ـ رباط أسفى ، 11 ـ مراكش ، 12 ـ أغمات ، 13 ـ مكناسة ، 14 ـ فاس ، 15 ـ مدينة الملك ، 16 آقرسلوين ، 17 ـ سجلماسة ، 18 ـ تازة ، 19 ـ غساسة .

وعلى هذا فقد تناول ابن الخطيب أول ما تناول من مدن الاندلس مدينة « اسطبونة » ، وانتهى بمدينة « رندة » ، وهو فى تناوله هذا للمدن لم يراع ترتيبا جغرافيا ولا تاريخيا ، بل ولا أولويا ، فقد كانت مدينة غرناطة مثلا فى المرتبة السادسة بعد العشرين من وصفه ، رغم أنها حاضرة المملكة ، ولها من المبررات ما يجعلها أهلا للمرتبة الاولى من وصفه ، ولكن المؤلف حرر نفسه من كل قيد لتقديم مدينة على أخرى ، أيا كانت دواعى التفضيل ، وكيفما بلغت أهميته .

لقد كان المؤلف يتعرض للمدينة فى وصفه ، فيتناولها من معظم ما يتعلق بها ، اذ يتحدث عن موقعها الجغرافى ومكانتها التاريخية ، وحالة سكانها الاجتماعية ، فيعطينا صورة واضحة ـ الى حد بعيد ـ عن كل مدينة تناولها قلمه .

ففى وصفه لموقع مدينة « قمارش » مثلا ، وما للموقع من أهمية، يقول : انها « مودع الوفر ، ومحط السفر ، ومزاحم الفرقد والغفر ،

حيث الماء المعين ، والقوت الممين » . وأما منتجات البلد من محاصيله ، فقد أشار الى أن « به الاعناب التى راق بها الجناب ، والزياتين واللوز والتين ، والحرث الذى له التمكين » . وفى معرض الوصف الاجتماعى يستدرك ابن الخطيب ، ذاما أهل البلد حين يقول : « الا أنه عدم سهله ، وعظم جهله ، فلا يصلح فيه الا أهله » .

أما اذا ارتأى مدينة حقيقة بمدح أحوالها الاجتماعية فهو لا يقصر فى حقها ، فمثلا مدينة « المرية » — على حد قوله « محط التجار ، وكرم النجار ، ورعي الجار . ما شئت من أخلاق معسولة ، وسيوف من الجفون السود مسلولة ، وتكك محلولة ، وحضارة تمبق طيبا ، ووجوه لا تعرف تقطيبا » وهى — الى جانب تلك الرفاهية وذلك النعيم ، واللذة والسرور المقيم — « لم تزل — مع الظرف — دار نساك ، وخلوة اعتكاف وامساك » ، فهو حريص فى الوصف ، دقيق فى الاحاطة ، شأن الخبير بالاماكن والبقاع .

ناخذ أيضا مثالا لنهج المؤلف فى الاشادة بالاجتماعيات عند الناس ، وطريقته فى العرض للحقائق ، وتقصيه لها ، حين يذكر عن مدينة برشانة أن « أهلها أولو عداوة لاخلاق البداوة ، وعلى جوههم نضرة وفى أيديهم نداوة . يداوون بالسلافة علل الجلافة ، ويؤثرون علل التخلف على لذة الخلافة ، فاصبح ربعهم ظرفا قد ملىء ظرفا ، فللمجون به سوق ، وللمجون ألف سوق ، تشمر به الاذيال عن سوق ، وهى تبين بعض بيان عن عن أعيان» ، هذا من جانب، ومن جانب آخر لهذه المثالب، يذكر أن «وغدها (المدينة) يتكلم بملء فيه ، وحليمها يشقى بالسفيه ، ومحياها تكمن حية الجور فيه » .

هذا ، وقد ظفرت بعض المدن الاندلسية بعناية خاصة من قلم ابن الخطيب ، كغرناطة ومالقة ، ولا عجب فلكل منهما مركزها الادارى والسياسى ، فالاولى حاضرة ملك بنى الاحمر ، وزهرة المدن الاندلسية ،

ولها على ابن الخطيب أياد لا تنسى ، فكان عليه أن يوفيها حقها ، وأن يعطيها مستحقها ، فيجلها — من وصفه — مكانتها اللائقة ، ولكن هذا لا يمنعه — كمؤرخ صادق — من أن يبرز لنا بعض عيوبها : سواء فى طقسها الشتوى ، وبردها الذى « يمنع الشفاه من رد التحيات » ، أو الاسعار التى « معيارها يشعر بالترهات » ، وجفاف طباع بعض أهلها ، الذى يصل الى درجة « سوء الجوار ، وجفاء الزوار ، ونذالة الديار » : فهذا المسلك من ابن الخطيب نحو المدن فى وصفها يعطينا فكرة عن صدق قلمه، وتحرره من أى قيد، فغرناطة — وان كانت مقامه بجوار مخدوميه بنى الاحمر، ومحل سلطانه وجاهه — الا أن ذلك كله لا يمنعه من اعطاء كل ذى حق حقه ، وأنه فى هذا لا تأخذه لومة لائم .

لنستمع اليه فى شأن العاصمة النصرية ، حين يستهل وصف حمرائها: « كرسيها ظاهر الاشراف ، مطل على الاطراف ، وديوانها مكتوب بآيات الانفال والاعراف » ، وفى معرض موقع المدينة ، يذكر لنا أن « هواءها صاف ، وللانفاس مصاف . حجبت — الجنوب عنها — الجبال ، فأمن الوبا والوبال ، وأصبح ساكنها غير مبال ، وفى جنة من النبال ، وانفسحت للشمال ، واستوفت الشروط على الكمال » ، كما يتحدث مشيدا بنهر شنيل ، وفضله على جنات غرناطة ومروجها ، فيقول « وانحدر منها (جبل سييرا نيفادا) مجاج الجليد على الرمال ، وانبسط — بين يديها — المرج (فحص غرناطة) الذى نضرة النعيم لا تفارقه ، ومدارى النسيم تفلى بها مفارقه . ريع من وادية بثعبان مبين ، ان لدغ تلول شطه تلها للجبين ، وولدت حيات المذانب عن الشمال واليمين ، وقلد منها اللبات سلوكا تأتى من الحصباء بكل در ثمين ، وترك الارض مخضرة ، تغير من خضراء السماء ضرة ، والازهار مفترة ، والحياة الدنيا بزخرفها مغترة »، ان هذه الروعة البيانية ، ودقة التعابير البلاغية ، جعلت الصورة تتجسم أمامنا ، حتى لنكاد نلمس منها كل جانب .

ثم يعود المؤلف بنا من مطافه الى الحمراء مرة أخرى ، فيكشف لنا عن منشآتها الرائعة ، وجناتها الساحرة ، وكيف أنها مدرج سلالة بنى نصر ، فيقول : « وتبرجت بحمرائها القصور مبتسمة عن بيض الشرفات، سافرة عن صفحات القباب المزخرفات ، تقذف بالانهار — من بعد المرتقى — فيوض بحورها الزرق ، وتناغى أذكار المآذن بأسمارها نغمات الورق . وكم أطلعت من أقمار وأهله ، وربت من ملوك جلة .. »

أما مالقة — عاصمة الحموديين الادارسة — فيتحدث المؤلف — بادىء ذى بدء — عن تاريخها كعاصمة لهؤلاء فيقول : « كرسى ملك عتيق ، ومدرج مسك فتيق ، وايوان أكاسرة ، ومرقب عقاب كاسرة ، ومجلى فاتنة حاسرة ، وصفقة غير خاسرة » ، ثم يشيد بشهرتها الصناعية فى الفخار والحرير « .. ومذهب فخارها له على الاماكن تبريز ، الى مدينة تبريز ، وحلل ديباجها بالبدائع ذات تطريز » . وبعد أن يصور محاصيلها وفواكهها، وما اشتهر به قومها من الاسهام بالبر بأوفر نصيب ، فى تخليص أسرى المسلمين من أيدى النصارى ، ووفرة أعيانها وعلمائها — يتناول بعدئذ مساوىء المدينة ، فيقول : « وعلى ذلك ، فطينها يشقى به قطينها ، وأزبالها تحيى بها سبالها ، وسروبها يستمد منها مشروبها ، فسحنها متغيرة ، وكواكب أذهانها النيرة متحيرة .. وطعاما لا يقبل الاختزان ، ولا يحفظ الوزان ، وفقيرها لا يفارق الاحزان .. » الى آخر هذه المساوىء التى أوردها عن مدينة مالقة .

وهكذا نرى أن موضوع الكتاب فى وصفه للبلاد الاندلسية أو المغربية قد اختط فيه ابن الخطيب موضوعية لا تبارى ، وشمولا فى الوصف لمختلف النواحى ، التاريخية ، والجغرافية ، والاجتماعية ، والاقتصادية، فى صورة ناطقة نابضة .

منهج ابن الخطيب فى الكتــاب

عندما كتب ابن الخطيب مؤلفه « معيار الاختيار » اختط فى التحرير طريقة خاصة ، تختلف عن معظم كتاباته فى مؤلفاته الاخرى ، ذلك أنه بدأ بمقدمة معتادة أعقبها بمحاورة ، ثم انتهى الى صميم الموضوع ، فقسمه الى مجموعتين مستقلتين ، وأدرج كل مجموعة تحت مجلس خاص، وقصر المجلس الاول على المدن الاندلسية، ثم أعقبه بالمجلس الثانى فقصره على المدن المغربية . وهكذا بدأ المؤلف كتابه فى المجلس الاول ، بما جرت به عــادة المؤرخين والمؤلفين المسلمين ، وذلك بحمد الله تعالى ، والثناء عليه بما هو أهله ، والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم ، كل هذا فى قالب يتناسب والموضوع الذى يتعرض له ، وهو وصف البلدان .

ثم ثنى بأن الانسان مدنى اجتماعى بطبيعته ، لا يستقيم حاله بدون مجتمع ، وبالتالى لا يقوم المجتمع بدونه ، وأنه ـ أى الانسان ـ أحيانــا يتخذ سكناه حسبما اتفق ، وأحيانا يكون له ظرف الاختيار ، مرجحا من الامكنة ما غلبت حسناته على سيئاته ، وهذه الامكنة « كثيرا ما تنافر الى حكمها النفر ، وأعمل السفر » ، وأيا كان ، فانه لا توجد مدينة قد كملت من كافة النواحى كما يقول .

وبعدئذ يتحدث المؤلف عن خبر فى قالب قصة ، فهناك راو استهواه مكان ما ، فنزل به حتى حل المساء ، وحينئذ أبصر شيخا معه تلميــــذه وحماره ، وما استقر المقام بذلك الشيخ حتى حن الى صباه ، وضــاق بمرارة المشيب ، وقسوة الغربة ، وشعوره بأن نفسه لم تتب بعــــد ، وأخيرا يسأل الله العفو والغفران ، والقربى من رحمته يوم الحســـاب ، معتمدا فى اجابة سؤله على شفاعة شيبه ، ثم تدور مناقشة بين الشيــخ وفتاه ، وعندها ينبرى الشيخ ، فيحدثنا عن مدى خبراته فى أمور شتــى

نتيجة علمه وبحثه ، وجوبه بلاد العالم ، ووقوفه بأقطار كثيرة للـــدرس والبحث . وتكون النتيجة أن يتقرب الراوى الى الشيخ ، مطمئنا اياه الى حسن طويته ، وما عليه من خلق يؤهله لان يتشرف بالاستماع الى فيض علمه ، ويسأل الراوى الشيخ ان يصف له بلاد الاندلس ثم بلاد المغرب ، فى دقة وأمانة واخلاص ، فأجابه الشيخ الى طلبه ، وبدأ الراوى بالسؤال عن جبل الفتح (جبل طارق) وهكذا .. حتى انتهى من المدن الاندلسية بمدينة « رندة » . ثم أخبر الشيخ سائله بأن الصبح قد قارب الوجود ، وأنه قد وفاه ــ فى الوصف ــ حسابه ، ولم يبق الا أن يكافئه على هذه الذخائـــر حتى يكون له أليفا ورفيقا ، فينثر الراوى المال بين يدى محدثه فيأخذ منه شاكرا ، وأخيرا يتفقد الراوى الشيخ على ضوء مصباح ، فلا يجد له أثرا ، « فكأن الفلك لفه فى مداره ، أو خسفت الارض به وبداره » ، فيتأســى الراوى عن هذا الفراق بأن « لكل اجتماع من خليلين فرقة » .

هكذا ينتهى نهج المؤلف فى « المجلس الاول » من كتابه .

أما فى « المجلس الثانى » فان الراوى يلج أحد الاســـواق ، وفى السوق « أمم تنسل من كل حدب ، وتنتدب من كل منتدى ومنتدب » ، فى بيع وشراء ، وتحايل للتعايش والكسب ، بمختلف الوسائل والاعمـــال ، فهناك « رقاة جنون ، بضروب من القول وفنون ، وفيهم كهل قد استظــل بقيطون » ، قد ادعى العلم بالمغيبات ، والتفسير للمشكلات والاحاطـــة بأسرار الطبيعة ، وشفاء العضال من الامراض ، وفى مجال العلوم قد برع، ما بين طب ورياضة وتاريخ وجغرافية، وحديثوتفسير، ومنثور ومنظور، ومنطق وبرهان ، فهو قد جاب الاقطار فى الدرس والبحث والمعرفة . وهنا يجد الراوى بغيته ، فقد ذكره ذلك الرجل بالشيخ الاول ، فأراد أن يستكمل

معلوماته عن البلدان ، فاخترق اليه جموعا بشرية من قصاده ، وخاطبه بقوله : « بى الى تعرف البلدان جنوح وجنون ، والجنون فنون » فأجابه الشيخ موافقا ، متحفظا بأنه « لا تجود يد الا بما تجد ، والله المرشد » .

وهنا يسأله الراوى عن البلاد المغربية ، بادئا منها بـ « بادس » ، والشيخ يجيبه بمعلوماته عنها، واحدة تلو الاخرى، حتى ينتهى منها بمدينة « غساسة » ، وعندئذ « وجب اعتناء بالرحيل واهتمام ، وكل شىء الى تمام » كما قال الشيخ ، فقد انفض عن السوق أهله ، ولم يبق الا أن ينثر الراوى دنانيره ، مكافاة طيبة لمحدثه، فيتناول منها ما تستغنى به النفس، وقبل أن يتهيأ للسير لم ينس — وهو الحكيم المجرب — أن يزود الراوى بنصح منظوم ، فيه مزايا التحلى بالقناعة ، والايمان بالقضاء والقدر ، والتحفظ على السر وكتمانه ، وتحاشى التعثر بالناس ، وتقوى الله تعالى، فالقرب منه رهن بها ، وليست هناك خسارة أفدح من معصية الخالق . وأخيرا نرى الشيخ قد « ضرب جنب الحمار ، واختلط فى الغمار » وبقى الراوى يتتبع أثر الشيخ، ولكنه تعزى عن فراقه بأن «كل نظم الى انتثار»

بهذا ينهى ابن الخطيب « المجلس الثانى » ، وبانتهاء « المجلس الثانى » ينتهى الكتاب نفسه .

هذا هو المنهج الذى سلكه ابن الخطيب المؤلف فى كتابه « معيار الاختيار » ، وهو منهج — كما رأينا — قصصى ، دار فى فلك نوع خاص من القصة ، وهذا النوع هو الذى عرف من بين فنون النثر العربى باسم « المقامة » ، متخذا من المحاورة وسيلة لتشويق القارىء والمستمع ، وبخاصة فى صلب الموضوع ، عند وصفه للبلاد .

قيمة الكتاب الادبية ومدى صلتـــه بفـــن
المقامات فى الادب العربـــى

ذكرنا أن « معيار الاختيار » قد جاء فى صورة قصة محـــــدودة ، والقصة من أدق الفنون الادبية وأصعبها تركيبا ، وهى تتمتع من بين سائر فنون الادب بالذيوع والانتشار ، لما تشتمل عليه من استمالة القلـــوب ، وامتناع النفوس ، فالآداب العالمية قد زخرت بهذا اللون الغنى منذ أقدم العصور ، ولقد ورثنا عن العرب منذ جاهليتهم ذخيرة نفيسة من القصص، تناولها المشتغلون بالبحث والنقد درسا وتحليلا ، وانقسموا حيالها الـــى فريقين متباينين ، ولكل وجهة ، فبعض المستشرقين فى دراستهم للقصـــة العربية يرون مع « كارادي فو » أنه « لم يسبق الادب العربى أى أدب آخر فى نوع الاقاصيص، بينما البعض الآخر يرى أن العرب ــ ابان حضارتهم ــ زودوا لغتهم بفلسفة الشعوب وعلومهم ، وتجاهلوا أدب القصة تجاهلا يكاد يكون مطلقا ، ومن ثم جهلوا أصول الفن القصصى ، فكانت قصصهم تفقد قيمتها الفنية تبعا لذلك .

وانصافا للحق نقول : ان القصص العربى ذو ألوان مختلفة ، وقد حظيت بعض هذه الالوان بعناية العرب ، فراعوا فى صوغها مقومات القصـــــة ، وأسس بنائها ، فجاء هذا اللون منها تحفة فنية ، لها قيمتها وروعتهـــا ، والبعض الآخر من ألوان القصة العربية فقد معظم هذه الاسس ، فكان مثارا للنقد ، ومحلا للملاحظة .

والقصص العربى أنواع : أشهرها القصص الدينى ، ومصـــــادره التوراة والانجيل والقرآن ، ثم ما جاء على ألسنة الرواة والمحدثين مـــن أخبار الاولين وقصصهم ، مزج فيها القصاص الحقيقة بالخيال ، والتاريخ بالاسطورة . وكان الهدف من هذا النوع من القصص الوعظ والارشاد فى معظمه ، ترغيبا فى الجنة وترهيبا من النار .

ومن أنواع القصص أيضا عند العرب القصص التاريخي البطولي ، كقصة عنترة بن شداد في حروبه ، وسيف بني يزن في كفاحه ، وحرب البسوس في طولها وشناعتها ، ومنها القصص العاطفي ، كقصة « قيس المجنون بليلاه » ، وعنترة العاشق لعبلة ، وكثير الواله بعزة ، الى آخر هذه الالوان القصصية ، التي تزخر بها كتب الادب العربي، وبعض التراجم الاجنبية . على أنه من الملحوظ أن القصة العربية تطورت مع الزمن ، واتخذت في كل عصر طابعا خاصا ، رقيا عما قبل ، مع متانة في البناء ، منذ الجاهلية حتى عصرنا الحاضر ، وقد تولد عن التصرف في تركيبها نوع خاص منها ، وهو ما سمي ــ بين فنون النثر العربي ــ باسم « المقامة » ، والتي ترتكز على العناية بالاسلوب ، وتغليب الشكل على الجوهر ، فمن مقوماتها البلاغية السجع والجناس والكناية والتلاعب بالالفاظ ، ومن مقوماتها اللغوية طائفة ضخمة من شوارد اللغة ، وشواذ القواعد النحوية، ومن مقومات أسلوبها ــ كذلك ــ تضمينها بعض آيات القرآن الكريم ، أو الحديث النبوي ، أو الحكم والامثال ، أو المنثور أو المنظوم ، كما تشتمل المقامة على المعلومات الفقهية والطبية والعروضية والتاريخية ، الى غير ذلك مما عرف في عصر المولعين بصناعتها .

فالمقامة ــ اذن ــ نوع من الترف الادبي ، وميدان للتدليل على مبلغ معرفة المؤلف بالعلوم والفنون على اختلاف أنواعها ، وقد ابتدعها « بديع الزمان الهمذاني » من أشهر أدباء العصر العباسي ، ويقال : انه أنشأ حوالي أربعمائة مقامة ، ولكن لم يظفر الناس منها اليوم بأكثر من نيف وخمسين مقامة ، ومن مقاماته الشهيرة المقامة القريضية ، نسبة الى القريض ، وهو الشعر ، لانه موضوعها ، والمقامة الخمرية ، والمقامة الجاحظية ، والمقامة الدينارية ، والمقامة البصرية ، والمقامة الكوفية ، ثم قلده في نفس العصر كثيرون ، ولكن الحريري كان بارعا فيها أيضا ، ومن مقاماته المعروفة مثلا « المقامة الصنعائية » نسبة الى صنعاء ، احدى مدن اليمن المشهورة .

أما ماذا يقصد بالمقامة عموما فهو تصوير بؤس الادباء ، واحتيالهم أحيانا لكسب عيشهم ، ولها راوية ينقل الخبر ، وبطل تدور حوله حوادثها.

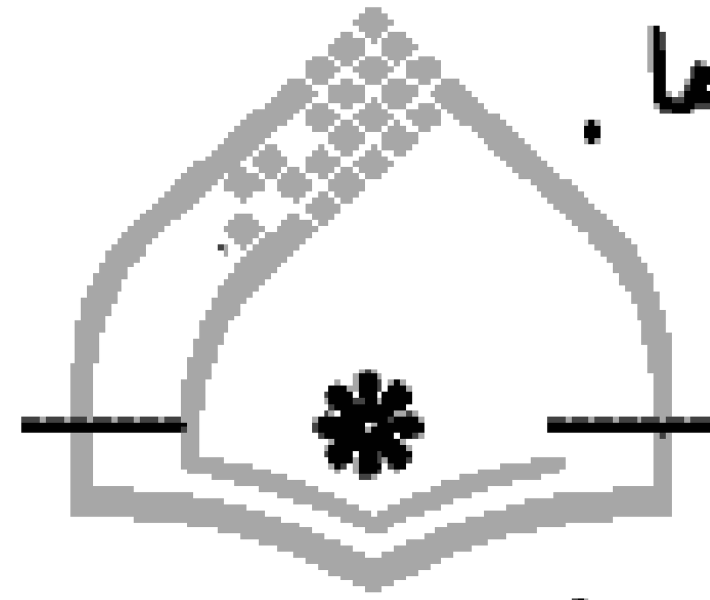
على أن هذه المقامة قد اختفت من الادب العربى بعد ناصف اليازجي اللبناني فى كتابه : « مجمع البحرين » ، ومحمد المويلحي المصرى فى كتابه ذى الشبه الكبير بالمقامة « حديث عيسى بن هشام » ، اذ لم يعد أحد بعدئذ يلتفت الى هذا اللون الادبى من أدباء عصرنا الحاضر .

هذا ، وقد كان من الطبيعي أن ينتقل فن المقامة من المشرق ــ منذ ظهوره ــ الى الاندلس ، وذلك عن طريق الرحلات التى قام بها كثير من الاندلسيين الى الشرق يطلبون العلم ، والذين عادوا الى موطنهم بعد أن درسوا ــ ضمن ما درسوا ــ هذا الفن ، فنشروه بين مواطنيهم ، وقد لوحظ أن مقامات بديع الزمان الهمذانى ورسائله ــ التى أشرنا اليها ــ قد ذاعت خصوصا فى عهد ملوك الطوائف بالاندلس ، فقد قام بعض الادباء الاندلسيين يومئذ بمعارضة هذه الرسائل والسير على نمطها ، ومن هؤلاء الاديب عبد الله محمد بن شرف القيروانى ، الذى عارض مقامات البديع، حسبما يروى ابن بسام عن هذا الاديب المعاصر للمعتضد بن عباد باشبيلية 434 ــ 461 هـ (1042 ــ 1068 م) . كذلك روى ابن بسام عن الشاعر أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم المتوفي حوالى سنة 420 هـ (1029 م) أن هذا الاخير عارض رسالة للهمذانى فى وصف غلام ، وفى موضع آخر من كتاب الذخيرة يورد ابن بسام أجزاء من مقامتين ، أحداهما لابى حفص عمر الشهيد ، والاخرى لابى محمد بن مالك القرطبى ، وهذان الاديبان عاشا فى عهد المعتصم بن صمادح بمدينة المرية الاندلسية 443 ــ 484 هـ (1051 ــ 1091 م) .

ونزيد تعريفا بصلة المغرب بالمشرق حول فن المقامة ، فنذكر أيضا أنه فى أوائل عهد المرابطين بالاندلس انتشرت مقامات الحريرى بالمغرب على مدى واسع ، فى الوقت الذى انتشرت فيه بالشرق ، واهتم علماء

الاندلس بحياة مؤلف هذه المقامات ، فقد روى ابن الابار « أن كثيرا من الاندلسيين سمعوا من الحريرى مقاماته الخمسين ببستانه ببغداد ، ثم عادوا الى بلادهم ، حيث حدثوا بها عنه » ، ومن هؤلاء الحسن بن على البطليوسى المتوفى عام 566 هـ (1169 م) وأبو الحجاج يوسف القضاعى البلنسى المتوفى عام 542 هـ (1147 م) .

وقد تابع الاندلسيون الاشتغال بفن المقامة حتى نهاية عهدهم الاندلسى ، أيام بنى الاحمر فى غرناطة ، ومن أشهر أدباء هذا العصر الذين زاولوا هذا الفن الادبى الوزير لسان الدين بن الخطيب ، بمقاماته العديدة التى أنشأها ، والتى منها : الكتاب الذى نتعرض لدراسته هنا ، وهو « معيار الاختيار » ، ومقامته « خطرة الطيف ، فى رحلة الشتاء والصيف » و « مقامة السياسة » وغيرها .



وعلى ضوء ما أوجزنا بيانه عن «المقامة» ومقوماتها ، ومدى صلتها بفن القصة العربية ، وعن دور الاندلسيين فيها بالنسبة للمشارقة، نستطيع أن نزن كتاب « معيار الاختيار » فى هذا الميدان ، فنقول : انه عبارة عن وصف قصصى ، جاء فى صورة مقامة تقليدية ، حاول بها ابن الخطيب ــ كما حاول فى غيرها ــ أن يجارى بها من سبقوه فى هذا الميدان ، وفى سبيل ذلك حشد لها المزيد من فنون القول والبيان ، وبخاصة مقدمة كل من المجلسين ، ونهايتهما ، حيث انصرف فيهما الى حد ما عن المعنى الى اللفظ مما أفقد المقدمة ــ خاصة ــ قيمتها الادبية ، من أديب مثل ابن الخطيب .

ولكن عندما تناول صلب الموضوع ، فانه ــ وان كان قد عنى بالاسلوب أيضا ــ الا أن الوصف للمدن عموما قد جاء تحفة فنية رائعة ،

فقد تناولها تاريخيا واجتماعيا وثقافيا ، وتمكن — رغم قيود السجع والجناس والكناية وغيرها — من ابراز هذه المعالم فى صورة مشوقة .

ومع ذلك ، نرى أن ابن الخطيب لو أطلق لنفسه العنان فى هذا المؤلف التاريخى ، وحرر نفسه من هذه القيود اللفظية التى كبل بها قلمه — لجاء وصفه للبلدان أبدع فنا ، وأشمل موضوعا ، فلا شك أنه حصر نفسه فى نطاق ضيق ، كانت نتيجته الحتمية أن فوت علينا المؤلف انطلاقاته المعروفة عنه ، فى تقصى المعانى ، والاحاطة بشتات الموضوع الذى يتعرض له .

قيمة الكتاب كوثيقة تاريخية

توجد لكتاب « معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار » أكثر من مخطوطة ، فى الاسكوريال والرباط ، وفاس ، وقد ورد هذا الكتاب ضمن مؤلف آخر من مؤلفات ابن الخطيب ، وهو « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » (554 الاسكوريال) ، كما ورد ضمن مؤلفه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » حيث أورده المؤلف فى باب « المقامات » .

وقد ألف ابن الخطيب « معيار الاختيار » هذا عندما نفى الى المغرب مع سلطانه الغنى بالله ابن الاحمر المعروف بمحمد الخامس ، حيث حلا ضيفين على السلطان أبى سالم ملك المغرب (محرم 761 هـ — 1359 م) ولكن ابن الخطيب لم يذكر فى الكتاب تاريخ تاليفه بالضبط ، وانما عرفنا الفترة التى ألفه خلالها من مؤلف آخر له ، حيث ذكر به أنه دون بعض كتبه خلال سنوات المنفى الثلاث التى قضاها بمدينة سلا بالمغرب (1) . (760 — 763 هـ) = (1358 — 1361 م) ، ومن بين تلك الكتب « معيار الاختيار » ، وقدأدرج الغزيرى هذا المؤلف تحت رقم 1777 بفهرس المخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا .

---

(1) ابن الخطيب فى « نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » ، مكتبة الاسكوريال بمدريد لوحة (67) .

ولما كنت قد قارنت ـ أثناء البحث والدراسة ـ بين نسخ مخطوطة هذا الكتاب ، والتى وجدتها فى كل من مدريد والرباط وفاس والقاهرة والفاتيكان ، فقد بان لى أن أكملها وأوفاها ـ كما ذكرت ـ مخطوطة الاسكوريال باسبانيا (رقم 554) ، وقد ذكر ناسخ هذه المخطوطة أنه كتبها عام 173 هـ (1468 م) ، أى بعد تدوين ابن الخطيب للكتاب نفسه بحوالى 112 عاما تقريبا ، وبعد وفاة المؤلف بنحو 97 عاما .

وقد نشر المستشرق الاسبانى « سيمونيت » القسم الاول من « معيار الاختيار » ، بعد أن فصل عنه المقدمة التى أشرنا الى مضمونها ، وهذا القسم هو الخاص بمدن مملكة غرناطة ، وعددها أربع وثمانون مدينة ، تحت عنوان « وصف مملكة غرناطة ، فى عهد بنى نصر » (1) . ثم نشر باقى الكتاب ـ وهو الجزء الخاص بمدن المغرب ـ المستشرق الألمانى « موللر » ، متضمنا وصفا لجبل الفتح ، وسبتة ، ومراكش ، وأغمات ، فى مجموعة خاصة (2) . ولم يفت هذا المستشرق أن ينوه ببعض الاخطاء التى وقع فيها زميله الاسبانى « سيمونيت » عند تحقيقه للجزء الخاص بمدن الأندلس ، وان كان هو بدوره قد وقع فى عدة أخطاء أثناء التحقيق ، وذلك نتيجة عدم التمرس بالاساليب العربية ، ولا سيما عبارة ابن الخطيب كطابع عام لما كانت عليه اللغة فى العصور الاسلامية الوسطى .

وتجدر الاشارة الى أن قيمة « المعيار » تمكن فى التعريف بالوضعية التى كانت عليها كل من مملكتى بنى نصر وبنى مرين فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، وأن ابن الخطيب قد حدثنا ـ بحق أيضا

---

(1) راجع :
Descripcion del Reino de Granada bajo la, Dominacion de las Nazaritas (Madrid, 1861).

(2) راجع :
Beitaage zur Geschichte des Westlichen, Araber (Munchen, 1866).

خصوصا ـ عن عاصمتي كل من الاندلس والمغرب في عصره (غرناطة وفاس) ، سالكا نفس الموضوعية تجاه كليهما ، دون أن يخفي لوما فيما لاحظه من مثالب بالنسبة لهاتين العاصمتين .

ونحن نعتقد من جانبنا أن المؤلف ـ عند تدوينه لهذا الكتاب ـ قد اعتمد على مصادر ثلاثة :

1 ـ زيارته للمدن التي تناولها قلمه :

فمن المعلوم أن ابن الخطيب كان قد وزر للسلطان يوسف الاول النصري 733 ـ 755 هـ (1333 ـ 1354 م) ثم لابنه من بعده الغني بالله محمد الخامس 755 ـ 760 هـ (1304 ـ 1359 م) ثم ـ للمرة الثانية ـ عام 762 ـ 793 هـ (1361 ـ 1392 م) ، وطبيعة المنصب تقتضي تفقد الوزير هناك للبلاد والثغور الاندلسية ، للوقوف على أحوالها ، وحركة دولاب العمل فيها ، ثم توجيه العمال وارشادهم ، ومن ثم تحرير التقارير عن زياراته . كما أنه رافق سلطانه أبا الحجاج يوسف الاول في زيارته التاريخية ، والتي بدأها من غرناطة في 17 محرم 748 هـ ـ 1347 م ، صحبة الحاشية ، وقد أفرد ابن الخطيب رسالة خاصة بهذه الرحلة ، سماها : « خطرة الطيف ، في رحلة الشتاء والصيف » جاء فيها أن الركب الملكي ـ بعد أن غادر العاصمة ـ وصل الى مدينة وادي آش ، وهناك استقبلهم الاهالي استقبالا رائعا ، ثم اتجهت القافلة شرقا مارة ببعض المدن والحصون الهامة ، مثل : بسطة ، وبرشانة ، وهنا صور ابن الخطيب الحالة التي كان يعانيها سكان هذه المدن ، نتيجة كل من الغارات النصرانية والسيول الموسمية ، ثم زار الركب مدينة « بيرة » ، أقصى الثغور على الحدود الشرقية ، وقد ذكر لنا ابن الخطيب ما كان يشعر به سكان هذا الثغر من القلق والخوف ، من جراء هجوم الاسبان المفاجيء بين حين وآخر ، كما صور لنا وعورة موقع المدينة ،

وصعوبة مسالكها ، حيث اضطروا للاسترشاد بدليل ماهر ، يكشف لهم طريقهم فى الجبال بين الروابى والوهاد .

وأخيرا يعود الموكب الى قاعدته « غرناطة » ، راجعا من طريق آخر ، مارا بثغر المرية ، حيث استعرض السلطان قطع الاسطول الحربى، واستقبل رجاله فى زيهم الرائع الانيق .

كما زار الموكب بعد المرية بعض المدن العامة ، مثل : بجانة ، وبرشلونة وفنيانة ، وينتهى المطاف بمدينة وادى آش مرة أخرى ، ومنها الى العاصمة « غرناطة » (1) .

وبذلك أتيحت فرصة رسمية هامة للوزير ابن الخطيب ، حيث وقف على أحوال هذه المدن الاندلسية خلال هذه الرحلة ، وكون لنفسه ودون فى مذكراته فكرة عميقة موضوعية عن كل مدينة زارها الركب السلطانى التاريخى .

أما بالنسبة للمدن المغربية فقد زار ابن الخطيب المغرب أكثر من مرة ، وفى كل مرة كان يتجول فى البلاد ويتعرف عليها ، ويختلط بأهلها ، ولاسيما رجال الادارة والعلماء والخاصة ، ولابد أنه شافه الكثير منهم برغبته فى الوقوف على معالم مدنهم وآثارهم واجتماعياتهم ، وكانت المعاينة لديه وسيلة هامة فى وزن الحقائق ، وكشف الظنون ، وجلاء الشكوك .

لقد زار ابن الخطيب المغرب لاول مرة سفيرا من لدن السلطان الغنى بالله ابن الأحمر ، الى سلطان المغرب عام 755 هـ ـ 1354 م .

---

(1) راجع التحقيق الحديث لهذه الرحلة فى كتاب « مشاهدات ابن الخطيب فى بلاد الاندلس والمغرب » للدكتور أحمد مختار العبادى ، طبعة جامعة الاسكندرية 1958 ، حيث تقع هذه الرحلة بين هذه المشاهدات ص : 25 — 35 .

ثم رجع الى المغرب مرة أخرى ، ولكن منفيا مع سلطانه المخلوع الغنى بالله ابن الاحمر ، وذلك فى محـرم 761 ـ 1359 م ، وفى هـذه المرة مكث بالمغرب ثلاث سنوات تقريبا ، كما أشرنا الى ذلك فى موضعه ، وفى تلك الاثناء زار بعض المدن المغربية ، ودون بعض رحلاته يومئذ فى كتابه المعروف باسم « نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب » ، الذى وضعه بالمغرب مع بعض الكتب الاخرى ، التى منها كتابنا « معيار الاختيار » .

وأخيرا استقر ابن الخطيب بالمغرب حينما فر من الاندلس ، حيث شعر بما يدسه له خصومه عند السلطان الغنى بالله ، على نحو ما هو معروف من تاريخ ماساة هذا الوزير ، فوصل المغرب عام 773 هـ ـ 1371 م ، وبقى به حتى نكب وقتل عام 776 هـ ـ 1375 م .

فهذه ثلاث زيارات قام بها المؤلف للمغرب ، سفيرا ، فمنفيا ، ففارا ناجيا بحياته أخيرا ، وتعتبر فترة النفى ــ من بين هذه الزيارات الثلاث ــ فترة البحث والدرس والتأليف عند ابن الخطيب ، فقد منح الرواتب وأقطع الاراضى ، واستقرت نفسيته الى حد سمح له بمواصلة تآليفه .

أما المرة الاولى فكان وقتها أضيق من أن يتسع للتجوال عبر المدن المغربية ، فهـو حينئذ سفير منوط به أمر رسمى ، وذو قيـود وحدود مـرسـومـة .

وأما فى المرة الاخيرة حيث استقر نهائيا بالمغرب ، فنرجح أن ابن الخطيب لم يتجه كثيرا للبحث والتدوين ، فقد كانت الهزات السياسية بالمغرب تتناوشه ذات اليمين وذات الشمال ، بفضل مواصلة خصومه ــ بغرناطة ــ السعى فى القضاء عليه ، وعلى رأسهم سلطانه القديم « الغنى بالله » والذى تاثر الى أبعد حد بسعاية هؤلاء الخصوم ، ومع هذا فقد ألف ابن الخطيب ابان هذه الفترة كتابه « أعمال الاعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام » ، استجابة للظروف الجديدة التى أملت عليه اصدار هذا المؤلف

2 ـ الاطـلاع والسمـاع :

وهو المصدر الثانى مـن المصادر التى اعتمد عليها ابـن الخطيب فى تدوين كتابه « معيار الاختيار » ونعنى به قراءته لكتب من سبقـوه من المؤرخين والكتاب فى أوصاف المدن الاندلسية والمغربية على الخصوص، وفى تاريخها الحافل بالاحداث ، وكذلك سماعه من شيوخه الذين تتلمذ عليهم ، فى أحوال المغرب منذ القدم، وأحداث المملكة الاسلامية بالأندلس، لا سيما وأنه تربى فى أحضانها ، ودرج بين ربوعها ، وجاس خلال ديارها ، فحديثه عنها حديث الخبير العالم ، ووصفه لها وصف المحيط بأسرارها . هذا بالاضافة الى مجالس ابن الخطيب العلمية ، وندواته الثقافية ، والتى كانت كثيرا ما تجمع رواة الاخبار ، وحفظة التاريخ .

3 ـ التقارير الادارية الرسمية :

وابن الخطيب كوزير ، وأمين سر السلطان ، لا بد وأن يطلع علـى كافة التقارير الرسمية ، والرسائل الادارية ، التى كانت ترد عادة الـى الديوان من عمال وحكام الاقاليم ، فهذه التقارير وتلك الرسائل وثائق تاريخية لها أهميتها البالغة ، اذ على أساسها ـ فى العادة ـ تدار سياسة الدولة ، وتوجه الامور الوجهة الصالحة ، لذلك نرى أن ابن الخطيب قـد استفاد الى حد كبير من هذه الوثائق ، بالاضافة الى المصدرين السابقين، وبذلك أمكنه أن يعطينا هذه الاوصاف لتلـك المدن فى مؤلفه « معيـار الاختيـــار » .

هذا ، وينبغى أن نشير اخيرا الى أن شخصية المؤلف وعلاقاتهـا بالآخرين لا بد وأن تنعكس على كتاباته ، وهذا ما وضح من خـلال أوصاف ابن الخطيب لبعض البلاد وأهلها ، فانه وان كان قد تعمق فـى البحث على نحو دقيق ، وحلل الاسباب والمسببات حتى جاء الموضوع

وثيقة تاريخية يعتمد عليها الى حد بعيد ــ وبخاصة اذا اعتبرنا قلة المراجع التاريخية التى تناولت العصر الذى عاشه ابن الخطيب ، وذلك فى أخبار كل من الاندلس والمغرب ــ الا أنه لا ينبغى أن نغفل الدوافع الشخصية ، والنزعات النفسية للمؤلف أيا كان ، فهذه وتلك لا بد وأن يحسب حسابهما ، ويقام وزنهما ، فى تقييم مثل هذه الوثيقة التاريخية ، لرجل وزير كابن الخطيب ، قضى حياته بين تيارات السياسة ، تتنازعه الاهواء والدوافع ، يعطف على مسلكة البعض ، وينقم على خطته البعض الآخر ، وبالتالى يكون اتجاهه متباينا نحو كليهما ، وما يصدق على الافراد يصدق على مجموعة منها تؤلف بلدا أو مدينة .

وللتدليل على هذا التأثر النفسى عند الكاتب ، وانعكاسه على ما يحرره ، نذكر أن ابن الخطيب نفسه قد صب جام غضبه على مدينة سلا المغربية ، فى رسالته المسماة « مفاخرات بين مالقة وسلا » ، رغم أنه أقام بها طيلة فترة النفى الاولى ، قرابة ثلاث سنوات ، واحتوته عزيزا مكرما ، ولكن كان قد حدث احتكاك بينه وبين بعض الفقهاء من أهل هذه المدينة ، الامر الذى ساقه الى تأليف رسالة خاصة ، فى النيل من هؤلاء الفقهاء ، وهى المسماة « مثلى الطريقة ، فى ذم الوثيقة » ، فى أسلوب يفيض اقذاعا ونيلا غير كريم من الخصوم ، وعليه ــ بالتالى ــ فلم يكن من المنتظر أن يرتفع ابن الخطيب بمدينة سلا فى المفاخرات مع مالقة .

فنخلص من هذا الى أن ابن الخطيب لم يسلم ــ الى حد ما ــ من تحامل فى وصفه لبعض المدن الاندلسية والمغربية فى كتابه « معيار الاختيار » ، وبخاصة عندما كان يتناول أحوال سكانها الاجتماعية . بيد أن هذا التحامل الضئيل المفترض لن يطغى بحال على ما للكتاب من قيمة تاريخية كبرى ، ولا يمنع الدارسين لتاريخ المغرب والاندلس ــ فى الفترة التى عاصرها ابن الخطيب ــ من الاستفادة من « معياره »

هذا الى حد بعيد . . ، اذا ما عن لهم الكشف عن الحالة الاجتماعية بهذين القطرين فى ذلك العصر ، وعن الاقتصاد ، والمحصولات الزراعية ، وأهمية الاسواق ، والصناعة الاندلسية ودورها ، وما الى ذلك مما تناوله المؤلف ، تجاه البلاد الاندلسية والمغربية ، فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى .





الفصل الرابع

كتاب

معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار

المجلس الأول



اللوحة الاولى من مخطوط « معيار الاختيار » بالاسكوريال (الغزيري 777-1)

اللوحة الاولى من « المجلس الثاني »

اللوحة الاخيرة من « المجلس الاول »

اللوحة الأخيرة من « المجلس الثاني » نهاية المخطوط

معيــار الاختيار ، فى ذكـر المعاهـد والديـار

المجلس الاول :

(97 : 1) بسم الله الرحمن الرحيم • صلى الله على سيدنا محمد •

الحمد لله الذى انفردت صفاته بالاشتمال علــى أشتات الكمال ، والاستقلال بأعباء الجلال ، المنزه عن احتلال الحلال ، المتصفة الخــلال بالاختلال ، المعتمد بالسؤال لصلة النوال ، جاعل الارض كسكانها متغايرة الاحوال ، باختلاف العروض والاطوال ، متصفة بالمحاسن والمقابح عند اعتبار الهيئات والاوضاع والصنائع والاعمال ، على التفصيل والاجمال . فمن قام خيره بشره دخل تحت خطة الاعتدال ، ومن قصر خيره عن شره ، كان أهلا للاستعاضة والاستبدال ، ومن أربى خيره على شره وجب اليــه شد الرحال ، والتمس بقصده صلاح الحال . وكثيرا ما اغتبــط الناس بأوطانهم فحصلوا فى الجبال على دعة البال ، وفازوا فى الرمال بالآمال ، (97 : ب) حكمة (منه) فى اعتمار ربع الشمال ، وتفيــىء أكنافه عــن اليمين والشمال ، الى أن يدعو أهل الأرض لموقف العرض والسؤال ، ويذهل — عن الاهل — عظيم الاهوال . والصلاة على سيدنا (ومولانا) (1) محمــد المصطفى الــذى أنقــذ بدعوتــه الوارفة الظلال من ظلمــات الضلال ، وجاء برفع الاغلال ، وتمييز الحرام من الحلال . والرضا عمن له من الصحب والآل ، (موارد الصدق عند كذب الآل) (2) •

1) زيادة فى « س ، ط »
2) زيادة فى « س » .

أما بعد، ساعدك السعد، ولان لك الجعد (3)، فان الانسان ــ وان أنصف بالاحسان ، وابانة اللسان ، لما كان بعضه لبعض فقيرا ، نبيها كان أو حقيرا . اذ مؤنه (4) التى تصلح بها حاله . لا يسعها انتحاله ــ لــزم اجتماعه وائتلافه على سياسة يؤمن معها اختلافه ، واتخاذ مدينة يقر بها قراره ، ويتوجه اليها ركونه وفراره ، اذا رابه أضراره ، ويختزن بهـا أقواته التى بها حياته ، ويحاول منها معاشه الذى به انتعاشه . فان كان اتخاذها جزافا واتفاقا ، واجتزاء ببعض المآرب وارتفاقا ، تجاول (5) شرها وخيرها ، وتعارض نفعهــا وضيرها ، وفضلهــا ــ (98 : أ) فى الغالب ــ غيرها ، وان كان عن اختيار ، وتحكيم معيار ، وتأسيس حكيم ، وتفويض للعقل وتحكيم ، تنافر الى حكمها النفر ، وأعمل السفر ، وكانت مساوئها ــ بالنسبة الى محاسنها ــ تغتفر ، اذ وجود الكمال فاضــح للآمال ، ولله در القائل :



ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المــرء فخرا أن تعد معايبــه

وبحسـب ذلـك :

حدث من يعنى بالاخبار ينقلها ، والحكم يصقلها ، والاسمار ينتقيها، والآثار يخلدها ويبقيها ، والمجالس يأخذ صدورها والآفاق يشيم (6) شموسهــا وبدورها ، والحلل يعرف دورهــا ، ويأكل قدورها ، والطرف يهديها ، والخفيات يبديها . وقد جرى ذكر تفضيل البلدان ، وذكر القاصى والدان ، ومزايا الاماكن ، وخصائص المنازل والمساكن ، والمقابــح والمحاسن ، والطيب والآسن (7) .

---

3) الجعد : فى الاصل هو الشعر غير المنسق ، والسياق ينصرف الى اللئيم البخيل.
4) فى نسخة (س) « مؤنتة » بدل « مؤنه » .
5) تجاول : يقال ، تجاول القوم فى الحرب ، اى جال بعضهم على بعض .
6) يشيم : يعلم ، يقصد انه ذو دراية بمطالع الشمس والقمر فى هذه البلاد
7) الآسن : من الماء المتغير الطعم واللون والرائحة .

قال : ضمنى الليل وقد سدل المسح راهبه ، وانتهب قرص الشمس من يد الامس ناهبـه ، ودلفت جيوشه الحبشية (98 : ب) وكتائبـه ، وفتحت الازهار بشط المجرة كواكبه ، وجنحت الطيور الى وكونهـا ، وانتشرت الطوافات بعد سكونها ، وعوت الذئاب فوق هضابها ، ولوحت البروق ببيض عضابها ، وباهت الكف الخضيب بخضابها ، وتسللت اللصوص لانتهاز فرصها ، وخرجت الليوث الى قسمها وحصصها ، فى منـاخ رحب المنطلق ، وثيق الغلق ، سامى السور ، كفيل بحفظ الميسور ، يأمن ــ بـه الذعر ــ خائفه ، وتدفع ــ معرة السماء ــ سقائفه ، يشتمل على مأوى الطريد ، ومحراب المريد ، ومرابط خيل البريد (8) ، ومكاسع الشيطـان المريد . ذى قيم كثير البشاشة ، لطيف الحشاشة ، قانع بالمشاشة . يروح ويشى ، ويقف على ريب الاعيان وأعيان الريب فلا يشى . بسر فأكثر ، ومهد ووثر ، وأدفأ ودثر ، **(ورقى بسور استنزاله فاثر)** (9) .

فلما أزحت الكلفة ، وأقضمت جوادى العلفة ، وأعجبتنى ــ من رفقاء الرفق ــ الالفة ، رمقت فى بعض السقائف آمنا فى زى خائف ، وشيخا طاف منه بالارض طائف ، وسكن حتى اليمامة والطائف . جنيب (99 : أ) عكاز ، ومثير شيب أثيث الوفرة ، وقسى ضلوع توتر بالزفرة ، حكم له بياض الشيب بالهيبة ، وقد دار بذراعه للسبحة الرقطاء حنش ، كما اختلط روم وحبش . والى يمينه دلو فاهق (10) ، وعن يساره تلميذ مراهـق ، وأمامه حمار ناهق ، وهو يقول :

هـم أسكنونا فى ظلال بيوتهـم ... ظـلال بيـوت أدفـأت وأكنـت
أبـوا أن يملونا ، ولو أن أمنـا ... تلاقى الذى يلقون منـا لملـت

---

8) مكاسع : مطارد ، مكان الطرد .

9) زيادة فى نسخة « س » .

10) فاهق : ممتلىء .

حتى اذا اطمأن حلوله ، وأصحب ذلوله (11) ، وتردد الى قيم الخان — زغلوله (12) ، واستكبر لما جاءه — بما يهواه — رسوله ، استجمع قوته واحتشد ، ورفع عقيرته وأنشد :

أشكو الى الله ذهاب الشباب ... كم حسرة أورثني واكتئاب
سد عن اللذات باب الصبا ... فزارت الاشجان من كل باب
وغربة طالت فما تنتهي ... موصولة اليوم بيوم الحساب
وشر نفس كلما هملجت (13) ... في الغي لم تقبل خطام المتاب
يا رب شفع في شيبي ولا ... تحرمني الزلفى وحسن المآب

ثم أن ، والليل قد جن ، فلم يبق — في القوم — الا من أشفق وحن ، وقال — وقد هزته أريحية — (99 : ب) : على الدنيا سلام وتحية ، فقد نلنا الاوطار ، وركبنا الاخطار ، وأبعدنا المطار ، واخترقنا الاقطار (14) ، وحلبنا الاشطار (15) . فقال فتاه — وقد افترت عن الدر شفتاه ، مستثيرا لشجونه ، ومطلعا لنجوم همه من دجونه ، ومدلا عليه بمجونه — : وماذا بلغ الشيخ من أمدها ، ورفع من عمدها ، حتى يقضي منه عجب ، أو يجلى منه محتجب ؟ فاخذته حمية الحفاظ لهذه الالفاظ ، وقال : أي بني ، مثلي من الاقطاب ، يخاطب بهذا الخطاب ! ! وأيم الله لقد عقدت الحلق (ولبست من الدهر الجديد والخلق) (16) ، وفككت الغلق ، وأبعدت في الصبوة الطلق ، وخضت المنون ، وصدت الضب والنون ، وحذقت الفنون ،

(11) ذلوله : دابته السهلة القياد .
(12) زغلوله : غلامه الخفيف السريع .
(13) هملجت : الهملجة ، المشي في سرعة .
(14) في نسخة « س » وافترقنا ، ولعلها في نسختنا أصوب .
(15) حلبنا الاشطار : يقصد جربنا خير الدهر وشره ، فمررناهما .
(16) زيادة في « ط ، س » .

وقهرت ــ بعد سليمان ــ الجنون ، وقضيت الديون ، ومرضت لمرض العيون . وركبت الهمالج (17) ، وتوسدت الوذائل (18) والدمالــج ، وركضت الفاره ، واقتحمت المهالك والمكاره ، وجبت البلاد ، وحضرت الجلاد ، وأقمت الفصح والميلاد . فعدت من بلاد الهند والصين ، بالعقل الرصين ، وحذقت بدار قسطنطين (19) كتــاب اللطين (20) ، ودســت مدارس أصحاب الرواق (21) ، ورأيت غار الارواح وشجر الوقواق ،

---

17) الهمالج : الابل تمشى فى سرعة .

18) الوذائل : ج وذيلة ، وهى الرشيقة من النساء .

19) قسطنطين : ملك من ملوك الروم ، سميت حاضرة ملكه باسمه (القسطنطينية) وهى مدينة قديمة كانت مسورة بأسوار حصينة تبلغ المائة ، أحدها (بــاب الذهب) ، انظر ياقوت الحموى فى معجم البلدان ج 15 ص 347 .

20) كتاب اللطين : يعنى به « اللاتينية » .

21) أصحاب الرواق : يقصد الرواقيين ، وهم فرقة من الفلاسفة القدماء ، ينسبون الى الرواق ، الذى كان يعلم زينون ــ Zenon الرواقيين Stoiciens تحته ، وقد نشأت هذه الفرقة فى القرن الرابع قبل الميلاد ببلاد الاغريق ، تنقسم عندهم الفلسفة الى المنطق والطبيعة وعلم الاخلاق ، ولا يفصلون العناية الالهية عن القضاء ، كما أنهم لا يميزون بين المادى والروحى ، وان الكون يسوده النظام، ويسوسه المنطق ، وان على الانسان أن ينظم نفسه ، فيحتل مكانه فيــه . وبهذا تحققت عندهم فكرة الوحدة الكونية ، فى وقت لم يكن العلم الطبيعى عند الاغريق كثيرا ، ولكن كان حدسهم شديدا ، ونظراتهم الثاقبة كثيرا ما كانــت تصيب .

أما عن زينون الرواقى فهو مؤلف هذا المذهب (نحو 340 ــ 265 ق م) فقد ولد فى بلدة كتيوم Cition بجزيرة قبرص ، وجاء بعد الى أثينا ، وهو من أصل فينيقى ، وأكثر من وسعوا المذهب كانوا أسيويين اكثر منهم أغارقة ، ويعــد المذهب آخر مجهود فلسفى فى اليونان الوثنية .

هذا ، وممن آمن بوحدة الكون فى العصور الوسطى كتاب الاديان الثلاثة ، فمن المسلمين ابن رشد (1126 ــ 1198 م) ، ومن المسيحيين كثيرون ، ومــن اليهود القباليون Kabbalists ، ثم جاء عصر النهضة بأوربا فأحيا مبــدأ الوحدة الكونية بين أهلها ، وانبرى عدة فلاسفة ينادون بها ، متأثرين بالفلسفة الافلاطونية ، وبما رسمه المذهب من آداب ، ومنهم شكسبير ، وشلر ، وكنط. راجع : د. احمد زكى (مجلة العربى) عدد 134 يناير 1970 م .

وشريت حلل اليمن (100 : أ) ببخس الثمن (22) ، وحللت من عـدن (23) حلول الروح من البدن ، ونظرت الى قرن الغزالة لما شدن (24) ، وأزمعت عـن العراقين (25) ، سرى القين ، وشربت من ماء الرافديـن باليدين ، وصليت بمحراب الدمنى ركعتين ، وتركت الأثر للعين ، ووقفت حيث وقف الحكمان (26) ، وتقابل التركمان (27) وأخذت بالقدس ، عن الحبر الندس ، وركبت الولايا ، الى بلاد العلايا (28) ، بعد أن طفت بالبيت الشريف ، وحصلت بطيبة على الخصب والريف ، فى فصل الخريف ، وقرأت بأخميم (29) علم التصريف ، وأسرعت فى الانحطاط الى الفسطاط (30) ،

---

22) فى نسخة س « بأبخس ثمن » وكلاهما بمعنى .

23) عدن : عاصمة جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية ، تقع على ساحل البحر الاحمر جنوب غربى الجزيرة العربية ، لها شهرة تجارية واسعة بفضل موقعها . انظر : معجم البلدان ، للحموى ، ج 13 ص 89 .

24) فى نسخة (س) « اذا » بدل « لما » ، ولعلها فى نسختنا اصوب .

25) العراقين : البصرة والكوفة بالعراق ، مدينتان لهما أصالتهما العلمية ولاسيما فى عصر الامويين والعباسيين .

26) الحكمان : هما أبو موسى الاشعرى ، وعمرو بن العاص ، لما احتكم اليهما على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، عقب وقعة صفين (37 هـ = 657 م) فى أمر الخلافة ، وانتهت بتولى معاوية .
انظر « وقعة صفين فى :
ا) المسعودى فى « مروج الذهب » ج 2 ص 20 — 22 .
ب) الطبرى — فى « تاريخ الامم والملوك » ج 6 ص 33 — 43 .

27) التركمان : قبيلة اخضعها التتار ، تعرف منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، وتعيش الآن فى تركستان الغربى ، وايران ، وما وراء القفقاس .

28) العلايا : مدينة ساحلية بآسيا الصغرى ، أسسها علاء الدين كيقوباذ عـام 1220 م .

29) اخميم : مدينة اثرية على شاطىء النيل الشرقى بمصر ، محافظتها « سوهاج » انظر : معجم البلدان ج 1 ص 123 .

30) الفسطاط — مدينة انشأها الفاتح لمصر عمرو بن العاص عام (20 هـ = 640 م) مكانها « مصر القديمة » حاليا احدى ضواحي القاهرة .

والمصر الرحب الاختطاط ، وسكنت مدينة الاسكندرية (31) ثغر الرباط ، وعجلت بالمرور الى التكرور (32) ، فبعث الظل بالحرور ووقفت بأشبانية الى الهيكل المزور ، وحصلت بافريقية على الرفد غير المنزور ، وانحدرت الى المغرب ، انحدار الشمس الى المغرب ، وصممت تصميم الحسام الماضى المضرب ، ورابطت بالاندلس ثغر الاسلام ، وأعلمت بها تحت ظل (33) الاعــــلام .

فآها ـــ والله ـــ على عمر مضى ، وخلف مضضا (100 : ب) وزمن انقضى ، وشمل قضى الله من تفرقه ما قضى ، ثم أجهش ببكائه ، وأعلن باشتكائه ، وأنشـــد :

لبسنا فلــم نبل الزمان وأبلانــا ... يتابع أخرانا ـــ على الغى ـــ أولانا

ونغتر بالآمال ، والعمر ينقضـــى ... فما كان ــبالرجعى الى الله ــ أولانا

وماذا عسى أن ينظر الدهر ما عسى ... فما انقاد للزجر الحثيث ولا لانـــا

جزينـــا صنيع الله شر جزائــــه ... فلم نرع ما ـــ من سابق الفضل ـــ أولانا

فيـــا رب عاملنـــا بما أنت أهلـــه ... من العفو ، واجبر صدعنا ، أنت مولانا

ثــم قـــال :

لقـــد مات اخوانـــى الصالحـــون ... فمالـــى صديق ولا لـــى عمـــاد

اذا أقبـــل الصبح ولى الســـرور ... وان أقبـــل الليل ولـــى الرقـــاد

---

31) الاسكندرية : العاصمة التجارية لجمهورية مصر العربية ، وتقع على ساحل البحر المتوسط ، بناها الاسكندر المقدونـــى .
انظر ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 2 ص 182 .

32) تكرور : شـعب من الزنج يسكن الجزء الاكبر من وهاد « فوتة » السنغاليـــة ، ويعرف باسم Foucouleur وفى نسخة (س) « تكرور » بدل « التكرور ».

33) فى نسخة أخرى « ظلال » بدل « ظل » ، وكلاهما بمعنى .

فتملكتنى له رقة ، وهزة للتماسك مسترقة ، فهجمت على مضجعه هجوما أنكره ، وراع شاءه وعكره (34) ، وغطى بفضل ردنه سكره ، فقلت له : على رسلك أيها الشيخ ، ناب (35) حنت الى حوار (36) ، وغريب أنس بجوار ، وحائر اهتدى بمنار ، ومقرور قصد الى ضوء نار ، وطارق لا يفضح عيبا ،(ولا يثلم غيبا)ولا يهمل (37) شيبا ، ولا يمنع (101 : أ) سيبا ، ومنتاب يكسو الحلة ، ويحسن الخلة ، ويفرغ الغلة ، ويملأ القلة .

أجارتنا : انا غريبان ها هنا وكل غريب ــ للغريب ــ نسيب

فلما وقم الهواجس وكبتها ، وتامل المخيلة واستثبتها ، تبسم لما توسم ، وسمح بعد ما جمح ، فهاج عقيما فتر ، ووصل ما بتر ، وأظهر ما خبأ تحت ثوبه وستر ، وماج منه البحر الزاخر ، وأتى بما لا تستطيعه الاوائل ولا الاواخر . وقال ــ وقد ركض الفنون وأجالها ، وعدد الحكم ورجالها ، وفجر للاحاديث أنهارها ، وذكر البلدان وأخبارها ــ :

ولقد سئمت مآربي فكأن أطيبها (38) خبيث

الا الحديث فانه مثل اسمه ــ ابدا ــ حديث

فلما ذهب الخجل والوجل ، وطال المروى والمرتجل ، وتوسط الواقع ، وتشوفت للنجوم المواقع ، وتوردت الخدود الفواقع ، قلت : أيها الحبر ، واللج الذى لا يناله السبر ، لا حجبك ــ قبل عمر النهاية ــ القبر ، ــ وأعقب كسر أعداد عمرك ــ المقابلة بالقبول والجبر ، كأنا بالليل قد أظهر ــ لوشك الرحيل ــ (101 : ب) الهلع ، والغرب الجشع لنجومه

---

(34) عكره : ابلــه .
(35) ناب : الناب هى الناقة المسنة .
(36) حوار : بفتح الحاء وضمها ، ولد الناقة .
(37) يقصد : أنه لا يعيب أحدا فى غيبته ، وقد وردت هذه الجملة فى نسخة (س) .
(38) فى نسخة (س) « نكان » بدل « فكأن » وهو ما لا يستقيم وزنا .

قد ابتلع ، ومفرق الاحباب ـ وهو الصبح ـ قد طلع ، فأولني عارفة من معارفك أقتنيها، وأهززلي أفنان حكمك أجتنيها، فقال : أمل ميسر ، ومجمل يحتاج أن يفسر ، فأوضح الملغز ، وابن لي الطلا (39) من البرغز (40) . وسل عما بدا لك ، فهو أجدى لك ، فاقسم لا تسألني عن غامض ، وحلو وحامض ، الا أوسعته علما وبيانا ، وأريتك الحق عيانا .

قلت : صف لي البلاد وصفا لا يظلم مثقالا ، ولا يعمل ـ في غير الصدق ـ وخدا ولا ارقالا (41) ، واذا قلتم فاعدلوا (42) ؛ ومن أصدق من الله مقالا (43) فقال : سل ، ولا تسل ، ولو راعك الاسل . قلت : انفض لي البلاد الاندلسية من أطرافها ، وميز ـ بميزان الحق ـ بين اعتدالها وانحرافها ، ثم اتلها بالبلاد المرينية (44) نسقا ، واجل ـ بنور بيانك ـ غسقا :



---

39) الطلا : ولد الظبي ساعة ولادته ، والجمع « أطلاء » .

40) البرغز : ولد البقرة ، ويقصد بالعبارة : أوضح غرضك وفصله .

41) الوخد والارقال : نوعان من السير السريع للابل .

42) اقتباسا من قوله تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » سورة الانعام ، آية : 152 .

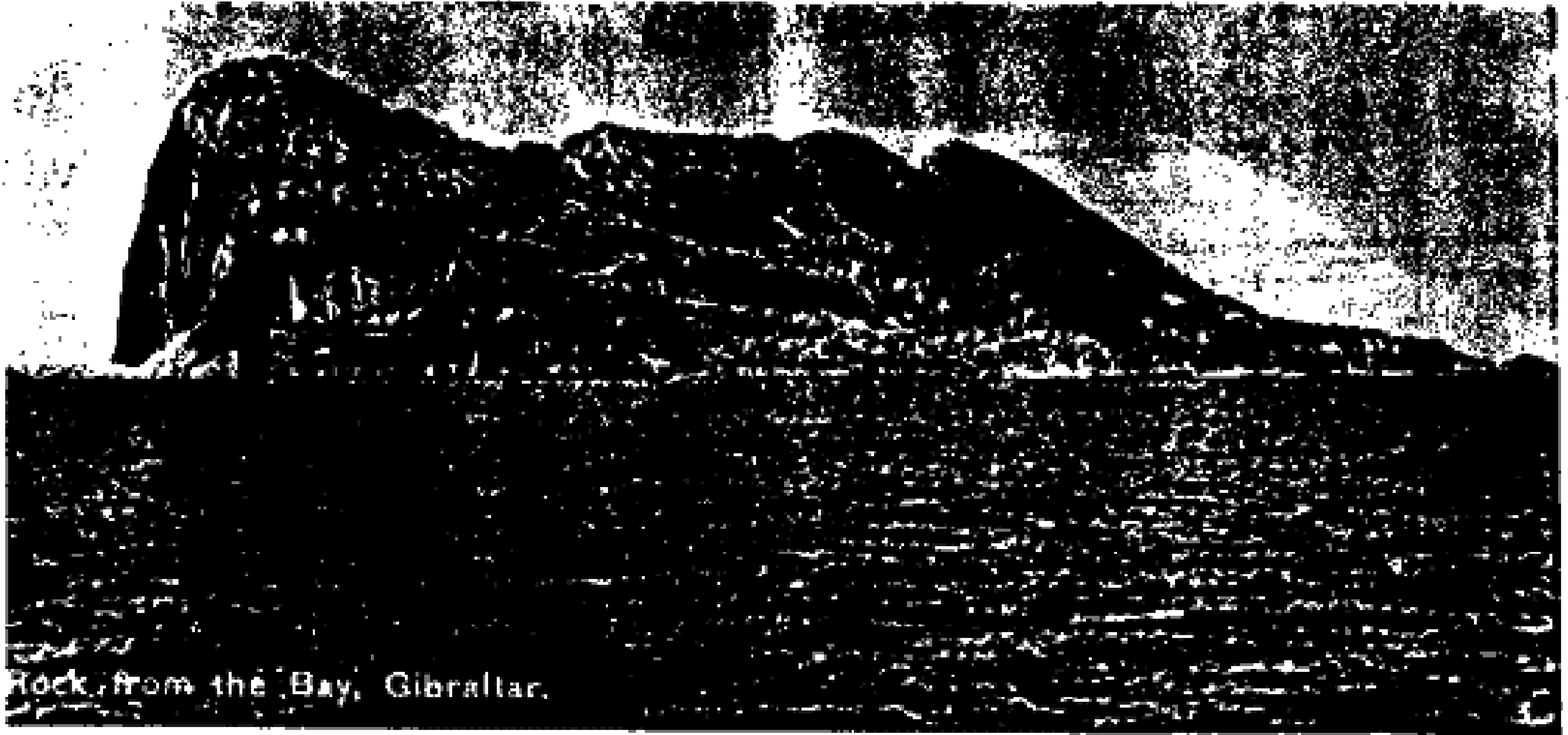
43) اقتباسا من قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات جنات تجري من تحتها الانهار ، خالدين فيها أبدا ، وعد الله حقا ، ومن أصدق من الله قيلا » سورة النساء ، آية : 122 .

44) البلاد المرينية : البلاد المغربية ، نسبة الى بني مرين الذين حكموا هذه البلاد في الفترة من 668 ـ 869 هـ (1269 ـ 1265 م) وكانت عاصمتهم فاس .

مملكة غرناطة
في عهد
السلطان يوسف الأول

خريطة مملكة غرناطة ، يقابلها الجزء الشمالي من مملكة بني مرين المغربية، وذلك في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي

جبـــــل طـــــارق



« منظر جبل طارق من البحر »



« منظر راس الصخرة »

وهات ما تقول فى « جبل الفتح » (46) :

1 — « جبــل الفتــح »

قال : فاتحة الكتاب من مصحف ذلك الاقليم ، ولطيفة السميع العليم، وقصص المهارق (47) ، وأفق البارق ، ومتحف هذا الوطن المباين للارض المفـارق ، مأهـل العقيــق (48) وبـارق (49) ، ومحـط طارقهـا ، (102 : أ) بالفتح طارق . ارم البلاد (150) التى لم يخلق مثله فيها ، وذو المناقب التى لا تحصرها الألسنة ولا توفيهـا .

حجزه البحر ، حتى لم يبق الا خضر ، فلا يناله — من غير تلك الفرصة — ضيق ولا حصر ، وأطل بأعلاه قصر ، وأظله فتح — من الله — ونصر . ساوق (51) سوره البحر فأعياه ، قد تهلل بالكلس محياه، واستقبل الثغر الغريب فحياه . اطرد صنع الله فيه ، من عدو يكفيه ، ولطف يخفيه ، وداء عضال يشفيــه . فهو خلوة العباد ، ومقام العاكف والباد ، ومسلحة من وراءه من العباد ، وشقة القلوب المسلمة والاكباد . هواؤه صحيح ، وثراه — بالخزين — شحيح ، وتجر الرباط فيه ربيح ، وحماه — للمال

---

46) جبل الفتح : هو جبل طارق « Gibraltar » نسبة الى فاتح اسبانيا (طارق بن زياد) ، وكان يسمى قبل الفتح « Calpe » بمعنى « تجويف » يتبع بريطانيا حاليا ، وتنازعها أسبانيا فى الاحقية ، وهذا خلاف قديم .
راجـع : José Carlos de luna-Historia de Gibra ltar

47) المهارق : جمع مهرق ، وهى الصحيفة .

48) العقيق : العقيق تقوله العرب لكل مسيل ماء شقه السيل فى الارض فأنهـره ووسعه ، وفى بلاد العرب اربعة أعقـة .
راجع : ياقوت الحموى — معجم البلدان — ج 14 ص 138 ، ص 139 .

49) بارق ، ركن من اركان اليمامة ، وهو جبل ، كما يطلق أيضا على ماء بالعراق ، وهو الفاصل بين القادسية والبصرة من أعمال الكوفة ، وقد عناه المتنبى بقوله:
تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجـر السوابـق
راجع : ياقوت الحموى — معجم البلدان — ج 2 ص 319 — 320 .

50) ارم : الارم ، ما يهتدى به من حجارة تنصب فى المفازة ، وجمعه آرام وأروم ، والمعنى : علم البلاد .

51) ساوق : فاخـر .

والحريم — غير مبيح ، ووصفه الحسن لا يشان بتقبيح. الا انه — والله يقيه مما يتقيه — بعيد الاقطار، ممار بالقطار (52)، كثير الرياح والامطار. مكتنف بالرمل المخلف ، والجوار المتلف . قليل المرافق ، معدوم المشاكل والمرافق . هزل الكراع (لعدم الازدراع ، حاسر الذراع ، للقراع) (54)، مرتزق من ظل الشراع . كورة دبر ، (55) ومعتكف أزل وصبر ، وساكنه حي في قبـــر (102 : ب) .

هو الباب ان كان التزاور واللقيـــا وغوث وغيث للصريخ وللسقيـــا

فـــان تطرق الايام فيه بحـــادث وأعزز بهـــقلنا : السلام على الدنيا

2 — « أسطبـونـــــة » (56)

قلت : فاسطبونـــة ؟

قال : ذهب رسمها ، وبقي اسمها ، وكانت مظنة النعم الغزيرة ، قبل حادث الجزيرة (57) .

---

52) القطار : السحاب الغزير القطر .
53) المرافق : اراد بالمرافق الاولى المنافع ، وبالثانية الآبار .
54) لعدم الازدراع : لعدم المرعى ، وما بين القوسين زيادة وجدناها في نسختي (س ، ر) .
55) كورة دبر : منزل النحل والزنانير ، وقد وردت في نسختي (ر ، د) « جبر » .
56) اسطبونة : بلدة تقع غرب مالقة ، على شاطىء البحر المتوسط ، وتعـــرف في الاسبانية باسم « Estepona »
57) يقصد بحادث الجزيرة موقعه طريف ، وهي بالاسبانية « Batalla del Salado » حدثت بين النصارى من جهة وبين المغاربة والاندلسيين من جهة اخرى، وتمخضت عن هزيمة المسلمين ، وسقوط كل من طريف والجزيرة الخضراء (30/10/ 1340 م = جمادى الاولى 741 هـ) .
راجع : ابن خلدون في « العبر » ج 7 ص 261 ، 262 ، والمقري في « نفـــح الطيب » ج ص 317 ، 318 ، وابن الخطيب في اللمحة البدرية ص 92 ، 93 ، والسلاوي في « الاستقصاء » ج 2 ص 65 ، 66 ، ودكتور لويس سيكـــودي لوثينا » في مجلة الاندلس — ملحق 1949 م .

مربلة (غرناطة)



صورة من الجو للمدينة الساحلية

3 ـ « مـربلــة » (58)

قلت : فمربلــــة ؟

قال : بلد التأذين على السردين ، ومحل الدعاء والتأمين ، لمطعم الحوت السمين ، وحدقاتهـا مغرس العنب العديـم القرين ، الى قبـة أرين (59) . الا أن مرساها غير أمين ، وعقارها غير ثمين ، ومعقلها تركبه الارض عن شمال ويمين (60) .

4 ـ « سـهـيــل » (61)

قلــت : فسهيــل ؟

قال : حصن حصين ، يضيق عن مثله هند وصين ، ويقضي ـ بفضله ـ كل ذي عقل رصين ، سبب عزه متين ، ومادة قوته شعير وتين . قد علم أهله مشربهم ، وأمنوا مهربهم . وأسهلت بين يديه قراه ، وجاد بالسمك واديه وبالحب ثراه ، وعرف شأنه بأرض النوب (62) ، ومنه يظهر سهيل من كواكب الجنوب . الا أن سواحله فل (63) الغارة البحرية ، ومهبط

---

58) مربلة : مدينة متوسطة ، تقع غرب مالقة ، على مسافة 60 كم منها ، تعرف في الاسبانية باسم « Marbella » .

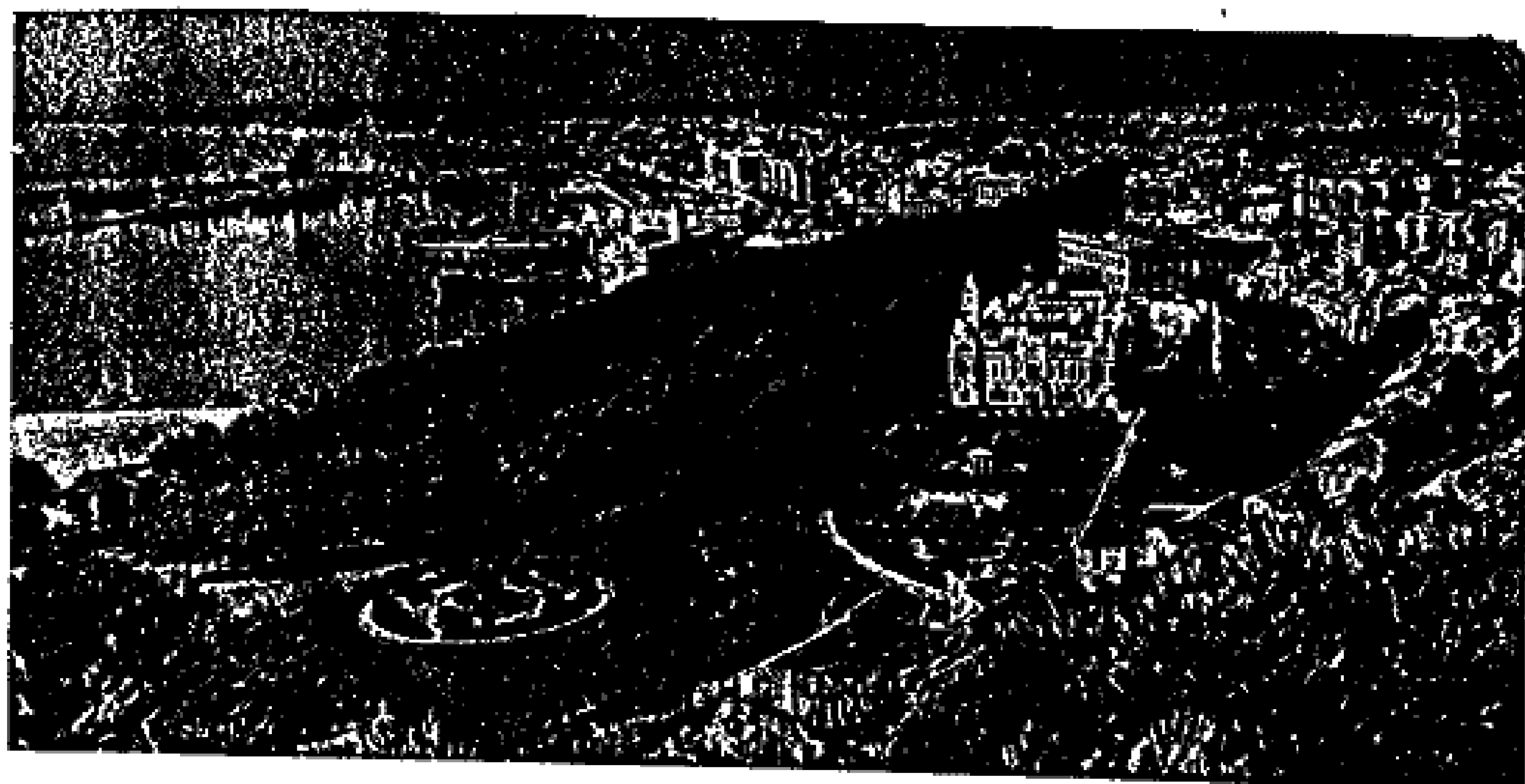
59) في نسخة (ر ، س ، ط) « قلت ان مرساها غير امين » ، وقد اوردها كذلـك المستشرق « سيمونيت » ، ولكن الصواب في نسختنا .

60) في نسخة (س ، ر) « من شمال ويمين » بدل « من شمال ويمين » .

61) سهيل : ميناء على ساحل البحر المتوسط ، يعرف اليوم في الاسبانيـة باسم Fuenjerola على مسافة 28 كم شرقي مربلة .

62) ربما يقصد « بلاد النوبة » اقصى الجنوب بجمهوريـة مصـر العربية ، وشمال السودان ، والتعبير كناية عن بعد صيت المدينة .

63) في نسخة (ر ، س) « بل » بدل « فل » .



منظر عام للمدينة ومبانيها



منظــر داخلى القصبــة

السرية غير السرية ، الخليقة بالحذر الحرية ، مسرح السائمة الاميرية ، وخدامها (103 : أ) ـ كما علمت ـ أولئك هم شر البرية (64) .

5 ـ مالقـــة (65)

قلت : فمدينة مالقـــة ؟

قال : وما القول (66) فى الدرة الوسيطة ، وفردوس هذه البسيطة ؟ أشهد لو كانت سورة لقرنت بها حذقة الاطعام (67) ، أو يوما لكانت عيدا فى العام (68) ، تبعث لهـا بالسلام مدينـــة السلام (69) ، وتلقى لها يـد الاستسلام محاسن بلاد الاسلام . أى دار ، وقطب مدار ، وهالة ابدار ، وكنز تحت جدار . قصبتها مضاعفة الاسوار ، مصاحبة للسنين مخالفة للادوار (70) ، قد برزت فى أكمل الاوضاع وأجمل الاطوار . كرسى ملك عتيق ، ومدرج مسك فتيق ، وايوان أكاسرة ، ومرقب عقاب كاسرة ، ومجلى فاتنة حاسرة ، وصفقة غير خاسرة . فحماها منيـــع حريز ،

---

64) اقتباسا من قوله تعالى : « ان الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها ، أولئك هم شر البرية » سورة البينة ، آية : 6 .

65) مالقة : Malaga مدينة على ساحل البحر الابيض المتوسط ، جنوب شرق الاندلس ، يرجع تأسيسها الى الفنيقيين عام 1200 ق. م ، حيث كانت تعرف باسم« Malaca »بمعنى : المملح ، نسبة الى الاسماك المملحة التى اشتهرت بها ، وتتوفر المدينة ايضا على أجود أنواع الفواكه ، ولها شهرة فى صناعـــة الفخار Ceramica ، كانت عاصمة الحموديين الادارسة أيام ملوك الطوائف ، كما كان بنو الاحمر يعتبرونها العاصمة الثانية بعد غرناطـــــة .
راجع : المقرى فى « نفح الطيب » ج 1 ص 186 ، وياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 17 ص 367 .

66) فى نسخة (ر ، س) « وما اقول » بدل « وما القول » وكلاهما بمعنى .

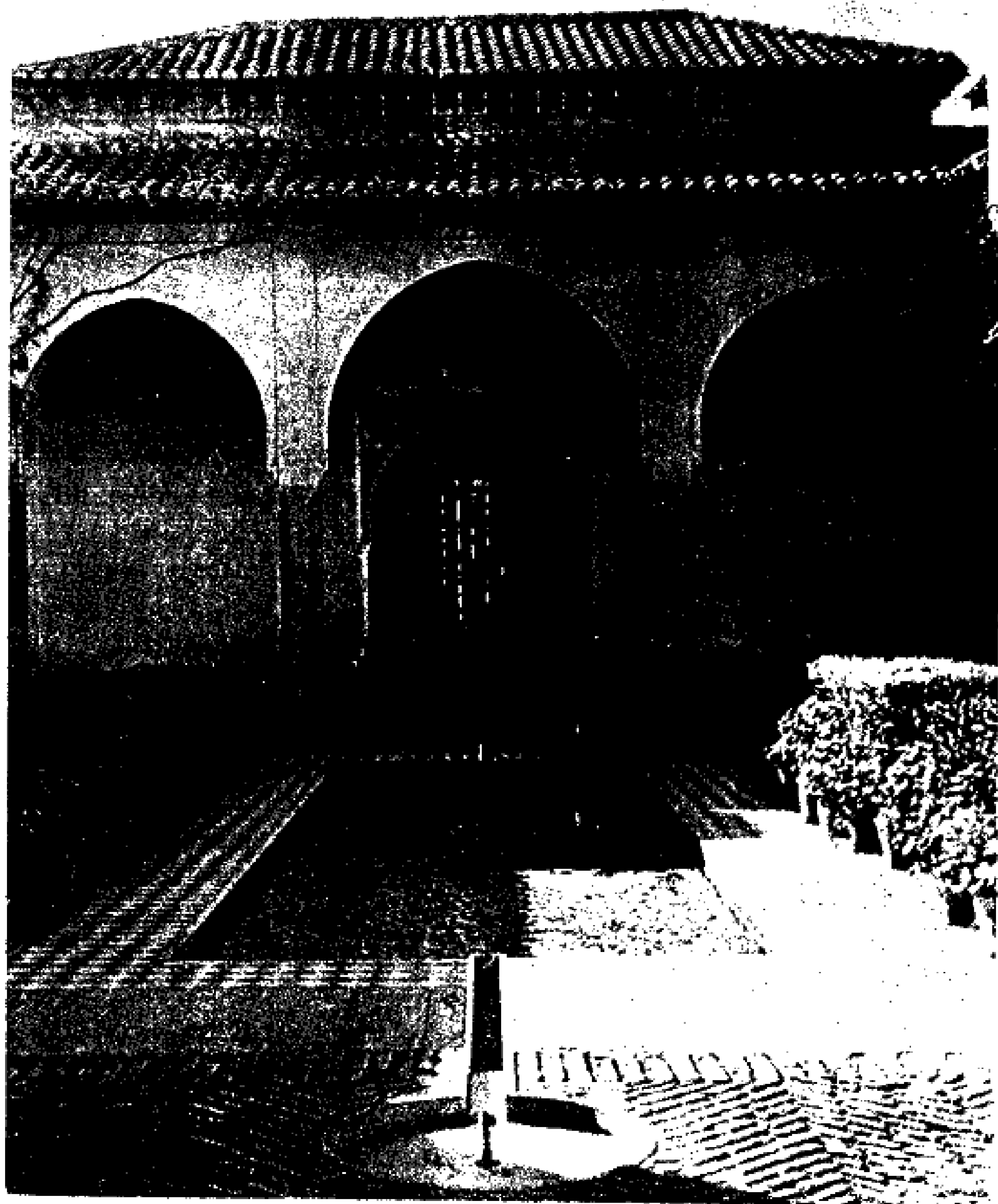
67) حذقة الطعام : الحفل الخاص بانتهاء الصبى من حفظ القرآن .

68) فى نسخة (ط ، س) « فى الايام » بدل « فى الطعام » فالتعبير فى نسختنا اعم .

69) مدينة السلام : بغداد .

70) فى نسخة (س ، ر) « مصاحبة السنين ، مخالفة الادوار » ، فلعلها فى نسختنا أولـــــى .

مالقة ـ القصبة



احد الافنية فى القصبة

اضطبنت دار الاسطول ، وساوقت البحر بالطول ، وأسندت الى جبل الرحمة ظهرها ، واستقبلت ملعبها ونهرها ، ونشقت وردها الارج (103 : ب) وزهرها ، وعرفت قدرها ، غاغلت مهرها . وفتحت جفنها على الجفن غير الغضيض (72) ، والعالم الثانى ما بين الاوج الى الحضيض .

دار العجائب المصنوعة ، والفواكه غير المقطوعة ولا الممنوعة ، حيث الاوانى تلقى لها يد الغلب صنائع حلب ، والحلل التى تلع صنعاء فيها بالطلب ، وتدعو الى الجلب ، الى الدست الرهيف ، ذى الورق الهيف . وكفى برمانها حقاق ياقوت ، وأمير قوت ، وزائر غير ممقوت . الى المواساة ، وتعدد الاساة ، واطعام الجائع والمساهمة فى الفجائع ، وأى خلق أسرى من استخلاص الاسرى ، تبرز منهم المخدرة حسرى ، سامحة بسواريها ولو كانا سوارى كسرى . الى المقبرة التى تسرح بها العين ، وتستهان — فى ترويض روضاتها — العين ، الى غلاها المحكمة البنيان ، الماثلة كنجوم السماء للعيان ، وافتراض سكناها — أوان العصير — على الاعيان ، ووفور أولى المعارف والاديان .

(104 : أ) وأحسن (73) الشعر فيما أنت قائله
بيت يقال — اذا أنشدته — صدقا

وعلى ذلك ، فطينها يشفى به قطينها ، وأزبالها تحيى بها سبالها ، وسروبها يستمد (74) منها مشروبها ، فسحنها (75) متغيرة ، وكواكب

---

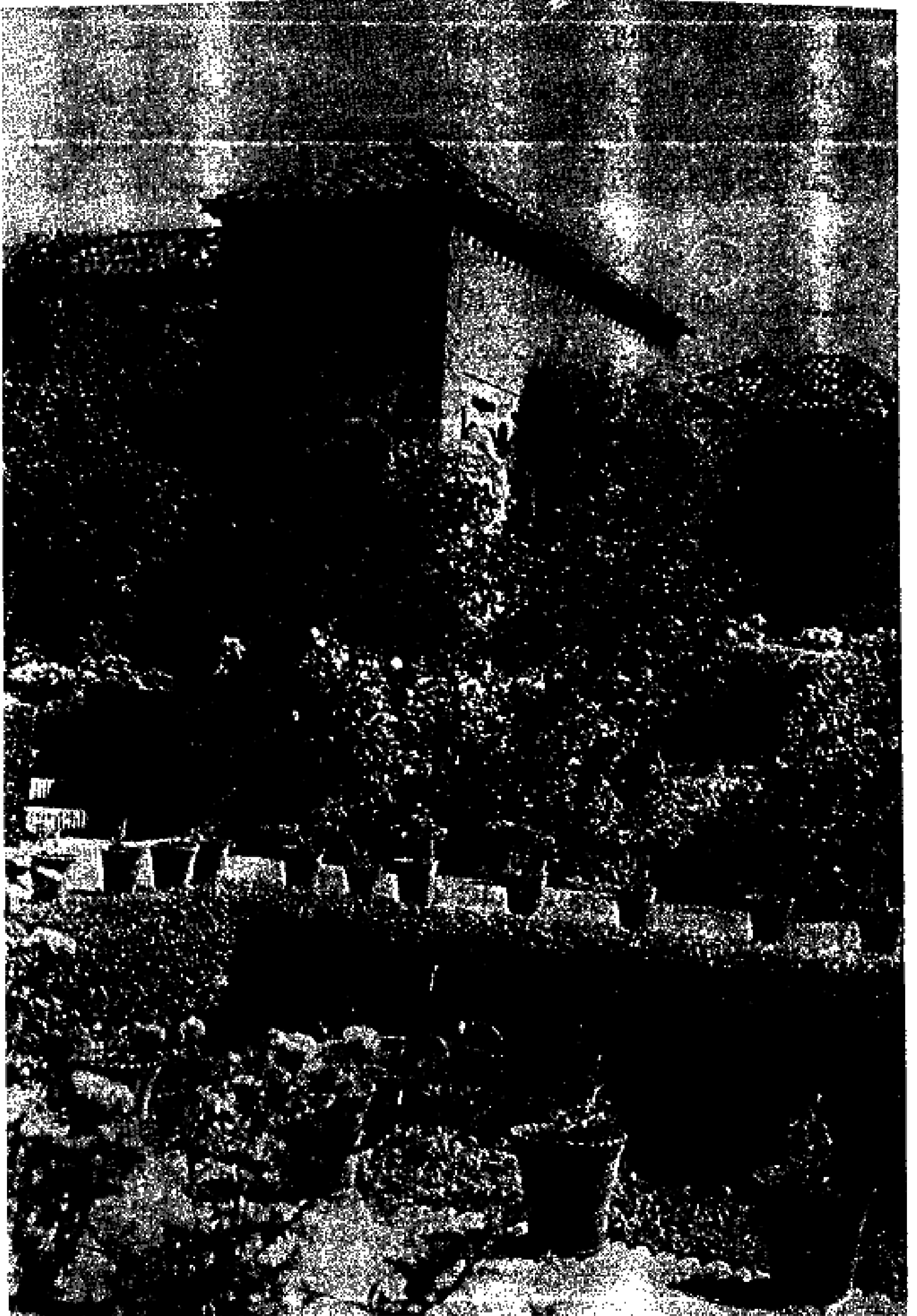
71) تبريز : مدينة فى ايران ، وهى قاعدة اقليم « أذربيجان الشرقية » ، وتشتهر بصناعة الطنافس والحرير .

72) اضطبنت : وانقت .

73) فى نسختى (س ، ط) « مما » بدل « فيما » .

74) فى نسختى (ط ، د) « يستعمل » بدل « يستمد » .

75) فى نسختى (ر ، س) « فسخهما ، فساحاتها » بدل « فسحنها » فلعلها فى نسختنا أولى .



قصبة مالقـة (منظر جانبي)

أذهانها النيرة متحيرة ، وأقطارها جد شاسعة ، وأزقتها لزجة (76) غير واسعة ، وآبارها تفسدها أزفارها ، وطعامها لا يقبل الاختزان ، ولا يحفظ الوزان ، وفقيرها لا يفارق الاحزان ، وجوعها ينفى به هجوعها ، تحث (77) على الامواج أقواتها ، وتعلو على الموازين غير القسط أصواتها ، وأرحيتها تطرقها النوائب ، وتصيب أهدافها السهام الصوائب ، وتعد بها الجنائب ، وتستخدم فيها الصبا والجنائب ، وديارها الآهلة بالسكان قد صم بالنزائل صداها ، وأضحت بلاقع بما كسبت يداها ، وعين أعيانها أثر ، ورسم مجادتها قد دثر ، والدهر لا يقول دعا لمن عثر (78) ، ولا ينظم شملا اذا انتثر . وكيف لا يتعلق الذام ، ببلد يكثر به الجذام ! محلة بلواه آهلة ، والنفوس — بمعرة عدواه — جاهلة .

ثم تبسم عند انشراح صدر ، وتذكر (79) قصة (104 : ب) الزبرقان بن بدر (80) .

تقول هذا مجاج النحل تمدحه   وان ذممت تقل (81) قيء الزنابير

مدح وذم ، وعين الشيء واحدة   ان البيان يرى الظلماء كالنور (82)

---

76) فى نسخة (س) « حرجة » .

77) فى نسخة (ط) « تحط » بدل « تحث » .

78) مثل يضرب عند العرب ، ومعناه : ان الدهر لا يدعو لك بالانتعاش اذا عثرت .

79) فى نسخة (س) « وذكر » بدل « وتذكر » .

80) تتلخص قصة الزبرقان بن بدر فى : ان النبى صلى الله عليه وسلم سأل عمرو ابن الاهتم عن الزبرقان بن بدر ، فقال : « مانع لحوزته ، مطاع فى ادنيه » فقال الزبرقان : اما انه قد علم اكثر مما قال ، ولكنه حسدنى شرفى ، فقال عمرو : « اما لئن قال ما قال : فوالله ما علمته الا ضيق الصدر ، زمر المروءة ، لئيم الخال ، حديث الغنى » ، فلما راى عمرو انه قد خالف قوله الاول ، وراى الانكار فى عينى الرسول ، قال : « يا رسول الله ، رضيت ، فقلت احسن ما علمت ، وغضبت فقلت اقبح ما علمت ، وما كذبت فى الاولى ، ولقد صدقت فى الاخرى » فقال الرسول عند ذلك : « ان من البيان لسحرا » .
انظر : الجاحظ فى « البيان والتبيين » . ج 1 ص 52 .

81) فى نسخة (ط) « فقل » .

82) فى نسخة (ط ، س) « فى النور » بدل « كالنور » .

6 ـ « بليـــش مالقــة » (83)

قلت : فبليـــــش ؟

قال : جادها المطر الصيب ، فنعم البلد الطيب ، حلى ونحـــر ، (وبـــر) ولوز وتين ، وسبب من الامن متين ، وبلد أمين ، وعقار ثمين ، وفواكه عن شمال ويمين ، وفلاحة مدعى انجابها لا يمين . الا أن التشاجر بها أنمى من الشجر ، والقلوب أقسى من الحجر ، ونفوس أهلها بينة الحسد والضجر ، وشأنها غيبة ونميمة ، وخبث (84) مائها ـ على مــا سوغ الله من آلائها ـ تميمة (85) .

7 ـ « قمـــارش » (86)

قلت فقمــــارش ؟

قال : مودع الوفـــر ، ومحـــط السفـــر ، ومزاحم الفرقـــد (87) والغفر (88) ، حيث المـــاء المعين ، والقوت المعين . لا يخامر قلـــب

---

83) هي بالاسبانية « Velez Malaga » موقعهـــا غرب مدينـــة مالقـــة علـــى مسافة 34 كم . وقد تحدث ابن بطوطة عنها في « الرحلة » بما يؤيد وصف ابن الخطيب هنا (رحلة ابن بطوطة ج 2 ص 187) .

84) في نسخة (ر ، س) « وخبيث » .

85) التميمة : تجمع على تمائم ، وهي للاطفال مثلا ما يوضع على صدورهـــم أو جباههم من تعاويذ ، يعتقد أهلوهم أنها تقيهم شر الجوائح وعين الحسود ، قال الشاعـــر :

واذا المنية أنشبت أظفارهـــا ألفيت كل تميمة لا تنفـــع

والقصد في موضوعنا : ان المؤلف يعلل لخبث ماء بليش ، بأنه تعويذة من حسد الحساد ، لما أنعم الله به عليها من النعم التي عددها .

86) تمارش : هي« Comares » أحدى الحصون الهامة أيام مملكة غرناطة ، وتقـــع قربهـــــا .

87) الفرقد : البقر الوحشي .

88) الغفر : ولد الوعل .

المنكب

مرفا نزول عبد الرحمن الداخل

مؤسس دولة بني امية بالاندلس



صورة من البحر

الثائر به خطرة وجله ، الا من أجله . طالما نزعت اليه نفوس الملـوك الاخائر بالذخائر ، وشقت عليه أكياس المرائر فى الضرائر . وبه الاعناب التى راق بها الجناب ، والزياتين ،واللوز والتين ، والحرث الذى له التمكين، والمكان المكين . الا أنه عدم سهله (89) ، وعظم جهله ؛ فلا يصلح فيه الا أهلـــه .

8 ـ « المنكـــــب » (90)

قلت : (105 : أ) فالمنكـــب ؟

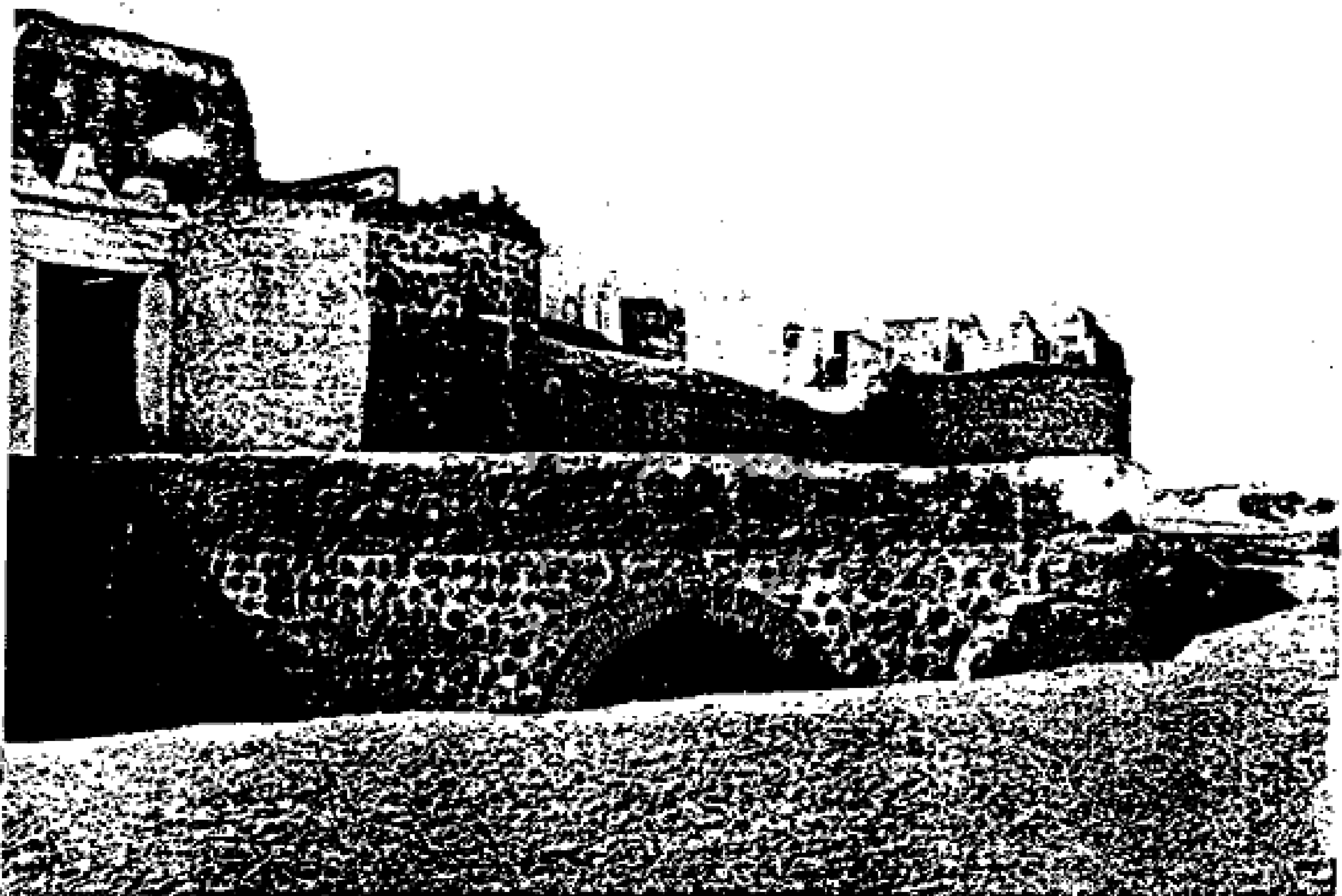
قال : مرفأ السفن ومحطها ، ومنزل عباد المسيح ومختطها . بلدة معقلها منيع ، وبردها صنيع ، ومحاسنها غير ذات تقنيع . والقصـــر المفتح الطيقان ، المحكم الاتقان ، والمسجد المشرف المكان ، والاثر المنبىء عن كان وكان ، كأنه مبرد واقف ، أو عمود فى يـد مثاقف . قد أخذ من الدهر الامان ، وتشبه بصرح هامان (91) ، وأرهفت جوانبه بالصخر المنحوت ، وكاد أن يصل(مـا) بين الحوت والحوت (92) . غصـت

89) يرمي بهذه الكناية الى سوء خلق أهل البلد .

90) المنكب : مرفأ ساحلى مرتفع ، يقع جنوب شرق الاندلس بمقاطعة غرناطة ، يدعى الآن « Almunecar وقد نزل الامير الاموى عبد الرحمن بن معاوية بهـذا الميناء عند دخوله الاندلس فى ربيع الاول 138 هـ = سبتمبر 755 م ، وهـذا الامير هو الذى عرف بعدئذ بلقب « الداخل » .
راجع : الادريسى فى « نزهة المشتاق » ـــ ص 199 ـــ نشر دوزى 1866 م ، وكذا « الروض المعطار للحميرى ص 186 .

91) يرمي الى الصرح الذى أمر فرعون وزيره هامان بتشييده له ، فى قوله تعالى : « وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى ، فأوقد لى يا هامان على الطين ، فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى ، وانى لأظنه من الكاذبين » القصص : 38 .

92) يعنى بالحوت الاول : السمك ، وبالآخر : نجم ، كناية عن عظم ارتفاع القصر .



حصن المنكب (أول محط لعبد الرحمن الداخل)

ــ بقصب السكر ــ أرضها ، واستوعب بها (93) طولها وعرضها ، زبيبها فائق ، وجنابها رائق .

وقد مت ــ اليها ــ جبل الشوار (94) بنسب الجوار . منشأ الاسطول ، بعدته (95) غير ممطول ، وأمده لا يحتاج الى الطول . الا أن اسمها مظنة طيرة تشتنف (96) ، فالتنكيب ــ عنها ــ يؤتنف (97) . وطرقها (98) يمنع شر سلوكها من تردد ملوكها ، وهواؤها فاسد ، ووباؤها مستأسد ، وجارها حاسد . فاذا التهبت السماء ، وتغيرت بالسمائم (99) المسميات والاسماء ، فأهلها ــ من أجداث بيوتهم ــ يخرجون (100) ، والى جبالها يعرجون . والودك اليها مجلوب ، والقمح بين أهلها مقلوب ، (105 : ب) والصبر ــ ان لم يبعثه البحر ــ مطلوب (101) ، والحرباء ــ بعرائها ــ مصلوب (102) ، والحر ــ بدم الغريب ــ مطلوب (103) .

---

93) فى نسخة (ر) « فيها » بدل « بها » .
94) يقصد به جبل « Sierra del Cazulas »
راجع فى هذا كلا من الحميرى فى « الروض المعطار » ص 112 ، وكـذا : « سيمونيت » فى تحقيقه ص 47 .
95) فى نسخة (ط) « توعدها » .
96) فى نسخة (س) « تستنف » .
97) يؤتنف : يبتدىء .
98) فى نسختى (س ، ط) « وطريقها » .
99) السمائم : الريح الحارة .
100) اقتباسا من قوله تعالى : « يوم يخرجون من الاجداث سراعا ، كأنهم الـى نصب يوفضون » سورة المعارج ، آية : 43 .
101) لعله يقصد أن القمح هو الآخر يجلب من الخارج ، ثم يصرف بين اهل المدينة، فان لم تأت به السفن فالصبر نافذ .
102) لعل السبب لهذا شدة الحرارة ، كما اسلف ، ويبقى الاعتراض على تذكيـر « مصـلوب » والحرباء مؤنثة ، وعلى هذا المرجـع انه يقصد بالحربـاء قاطع الطريق العاتى ، بدليل ما بعده ، ويميل « سيمونيت » الى ذلك .
راجع : سيمونيت فى تحقيقه ص : 47 .
103) ربما يرمى بذلك الى ان اهلها شرار يعترضون طريق الغريب ، بغية السلب، ولو ادى بهم ذلك الى قتل الغريب ، ومن ثم يكون القصاص منهم .

9 ــ « شلــوبانيــة » (104)

قلت : فشلوبانيـــة ؟

قال : أختها الصغرى ، ولدتها التي يشغل بها المسافر ويغرى ، حصانة معقل ، ومرقب متوقل ، وغاية طائر ، وممتتع ثائر ، ومتنزه زائر ، تركب ــ بدنها ــ الجداول المرفوعة ، وتخترق ــ جهاتها ــ المذانــب المفردة والمشفوعة ، ففي المصيف تلعب بالعقل الحصيف ، وفي الخريف تسفر عن الخصب والريف . وحوت هذه السواحل أغزر من رملــه ، تغرى (105) القوافل الى البلاد بحمله (106) ، الى الخضر الباكرة ، والنعم الحامدة للرب الشاكرة . وكفى بمترايل (107) من بسيطها محلة مشهورة ، وعقيلة ممهورة ، ووداعة في السهل غير مبهورة (108) . جامعها حافل ، وفي حلة الحسن رافل . الا أن أرضها مستخلص السلطان بين الاوطان ، ورعيتها عديمة الاعيان ، مروعة على الاحيان . وتختص

---

104) شلوبانية : بلدة على ساحل البحر الابيض المتوسط ، تبعد بمسافة 16 كلـم شرق المنكب ، وتعرف في الاسبانية باسم « Salobrena » تحيط بها الجبال من الشمال والغرب ، وبها حصن أندلسى من اهم الآثار الاندلسية ، وهــو يشرف على المدينة من ناحية الشرق من ارتفاع شاهق ، وقد سقطــت شلوبانية في يد الاسبان في نفس العام الذى سقطت فيه المنكب ، أى عــام 1489 م ، والى شلوبانية ينتسب امام النحو الاندلسى « أبو على الشلوبين» المتوفى باشبيلية عام 645 هـ (1247 م) .

105) في نسخة (س) « تغدو » .

106) في نسخة (س) « تحمله » .

107) مدينة تسمى الآن « Motril » ، يبلغ تعداد سكانها حاليا 50.000 نسمــة تقريبا ، تبعد عن مالقة بنحو 107 كم ، كما تبعد عن مدينة غرناطة شرقــا بنحو 74 كم تجاه ساحل البحر الابيض المتوسط ، تشتهر بزراعــة قصــب السكر ، ولها أهمية اقتصادية بين مدن غرناطة ، حيث أنها مركز هــام للمواصــلات .

108) غير مبهورة : غير مفضولة .

شلوبانية بمزية البنيان ، ولكنها غاب الحميات ، غير أمينة على الاقتيات ، ولا وسيمة الفتيان ولا الفتيـــات (109) .

10 ـ « بـــــرجـــــة » (110)

قلت : فبرجـــــة ؟

قال : تصحيف وتحريف ، وتغيير فى تعريف (111) . ما هى الا بهجة ناظر ، وشرك خاطر ، ونسيجة (106 : أ) عارض ماطر ، ودارين (112) نفس عاطر . عقارها ثمين ، وحرمها أمين ، وحسنها باد وكمين ، عقود أعنابها قد قرطت آذان الميس (113) والحـــور (114) ، وعقائل أدواحها مُبتسمة عن ثغور النور . وسيطها متواضع عن النجد ، مرتفع عن الغور ، وعينها سلسالة ، وسبائك (115) المذانب منها مسالة ، تحمل الى كل جهة رسالة ، ودورها فى العراء مبثوثة (وركائب النواسم بينها محثوثة) ، لا تشكو بضيق الجوار ، واستكشاف العوار ، وتزاحم الزوار .

مياه وظلال ، وسحر حلال ، وخلق دمث كثراها ، ومحاسن متعددة كقراها ، ولطافة كنواسمها عند مسراها ، وأعيان ووجوه ، نجل العيون ،

---

(109) فى نسختى (ط ، س) « والفتيات » بدون « لا » .

(110) برجه : هى « Berja » تقع شرق الاندلس ، وتتبع اقليم المرية .

(111) يصح أن يكون اسم المدينة مصحف من « بهجة » ومحرف عن « برج » ، وتقرأ معرفة « البرج » ، وهذا مقصد ابن الخطيب من تعبيره عنها .

(112) دارين : مكان بالبحرين يجلب اليه المسك من الهند ، وينسب اليها . وقد ورد هذا المكان كثيرا فى الاشعار العربية ، قال بعضهم :

يمرون بالدهنا خفافا عيابهم ويرجعون من دارين بجر الحقائب

(113) الميس : نوع من الشجر . يوصف بضخامة الادواح والغصون .

(114) الحور : نوع من الكروم ينهض على ساق .

(115) فى نسخة (ط) « وسنابك » .

بيض الوجوه ، غلتهم الحرير ، ومجادتهم غنية عن التقرير . الا أن متبوأها بسيط مطروق ، وقاعدتها فروق (116) ، ووتدها مفروق (117) ، ومعقلها خرب ، كانه أحدب جرب ، ان لم ينقل اليه الماء ، برح به الظماء ، ولله در صاحبنا اذ يقول :

يـا بسيطـا بمعانـى بـرجـه   أصبـح الحسن بـه مشتهـرا
لا تحـرك بفخـار مقـولا   فلقـد ألقمـت منهـا حجـرا

والبر بها نزر الوجود ، واللحم تلوه وهما طيبتا الوجود ، والحرف (106 : ب) بها ذاوية العود ، والمسلك اليها بعيد الصعود .

11 ـ « دلايـــة » (118)

قلت : فدلايـــة ؟

قال خير رعاية وولاية ، حرير ترفع عن الثمن ، وملح يستنفد على الزمن ، ومسرح معروف ، وأرض ينبت بها جبن وخروف . الا أنها لسرايا العدو البحرى مجر العوالى ، ومحل الفتكات على التوالى ، فطريقها صوى (119) ومشاهد ، والعارف ـ فى مثلها ـ زاهد .

---

116) قاعدتها فروق : اى أن أرضها عرضة للغارات ، التى تجعلها جزعة يتملكهـا الخـوف .

117) وتدها مفروق : كناية عن ان مبانيها يفرقها نهر او واد مثلا ، والتعبير اصطلاح عروضـى ، والتورية واضحـة .

118) دلاية : هى « Dalias » احدى القرى التابعة لولاية المرية ، تبعد بنحـو 9 كم جنوب شرق برجة .

119) صوى : ما يوضع فى الطرق من احجار كعلامات ، وفى نسخ رس ، ط ، ر « هوى » . وقد أوردها « سيمونيت » هكذا ، ولعل الصواب فى نسختنا .

12 ـ « المريــــة » (120)

قلت : فمدينة المريـــة ؟

قال : المرية هنية مرية ، بحرية برية ، أصيلة سرية ، معقل الشموخ والاباية ، ومعدن المال وعنصر الجباية ، وحبوة الاسطول (121) ، غير المعلل بالنصر ولا الممطول ، ومحط التجار ، وكرم النجار ، ورعى الجار . ما شئت من أخلاق معسولة ، وسيوف من الجفون السود مسلولة ، وتكك محلولة ، وحضارة تعبق طيبا ، ووجوه لا تعرف تقطيبا ، ولم تزل ، ــ مع الظرف ــ دار نساك ، وخلوة اعتكاف وامساك .

---

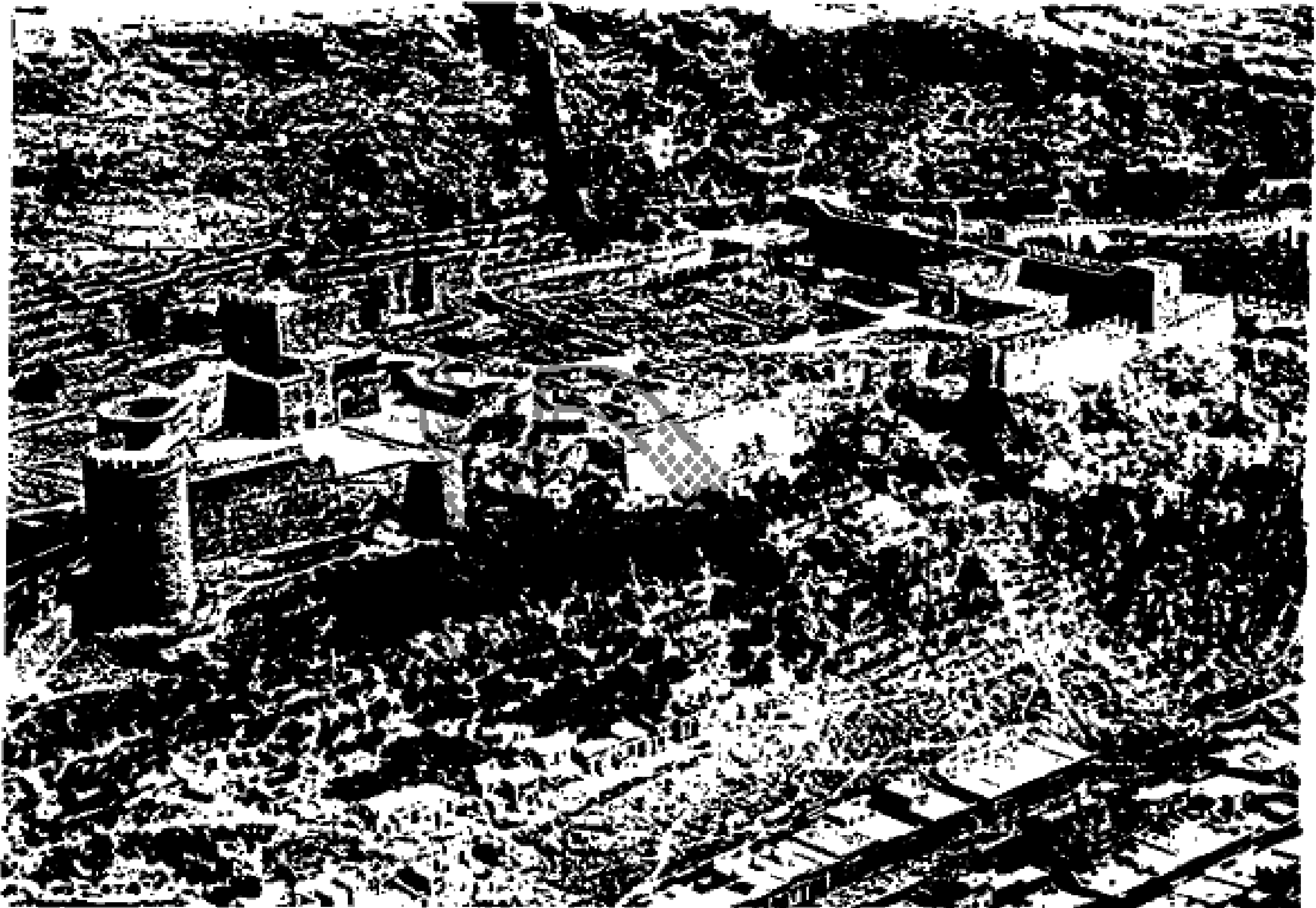
120) المرية « Almaria » مدينة كبيرة جنوب شرق الاندلس ، ومن أجمل الثغور والمدن الاندلسية ، وهى عاصمة الولاية المسماة ، بهذا الاسم ، يبلـــغ سكانها اليوم 85.000 نسمة تقريبا ، واهم صادراتها الحديد والرصـــاص والفاكهة ، وكانت فى العهد الاسلامى من أهم ثغور الاندلس الجنوبية ، بناها الخليفة الاموى عبد الرحمن الناصر عام 344 هـ = 955 م ، وسقطت فى يد الاسبان فى فبراير 1490 م (895) .

راجع : الروض المعطار للحميرى ص 183 ، 184 ، وكذلك ما ذكـــره المستشرق « زيبولد » بدائرة المعارف الاسلامية ، عن وضعية هذه المدينة فى العهد الاسلامى ص 319 (Zeybold, Enc. ISI, 1, P. 319)

121) يقصد القاعدة التى هى مرسى الاسطول .

122) فى نسختى (س ، ر) « وانف » وهكذا ورد عند « سيمونيت » ، فلعل الصواب فى نسختنا ، اذ يرمى المؤلف بتعبيره هذا الى أن معظم اسم المدينة يعنـــى « المرارة » التى ذاقتها العدو فانقلب عنها .

المرية



صورة للقصبة العربية من الجو

أرغم أهلها أنف الصليب ، لما عجم منها بالعود الصليب ، وألف (122) لامها وألفها حكم التغليب ، فانقلب منها آيسا (123) عند التغليب :

يســـأل عـــن أهـل المريــة سائــــل
وكيــف ثبات القوم والروع باســـر

(107 : أ) قطا دارج في الرمل في يوم لذة
ولهو ، ويوم الروع فتخ كواســـر (114)

بحرها مرفأ السفن الكبار ، وكرسيها هو العزيز عند الاعتبـــار ، وقصبتها سلوة الحزين ، ومودع الخزين ، وفلك المنتزين . وهي محـــل الغلل (125) المجدية ، والاندية (126) المشفوعة الاردية ، ولواديهـــا المزية على الاودية . حجة الناظر المفتون ، المكسو الغصون (127) والمتون ، بالاعنـــاب والزيتـــون .



123) ينبغي ان نشير هنا الى هذه المؤامرة السرية الخطيرة التي تمت بين قشتالة واراجون على غزو مملكة غرناطة في آن واحد عام 1309م (709هـ) . وتتلخص هذه المؤامرة في ان تهاجم الجيوش القشتالية مدينة الجزيرة الخضـــراء Algeciras بالجنوب ، بينما تهاجم الاساطيل الارجونية ثغور المرية من الشرق ، ويتابع الطرفان هجومهما حتى يتقابلا في غرناطة نفسها ، وقـــد تعرضت مدن اندلسية كثيرة لشر هذا الاتفاق ، وكانت المرية أكثـــر المدن ابتلاء بهذا الهجوم ، وقد فشل المشروع الهجومي بصمود هذه المدن .
انظر : ابن القاضي في « درة الحجال في غرة اسماء الرجال » ج 1 ص : 71 وما بعدها ، نشر علوش . الرباط 1934 م ، وقد ترجم النص الى عدة لغات، منها ترجمة اسبانية لسانشث البرانث في :
Sachez, Alboremez, La España Musulmana, P. 386-392.

124) فتخ : الاسد ذوات الكف العريض .

125) في نسختي (س ، ط) « والحلل » .

126) في نسخة (ط) « والارديـــة » .

127) في نسخة (ط) « الخصور » .

بلد الخام (128) ، والرخام ، والذمم الضخام ، وحمتها (129) بديعة الوصف ، محكمة الوصف ، مقصودة للملاج والقصف . حرها شديد، وذكرها طويل مديد ، وأثرها على البلى (130) جديد . الا أن مغارمها ثقيلة ، وصفحة جوها ــ في المحول ــ صقيلة ، وسماؤها بخيلة ، وبروقها لا تصدق منها مخيلة ، وبلالة النطية منزورة العطية ، وسعرها من الاسعار غير الوطية . ومعشوق البر بها قليل الوصال ، وحمل البحر صعب الفصال (131) ، وهي متوقعة الا أن يقي الله طلوع النضال ، وعادة المصــــال (132) .

13 ــ « طبـرنـــش » (133)

قلت : فطبرنش ، من شرقيهــا ؟

قال : حاضرة البلاد الشرقية (134) ، وثنية البارقة الافقية . مــا شئت من تنجيد بيت ، وعصير زيت (135) ، (107 : ب) واحياء أنس

---

128) في نسختي (ط ، ر) « الكتان » ففي نسختنا أعم .

129) حمتها : لا يقصد بلدة الحامة « Alhama » التي سيفرد ابن الخطيب لها وصفا خاصا بها بعد قليل . وانما يقصد العين الحارة الخاصة بالمرية ، وذلك خلافا لما ذكر د. العبادي في « المشاهدات » .

130) في نسخة (ر ، س) « البلاد » ، وقد أوردها « سيمونيت » كذلك ، ولعلها في نسختنا أصوب .

131) في نسختي (ر ، ط) « العضال » وقد أوردها « سيمونيت » كذلك ، ولعل الصواب في نسختنا ، فهو يعني أن حمل السفن من قمح وخلافــه صعب النصال ، وهو كناية عن قلة البر وغلاؤه .

132) المصال : الكناح .

133) طبرنش : هي « Tabernas » وتعني باللاتينية : حوانيت واكواخ . أنظر : سيمونيت في تحقيقه . Simonet. O.P. Cit. P. 103

134) في نسخة اخرى « البلاد المشرقية » .

135) في نسخة (س) « وعصر الزيت » .

ميت ، وحمام طيب ، وشعب تنثر فيه دنانير أبي الطيب (136) . الا أنها محيلة الغيوث ، عادية الليوث ، متحزبة الاحزاب (137) شرهة الاعزاب . ولو شكر ــ الغيث ــ شعيرها ، أخصبت ــ البلاد ــ عيرها .

14 ــ « بيـــــرة » (138)

قلت : فبيـــرة ؟

قال : بلدة صافية الجو ، رحيبة الدو (139) ، يسرح بها البعير ، ويجم بها الشعير ، ويقصدها ــ من مرسية وأحوازها ــ العير ، فساكنها بين تجر وابتغاء أجر ، وواديها نيلى الفيوض والمدود ، مصرى التخـوم والحدود ، ان بلغ الى الحد المحدود ، فليس رزقه بالمحصور ولا بالمعدود . الا أنها قليلة المطر ، مقيمة على الخطر ، مثلومة الاعراض والاسوار ، مهطعة لداعي البوار ، حليفة حسن مغلوب ، مملة بالماء المجلوب ، آخـذة باكظام القلوب ، خاملة الدور ، قليلة الوجوه والصدور ، كثيرة المشاجرة والشرور ، برها أنذر من برها في المعتمر والبور ، وزهد أهلها في الصلاة

136) يرمى بذلك الى وصف المتنبى (303 ــ 354 هـ/915 ــ 965 م)لشعب بوان، في تساقط اشعة الشمس من خلال الاوراق على الارض ، وكأنها الدنانير ، وشعب بوان هو مكان بفارس قرب شيراز ، يوصف بكثرة المياه والاشجار . قال المتنبي في وصفه :

غدونا تنفض الاغصـان فيـه	على أعرافها مثل الجمـان
فسرت وقد حجبن الشمس عنى	وجئن من الضياء بما كفانـي
والقى الشرق منهـا في ثيابـي	دنانيـر تفـر من البنـان

راجع : العرف الطيب ــ لليازجي ج 7 ص 603 ــ 612 .

137) في نسختي (ر ، س) « شريفة » فلعل الصواب في نسختنا .

138) بيرة : هي بالاسبانية « Vera » تقع شمال شرق مملكة غرناطة ، وهي بلدة مرتفعة ، على ساحل البحر الابيض المتوسط ، مما اكسبها أهميتها الحربية .

139) الدو : الفضاء خارج المدينة .

شائــع فى الجمهور ، وسوء ملكــة الاسرى من الذائع (بهــا) (140) والمشهـــــــور .

(مــا قام خيرك يا زمان بشــره   اولى لنا ما قل منكوما كفى) (141)

15 ـ « مجــاقـــر » (142)

قلت : فمجــــاقــر ؟

قال : حصن جديــد ، وخير مديد ، وبحر ما على افادته مزيــد ، (وخصب ثابت ويزيــد) (143) . ساكنه قد قضى ـ الحج ـ أكثره ، وظهر (108 : أ) عين الخير فيه وأثره ، الا أنه لا تلفى ـ بــه للماء ـ بلالة ، ولا تستشف للجود علالة .

16 ـ « قنتــوريــة » (144)

قلت : فقنتوريــــــة ؟

قال يسار يمينها ، وغبار كمينها ، ومعمول يمينها ، يجود بها الجبن والعسل ، ومن دونها الاسل (145) ، وأما عن الخبز فلا تسل . وان كانت أحسن شكلا ، فاقل شربا وأكلا ، وأجفا أهلا ، وأشد جهلا ، وأعدم علا

140) زيادة فى « س » .

141) هذا البيت ورد فى النسخ الاخرى ، واثبته « سيمونيت »
Simonet OP. Cit. P. 112

142) مجاقر : هى بالاسبانية « Mojacar » احدى قرى الاندلس الصغيرة ، مـا زالت حتى اليوم ، وما زال نساؤها حتى الآن يرتدين الحجاب .

143) زيادة فى « س ، ط » .

144) قنتورية : هى « Cantoria » تقع جنوب « برشانة » على نهر المنصورة .

145) كناية عن بخل اهلها ، بدليل ما ذكره بعدئذ .

ونهلا ، وأهلها شرار ، أضلعهم بالظماء (146) حرار . لا تلفى بهـا نغبة (147) ماء ، ولا تعدم (148) مشقة ظماء ، ولا تتوج أفقها الا فى الندرة قزعة سمـــاء .

17 ـ « بـــرشانـــة » (149)

قلت : فبرشانـــة ؟

قال : حصن مانع ، وجناب يانع ، أهلها أولو عداوة لاخلاق البداوة ، وعلى وجوههم نضرة وفى أيديهم نداوة ، يداوون بالسلافة (150) علل الجلافـــة ، (ويؤثرون علل التخلف على لذة الخلافة) (151) ، فأصبح ربعهم ظرفا ، قد ملىء ظرفا ، فللمجون به بسوق ، وللفسوق ألف سوق ، تشمر به الاذيال عن سوق . وهى تبين بعض بيان عن أعيان ، وعلى وجوه نسوانها طلاقة ، وفى ألسنتهم ذلاقة ، ولهن بالسفارة (152) فى الفقـــراء علاقة . (153) الا أن جفنها ليس بذى سور يقيه مما يتقيه ، ووغدها يتكلم بملىء فيه ، وحليمها يشقى بالسفيه ، ومحياها تكمن حية الجور فيه .

---

146) فى نسختى (س ، ر) « بالظما » وهكذا أوردها « سيمونيت » ، ولعل الصواب فى نسختنا .

147) النغبة : بالتشديد مع الفتح أو الضم ، بمعنى الجرعة من الماء .

148) فى نسخة (س) « ولا يعدم » .

149) هى« Purchena وتقع على نهر المنصورة ، تتبع ولاية « المرية » ، ويوجـد مكان آخر بهذا الاسم بولاية « جيان » .
انظر « الروض المعطار » للحميرى ص 52 حاشية 1 .

150) السلافة : افضل انواع الخمر ، اذ هى السائل قبل العصير

151) هذه العبارة زائدة فى النسخ الاخرى ، والعلل هو الشرب للخمر المرة تلـو المرة ، فأهل المدينة يؤثرون ذلك على لذة الملك .

152) فى نسختى (س ، ر) « عن » ، وهو اصوب وانسب .

153) كناية عن اشتغال بعض نسائها بالقوادة .

18 ــ « اوريـــــة » (153)

قلت : فأوريــة ؟ (108 : ب) .

قال : بلد الجبن والعسل (154) ، والهواء الذى يذهب بالكسل ، وأما عن الماء البرود فلا تسل . ادامه الصيد الذى لا يتعذر ، وقوته الشعيـر الذى يبـذر . الا أنه بادى الوحشـة والانقطـاع ، والاجابـة لداعـى المخالفة (155) والاهطاع (156) . وحش الجناب (157) ، عرى من ثمرات النخيل والاعناب ، حقيق لمعرة العدو والاجتناب .

19 ــ « بليـش الشقـراء » (158)

قلت :فبليـــش ؟

قال : ثغر قصى ، وقياد (159) ــ على الامن ــ عصى ، ويتيم ليس عليه ــ غير العدو ــ وصى . ماؤه معين ، وحوره عين ، وخلوته ــ علـى النسك وسواه ــ تعين . وبه الحمام ، والنطف الجمام (160) ، ولاهله بالصيادة اهتمام ، وعسله ــ اذا اضطفت العسول ــ امـــام . الا أنها

153) هى المعروفة اليوم باسم « Oria » بولاية المرية .
154) فى النسخ الاخرى « بلدة » .
155) فى نسخة اخرى « المخالفة » .
156) الاهطاع : الاسراع فى خوف .
157) فى نسختى (س ، ر) « وحسن » هكذا اوردها « سيمونيت » ، وهو مـــا يتناسب مع السياق العام للوصف .
158) هى « Velez Rubio » تقـع قـرب مدينة « لورقـة » ، علاوة علـى « بليش البيضاء » Velez Blanco y en sus proximidades
كما توجد بليش اخرى تدعى « Velez Malaga » وهى قرب « مالقـة » .
159) فى النسخ الاخرى بحذف « وقياد » .
160) النطف الجمام : الماء الكثير .

بسطة غرناطة



منظر عام للمدينة

بلدة منقطعة بائنة ، وبأحواز العدو كائنة ، ولحدود لورقة (161) ـ فتحها الله ـ مشاهدة معاينة . وبرها الزهيد القليل يتحف به العليل ، وسبيل الامن اليها غير سبيل ، ومرعاها ـ لسوء الجوار ـ وبيل .

20 ـ « بسطـــــة » (162)

قلت : فمدينـــة بسطـــة ؟

قال : وما بسطة ! بلد خصيب ، ومدينة لها من اسمهـــا نصيب ، دوحها متهدل ، (163) وطيب هوائها غير متبدل ، وناهيك من بلد اختص أهله فى معالجة الزعفران ، وامتازوا به عن غيرهم من الجيران . عمت ـ أرضها ـ السقيا فلا تتخلف ، وشملتها البركة يختص الله (164) 109 : أ) من يشاء ويزلف ، يتخلل ـ مدينتها ـ الجدول المتدافع ، والناقـــع للغلل (165) النافع . ثياب أهلها بالعبير تتأرج ، وحورها تتجلى وتتبرج وولدانها ـ فى شط انهارها المتعددة ـ تتفرج . ولها الفحص الذى يسافر فيه الطرف سعيا ، ولا تعدم السائمة به ريا ولا رعيا ، ولله در القائل :

الجانـــى الدهـــر الـــى عالـــم يؤخذ منـــه العلم والدين (166)
فى بلـــدة عـــوذت نفســـى بهـــا اذ فى اسمهـــا طـــه ويـاســـين

---

161) لورقة : مدينة تبعد عن مرسية بنحو60كم على مرتفع جبلى، فهى قلعة مرسية فى الحروب الاسلامية النصرانية ، وقد سقطت لورقة هذه فى يد الاسبان عام 1248 م (645 هـ) .
راجع : الروض المعطار ص 171 .

162) بسطة : تعرف الآن فى الاسبانية باسم « Baza » تقع شمال شرق غرناطـــة بنحو 25 كم .

163) فى نسختي (س ، ر) « متدل » .

164) فى نسختي (ط ، ر) « تختص » .

165) فى نسخة (ط) « للغلل » .

166) فى نسخة (ط) يتأخر البيت الاول عن الثاني ، وهو ما لا يتناسب والسيـــاق العام ، وهكذا أوردها سيمونيت دون اشارة الى نسختنا .

الا أن ترتبها تفضح البناء ، وان صحبة الاعتناء ، فأسوارها تسجد عند الاقامة ، وخندقها — لاكسارها — تلقامة ، فهى — لذلك — غير دار (167) مقامة ، ورياحها عاصفة ، ورعودها قاصفة ، وحاميتها تنظر الى الهياج ، من خلف سياج ، فالعدو فيها شديد الفتكات ، ممهل الحركات ، وساكنها دائم الشكات ، وحدها فليل ، وأعيانها قليل (168) ، وعزيزها — لتوقع المكروه — ذليل .

21 — « أشكر » (169)

قلت : فأشكر ؟

قال : نعم البسيط المديد ، والرزق الجديد ، والتقى (170) العديد ، والصيد والقديد (171) ، تركب الجداول فحصها ، ويأبى الكمال نقصها ، ويلازم ظل الخصب شخصها . مسرح البهائم ، ومعدن الرعى الدائم . الا أن معقلها لا يمنع ، ومكانها يحوم عليه (109 : ب) الحادث الاشنع ونفوس أهلها مستسلمة لما الله يصنع .

---

167) فى نسخة (ط) « خير » ، وهو ما لا يتناسب والسياق العام لوصف طبيعة البلد ، وقد أوردها سيمونيت كذلك مخالفة لنسختنا .

168) هذه الجملة زائدة فى نسختنا ، دون النسخ الاخرى .

169) أشكر : هى « Huescar تتبع ولاية غرناطة ، موقعها شمال بسطة ، ويشير « سيمونيت » عند ذكر هذه المدينة الى المنازعات التى كانت بين المسلمين والنصارى أيام ابن الخطيب .
راجع : Simonet. OP. Cit. p. 63

170) فى نسخة (ط) « والسمن » .

171) فى نسختى (ر ، س) « القديد » بدون الواو .

22 ـ « أنـــــدرش » (172)

قلـت : فـانــــدرش ؟

قال : عنصر جباية ، ووطن بهم (173) أولو اباية ، حريرها ذهب ، وتربها تبر منتهب (174) ، وماؤها سلسل ، وهواؤها لا يلفى معه كسل . الا أنها ضيقة الاحواز والجهات ، كثيرة المعابر والفوهات . أعرابها أولــو استطالة ، وابناء مترفيها كثيرو البطالة ، فلا يعدم ذو الزرع عدوانا ، ولا يفقد عير الشر نزوانا ، وطريقها غير سوى ، وساكنها ضعيف يشكو من قـــــوى .

23 ـ « شبـالــــش » (175)

قلت : فشبالــــش ؟

قال : معدن حرير خلصت سبائكه ، وأثرى بزازه وحائكه ، وتهدلت حجاله وتمهدت آرائكه ، وجباية سهل اقتضاؤها ، وجمت بيضاؤها . الا

---

172) اندرش : هي « Andorax » تتبع المرية ، مدينة صغيرة ، توجد الآن قسرب ولايتها ، واسمها يطلق على نهر هناك ينبع من جبل الثلج Sierra Nevada ويصب في البحر الابيض المتوسط .

173) في نسخة (ر) « به » بدل « بهم » ، والبهم بضم ففتح ج بهمة ، وهو الشجاع، يقول البوصيري :

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا فما تفرق بين البهم والبهم

174) في نسختي (س ، ر) « ملتهب » هكذا أوردها « سيمونيت » ، ولعل الصواب في نسختنا .

175) في نسخة (ط ، ر) « الفرج » ، هكذا أوردها سيمونيت ، وهو ما لايتناسب والسياق ، فلعل الصواب في نسختنا .

175) تسمي بالاسبانية« Jubles » موقعها بأطراف جبل الثلج« Sierra Nevada » وكانت عبارة من حصن في العصور الاسلامية ، وقد تحدث « سيمونيت » من هذا الحصن واهميته في الحروب الاهلية ، التي كانت تنشب في غرناطة على مر عصورها الاسلامية المختلفة .

راجع في هذا : « سيمونيت » ص 102 .

أنه وطن عدم ادامه ، وبيت ظهر اهتدامه ، وفقدت به حيل التميش وأسبابه ، ومحل لا يقيم به الا أربابه .

24 — « وادى آش » (176)

قلت : فمدينة وادى آش ؟

قال : مدينة الوطن ، ومناخ من عبر أو قطن ، للناس ما بدا (177) ولله ما بطن . وضع سديد ، وبأس شديد ، ومعدن حديد ، ومحل عدة وعديد ، وبلد لا يعتل فيه الا النسيم ، ومرأى يخجل منه الصباح الوسيم . كثيرة الجداول والمذانب ، مخضرة الجوانب . الى (110 : ا) الفواكه الكثيرة ، والكروم الاثيرة ، والسقى الذى يسد الخلة ، ويضاعف الغلة . وسندها معدن الحديد والحرير ، ومعقلها أهل للتاج والسرير . وهى دار أحساب ، وارث واكتساب ، وأدب وحساب . وماؤها مجاج الجليد ، وهواؤها يذكى طبع البليد . الا أن ضعيفها يضيق عليه المعاش ، وناقهها يتعذر عليه الانتعاش ، وشيخها يسطو على عصبة الارتعاش (178) . فهى ذات برد ، وعكس وطرد ، ما شئت من لحى راعد ، ومقرور على الجمر قاعد ، ونفس صاعد ، وفتنة يعد بها واعد ، وشرور تسل الخناجر ، وفاجر يسطو بفاجر ، وكلف بهاجر (179) ، واغتمام تبلغ به القلوب الحناجر ، وزمهرير تجمد له المياه فى ناجر شهر (180) . وعلى ذلك فدرتها

---

(176) وادى آش : هى« Guadix «تقع شمال شرق غرناطة ، على نهر « فردس » وتبعد عن غرناطة بنحو 55 كم .
راجع : الحميرى فى : « الروض المعطار » ص 192 — 193 نشر ليفى بروفنسال

(177) فى نسخة (ط) « ما ظهر » .

(178) فى نسختى (ط ، س) « وشيخها يخطو على قصبة الارتعاش » .

(179) الهاجر : الفحش والبذىء من القول .

(180) شهر ناجر : كل شهر من شهور الصيف ، لان الابل تنجر فيه اى تعطش .

أسمح (181) للحالب ، ونشيدتها أقرب للطالب ، ومحاسنها أغلب والحكم للغـــالــــب .

25 ـ « فنيـــانـــة » (182)

قلـت : ففنيـانـة ؟

قال : مدينة ، وللخير خدينة ، ما شئت من ظبى غرير ، وعضب طرير (183) ، وغلة وحرير ، وماء نمير ، ودوام للخزين (184) وتعمير . الا أن بردها كثير ، وودقها نثير ، وشرارها لهم فى الخيار تأثير .

26 ـ « مدينـة غرناطـة » (185)

قلت : نمدينـــة غرنــاطـة ؟

قال : حضرة سنية ، والشمس (بهـا)عن مدح المادح غنيـة ،

---

(181) فى نسختى (س ، ر) « اسمع » وهكذا أوردها « سيمونيت » ، ولكنهـا فى نسختنا أصوب

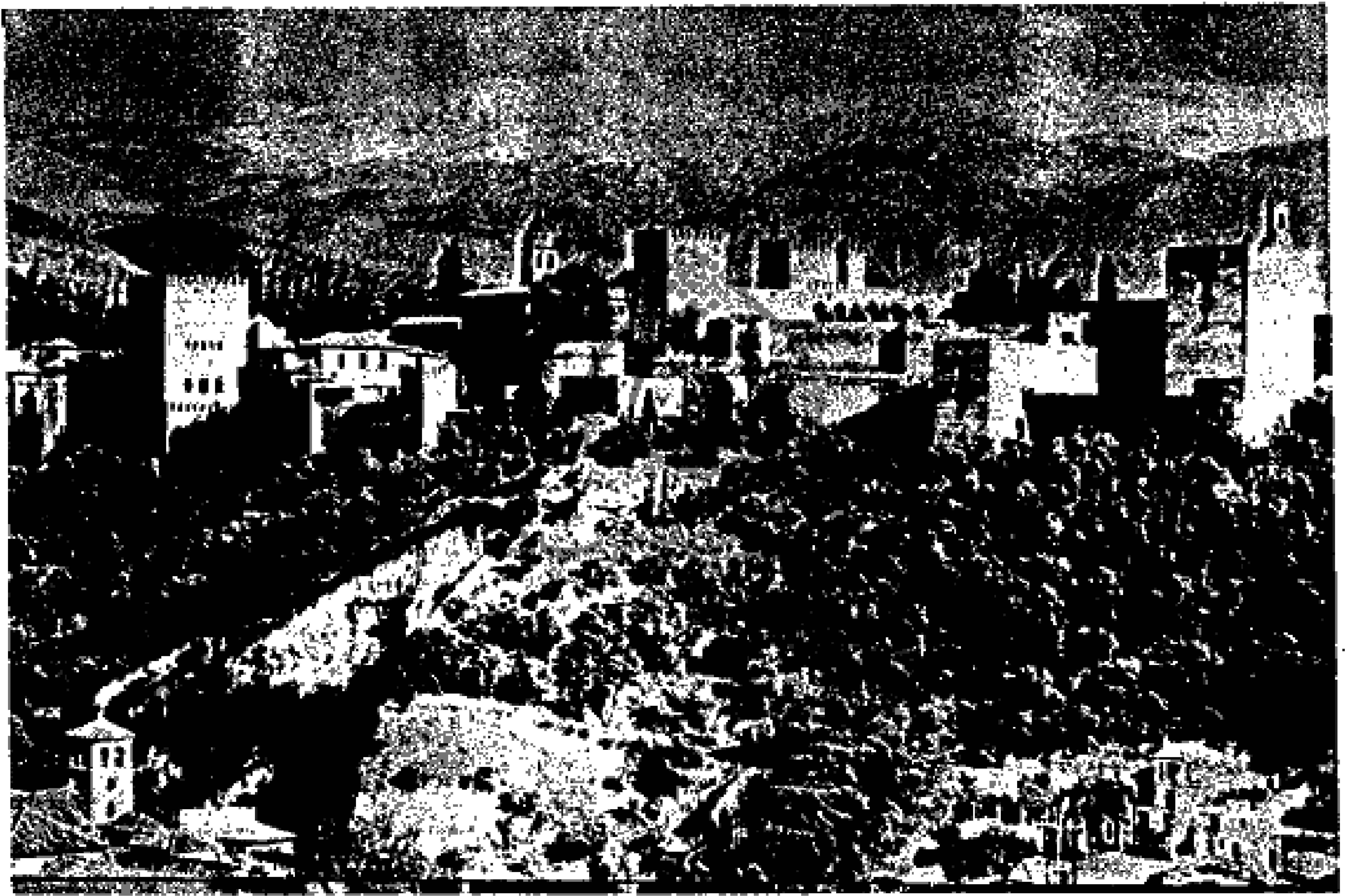
(182) هى« Finana »تقع ضمن مقاطعة المرية على مسافة 30 كم . جنوب شرق وادى آش .
راجع : الحميرى فى « الروض المعطار » ، ص 172 حاشية 2 .

(183) عضب طرير : سيف ذى حد مرهف .

(184) فى نسختى (س ، ر) « للتخزين » .

(185) هى Granada ومعناها « الرمانة » ، وهى شمارها التاريخى ، تقع فى واد عميق ، يمتد من المنحدر الشمالى الغربى لجبال « سييرانيفادا » ويحدها من الجنوب نهر شنيل فرع الوادى الكبير ، ويخترق فرعه « حدره » المدينة من الوسط ، والى يمينه يقع حى البيازين ، ومعظم المدينة الحديثة ، وتقع قصبة الحمراء فى الناحية الاخرى . وقد سقطت غرناطة بالتسليم فى يد الملكـــين الكاثوليكيين « فرناندو وايزابيلا » فى 2 يناير 1492 م (2 ربيع الاول 897 هـ). وهى خاتمة الفتوح التى توجت حروب الاستردادla Reconquista لذلك تحظى

غرناطة



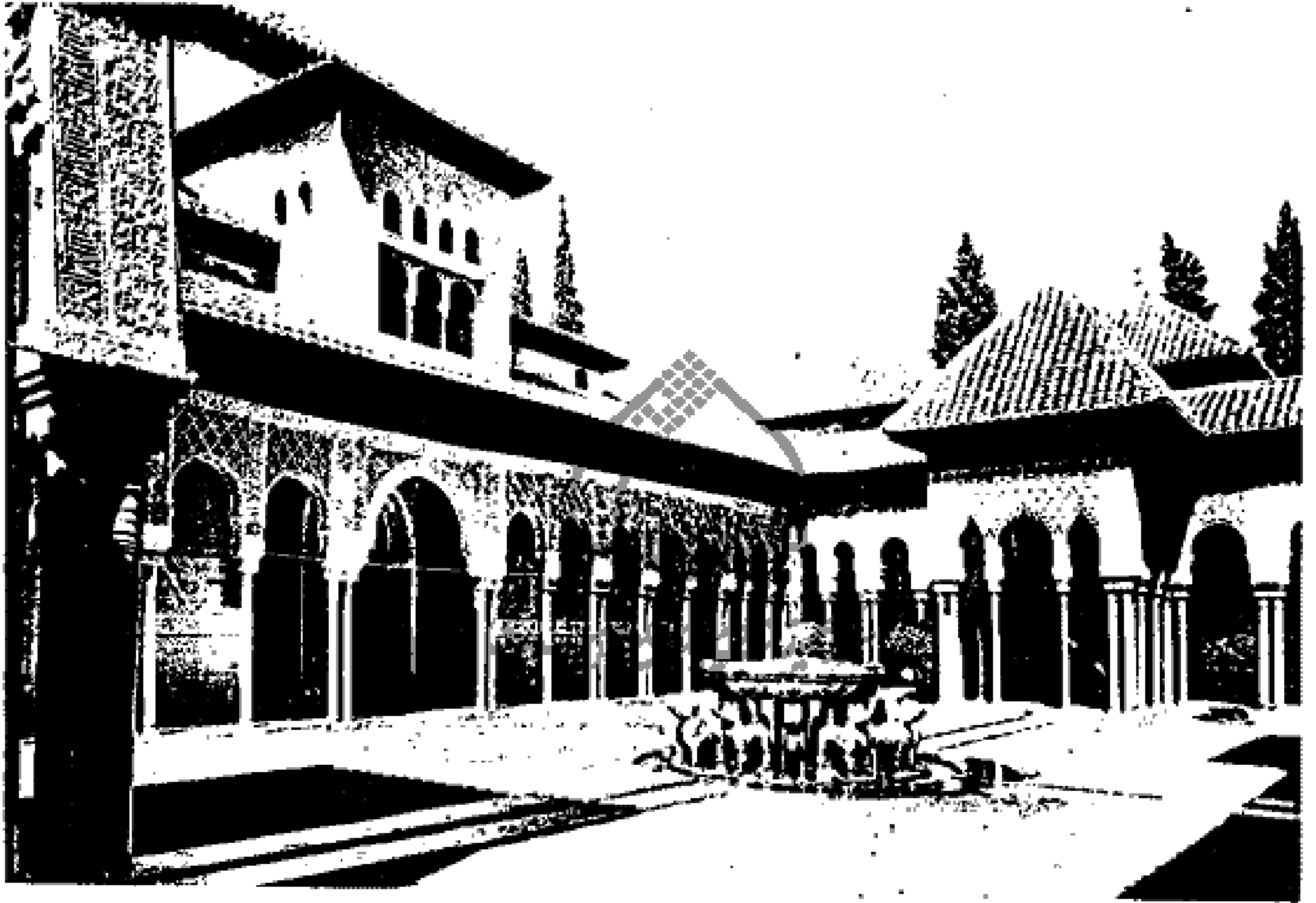
الحمراء وقلعتها

كبرت عــن قيل وقـــال ، وجلت عــن (110 : ب) وامـــق (186) وقال (187) ، وقيدت العقل بعقال ، وأمنت حال حسنها من انتقال . لو خيرت فى حسن الوضع لما زادت وصفا ، ولا أحكمت رصفا ، ولا أخرجت

غرناطة بمنزلة خاصة فى نفوس الاسبان ، وفى التاريخ الاسبانى كذلك ، فهى المرقد الابدي لفاتيحها الكاثوليكيين ، كما حباها ملوك اسبانيا بعنايتهم ، وفى مقدمتهم الامبراطور « شارلكان » الذى أسس جامعتها الشهيرة . وغرناطة اليوم ولاية ومدينة ، فكونها ولاية تشمل مساحة قدرها 5.000 ميل مربــع يحدها البحر من الجنوب ، ومن الشمال ولايات قرطبة وجيان ، ومن المشرق ولايتا المرية ومرسية ، ومن الغرب ولاية مالقة ، وتخترقها وتظللها جبـــال الثلج « سييرانيفادا » ويرويها كل من نهر الوداى الكبير وفرعه نهر شنيل ، وجوها حار ، ولاسيما فى الوديان المنخفضة ، وباردة فى التلال ، وتربتهـــا خصبة جدا ، ولاسيما فى المغرب والجنوب ، ويبلغ سكان الولاية 1.500.000 نسمة تقريبا ، ويتبعها من المدن : وادى آش ، واشكر ، ومترايل ، والحامة ، وسنتاف ، ولوشه ، وحصن اللوز ، ومونتى فريو ، واجيجر ، وبسطـــة ، والمنكب ، وارجبة ، وشلوبانية . وغرناطة العاصمة حاليا ثلاثة أقسام ، هى: انتكيروبلا ، وغرناطة ، والبيازين . وهى مدينة زراعية صناعية ، ويبلغ عدد سكانها اليوم حوالى 170.000 نسمة ، وتمتاز بكثرة منشآتها العلمية والفنية ، وقد تاسست جامعتها عام 1531 م فى عصر الامبراطور شارلكان ، وقـــد بارك المشروع « البابا كليمنت السابع » واصدر مرسوما بانشاء الجامعـــة التى تشتمل على كليات ، هى : الفلسفة والاداب ، والعلوم ، والحقوق ، والطب ، والصيدلة . ويلحق بكلية الاداب — معهدان هما : معهد تاريـــخ الملكين الكاثوليكيين ، وقد انشىء عام 1943 م ، والثانى مدرسة الابحاث العربية بغرناطة ، والتى تعمل بالتعاون مع مدرسة « بيجيـــل آسنـــــن » للدراسات العربية بمدريد ، ويصدران معا « مجلة الاندلس » ، وبغرناطة عدة متاحف ، منها متحف الحمراء ، والمتحف الاثري ، ومتحف البلدية . أما المعالم والآثار الاندلسية الباقية فهى : الحمراء ، وحى البيازين ، وميـــدان باب الرملة ، والقيسرية ، والمدرسة ، والخان ، والابواب والاســوار ، وقصر شنيل .

راجع : رحلة ابن بطوطة لهذه المدينة ، ج 2 ص 1187 ، 68 — 27 ، وكذا :
Simonet, OP. Cit.

(186) الوامق : المحب .
(187) القال : الكاره .



فنـاء الاسود (قصر الحمراء)

أرضها ريحانا ولا عصفا (188) ، ولا أخذت بأشتات المذاهب ، وأصناف المواهب جدا و (لا) قصفا . كرسيها ظاهر الاشراف، مطل على الاطراف، وديوانها مكتوب بآيات الانفال والاعراف ، وهواؤها صاف ، وللانفاس مصاف . حجبت ـ الجنوب عنها ـ الجبال ، فامن (189) الوباء والوبال ، وأصبح ساكنها غير مبال، وفي جنه من النبال، وانفسحت للشمال (190) ، واستوفت الشروط على الكمال ، وانحدر منها مجاج الجليد على الرمال . وانبسط ـ بين يديها ـ المرج الذى نضرة النعيم لا تفارقه ، ومدارى النسيم تفلى بها مفارقه . ريع من واديه بثعبان مبين ، ان لدغ تلول شطه تلها للجبين ، وولدت حيات المذانب عن الشمال واليمين (191) ، وقلد منها اللبات سلوكا تأتى (192) من الحصباء بكل در ثمين ، وترك الارض مخضرة ، تغير من خضراء السماء ضرة ، والازهار مفترة ، والحياة الدنيا ـ بزخرفها ـ مغتـــرة .

أى واد أفـــاض مـــن عـــرفـات
فـــوق حمـــرائهـــا أتـــم أفاضـــة

(111 : أ) ثم لما استقـــر بالسهل يجرى
شـــق منهـــا بحلـــة فضفاضـــة

كلمـــا انســـاب كـــان عضبـــا صقـــلا
واذا مـــا استـــدار كـــان مفاضـــة (193)

---

188) العصف : ورق الزرع .
189) فى نسخة (س) « فأمنت » .
190) الشمال : رياح الشمال .
191) فى نسخة (س) « وولد حيات المذانب تأتى من الشمال واليمين » .
192) فى نسختى (ر ، س) « تأثر » ، وهكذا أوردها سيمونيت ، والصـــواب فى نسختنا .
193) مفاضـــة : درع .



قصر جنة العريف من الخارج
(الحمراء)

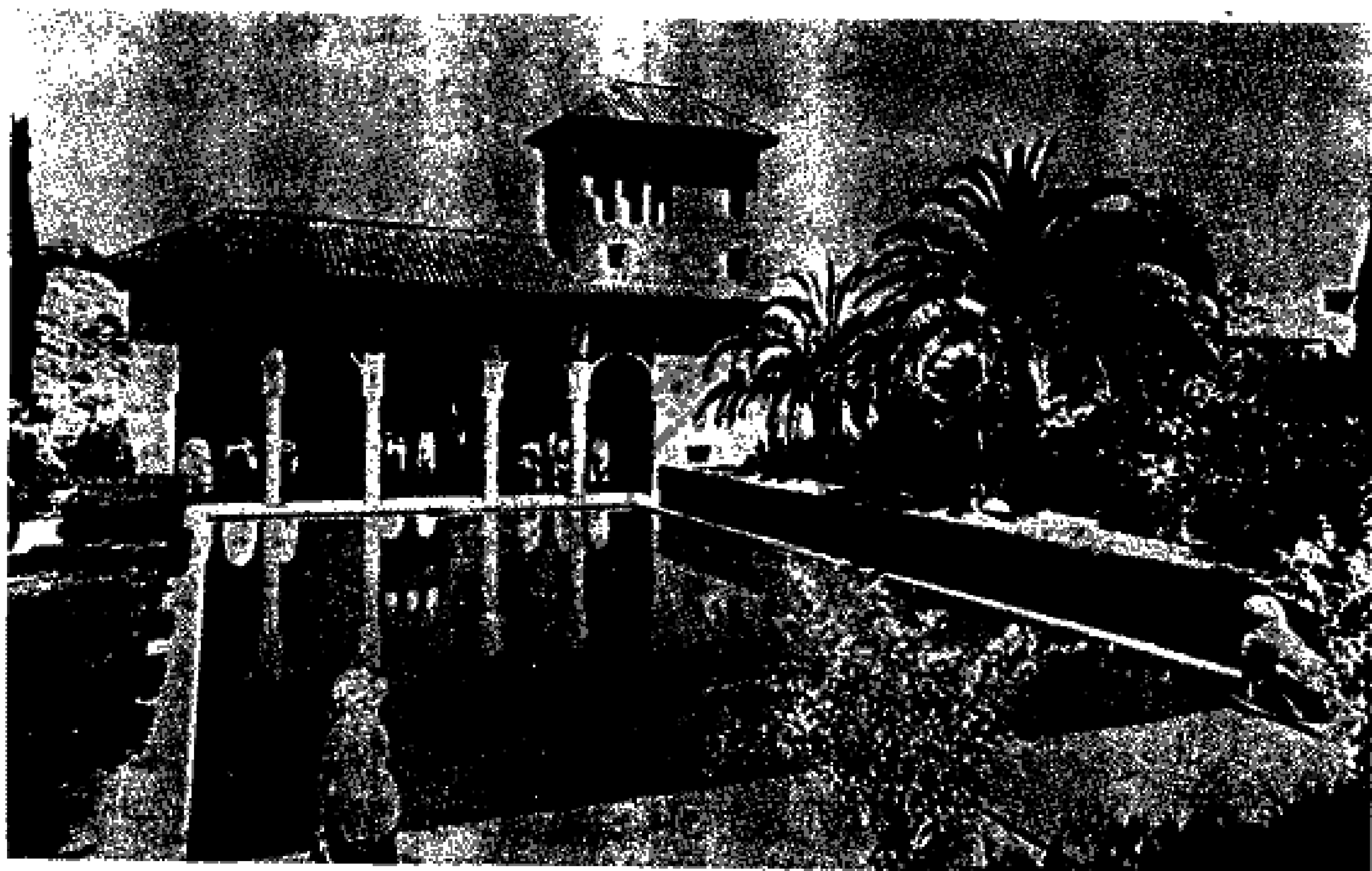
فتعددت القرى والجنات ، وحفت ـ بالامهات منها ـ البنات ، ورف النبات ، وتدبجت الجنبات ، وتقلدت اللبات ، وطابت بالنواسم المهبات ، ودارت بالاسوار دور السوار المنى والمستخلصات ، ونصبت ـ لعرائس الروض ـ المنصات ، وقعد سلطان الربيع لعرض القصات ، وخطب بلبل الدوح فوجب الانصات ، وتموجت الاعناب ، واستبحر ـ بكل عذب الجنا ـ منها الجناب ، وزينت السماء الدنيا من الابراج العديدة بأبراج ، ذات دقائق وأدراج ، وتنفست الرياح عن أراج ، أذكرت الجنة كل امل ما عند الله وراج .

وتبرجت بحمرائها القصور مبتسمة عن بيض الشرفات ، سافرة عن صفحات القبات المزخرفات . تقذف ـ بالانهار من بعد المرتقى ـ فيوض بحورها الزرق ، وتناغي ـ أذكار المآذن بأسمارها ـ نغمات الورق . وكم أطلعت من أقمار وأهلة ، وربت من ملوك جلة ، الى بحر التمدن (194) المحيط الاستدارة ، الصادر عن الاحكام والادارة ، ذى المحاسن غير المعارة ، المعجزة لسان (111 : ب) الكناية والاستعارة ، حيث المساجد العتيقة القديمة ، والميازب الحافظة للرى المديمة ، والجسور العريضة ، والعوائد المقدرة (**تقدير الفريضة ، والاسواق المرقومة الاطواق**) (195) بنفائس الاذواق ، والوجوه الزهر ، والبشرات الرقاق ، والزى الذى فاق زى الآفاق ، وملأ قلوب المؤمنين بالاشفاق :

بلد جللها الله حسنا وسنى
وأجر السعد من حل لديها رسنا

194) وردت هذه العبارة فى نسختى (ط ، ر) هكذا : « الى التمدين المحيط الاستدارة » كما اوردها بهذا سيمونيت ، ولعلها فى نسختنا اوفى

195) هذه الزيادة بين القوسين وجدتها فى نسختنا فقط .



بركة البرطل
(الحمراء)

قـد أجنت سكرا جمـا ورزقا حسنـا
أعجزت عن (196) منتهى الفخر البعيد السنا (197)

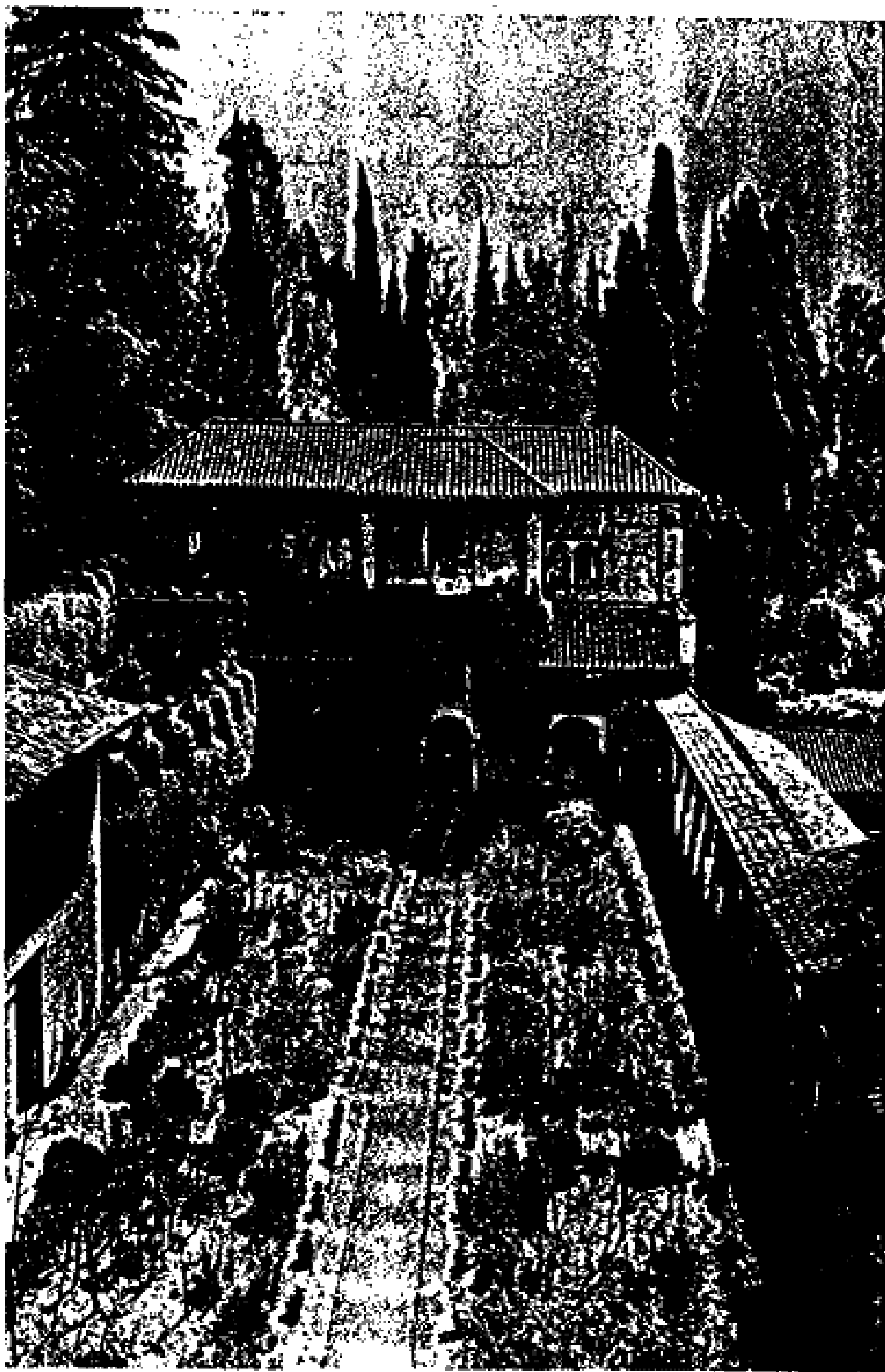
يروقك فى أطرافها حسن الصور وجمالها ، وظرف (198) الصنائع وكمالها ، والفعلـة وأعمالهـا ، حتى الاطـلال وانهما لها ، والسـؤال وأسمالهـــا (199) :

كـل عليه مـن المحاسن لمحـة ... فى كـل طـور للوجود تطـورا
كالروض يعجب فى ابتداء نباتـه ... واذا استجم به النبات ونـــورا
واذا الجمال المطلق استشهدتـه ... ألغيت مـا انتحل الخيـال وزورا

(112 : أ) ثم قال : أى أمن (200) عرى من مخافة ، وأى حصافـة لا تقابلها سخافة ، ولكل شىء آفة . لكنها ـ والله ـ بردها يطفىء حر الحياة ، ويمنع الشفاه عـن رد التحيات ، وأسعارها يشعر معيارهـا بالترهات (201) ، وعدوها يعاطى كئوس الحرب فهاك (202) وهات . الى السكك التى بان خمولها ، ولم يقبل الموضوع محمولها ، والكرب الذى يجده الانسان فيها ، صادف اضافة أو ترفيها ، والمكوس التى تطرد البركة وتنفيها . الى سوء الجوار ، وجفاء الزوار ، ونزالة الديار ، وغلاء الخشب والجيار ، وكساد المعايش عند الاضطرار ، واهانة المقابر وهى دار

---

196) فى نسخة (ر ، ى) « من » .
197) فى نسخة (ط) « السعيد لسنا » ، ولكن هذا الشطر الاخير يناسبه ما ورد فى نسختنا ، حيث يستقيم به المعنى .
198) فى نسخة اخرى « وطرفة » .
199) السؤال : ج سائل . والاسمال : البالى من الثياب ، وهى مبالغة تكاد تكون غير معقولة .
200) فى نسخة (س) « آمن » .
201) الترهات : ج ترهة ، وهى الاباطيل .
202) فى نسخة (ط) « بهاك » .



جنة العريف
(الحمراء)

القرار ، وقصر الاعمار ، واستحلال الغيبة فى الاسمار ، واحتقار أولى الفضل والوقار ، والتنافس فى العقار ، والشح فى الدرهم والدينار ، باليم والنـــــار (203) .

ثم قال : اللهم غفرا ، وان لم نقل كفرا ، « أن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (204) » . ولله در أبى المتاهية (205) حين يقـــــول :

أصبحت الدنيـــا ـ لنـــا فتنـــة   والحمـــد للـــه علـــى ذالكـــا
اجتمـــع النـــاس علـــى ذمهـــا   وما نرى ـ منهم لهـــا ـ تاركـــا

---

203) فى نسختى (س ، ر) « واليم » وهكذا اوردها « سيمونيت » ، ولعل الصواب فى نسختنا .

204) آية : 48 من سورة النساء .

205) أبو المتاهية : هو اسماعيل بن القاسم ، شاعر الزهد العربى فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، من بلدة عين التمر بالانبار غرب الكوفة . وقد وقد ولد حوالى عام 130 هـ (747 م) ، ومات حوالى عام . 210 هـ (825 م) درس اللغة العربية والادب ، ثم اتصل بالمهدى والهادى والرشيد والمامون، اشتهر شعره بالزهد فى أواخر حياته ، وخاصة عندما بلغ الخمسين ، وكان للرشيد جارية تسمى « عتبة » عشقها أبو المتاهية فى شبابه ، وتصبب بها كثيرا ، وخاصة فى بدء قصائده التى مدح بها الرشيد ، وكان حائرا بين مذاهب الشعر التى عاصرها ، ولكنه استقر اخيرا على شعر الزهد فأجاده .
راجع : مجلة الرسالة المصرية ـ العدد 3 عـــام 1953 م « شاعرنـــا العالمى أبو المتاهية » ـ لعبد المتعال الصعيدى .
ثم « أبو المتاهية » لمحمد أحمد برانق ـ القاهرة 1947 م .

27 ـ « الحمــــــة » (206)

قلت : فالحمــــــة ؟

قال : أجل ، الصيد (207) والحجل ، والصحة (208) وان كـــان المعتبر (112 : ب) الاجل ، وتورد الخدود وان لم يطرقها الخجــل . والحصانة عند الهرب من الرهب ، والبر كأنه قطع الذهب . والحمة التي حوضها يفهق (209) بالنعيم ، مبذولة للخامل والزعيم ، تمت ثنيتها بالنسب الى ثنية النعيم . قد ملأها الله اعتدالا ، فلا تجد الخلق اعتياضا عنها ولا استبدالا ، وأنبط صخرتها الصماء عذبا زلالا ، قد اعتزل الكدر اعتزالا . لكــن مزارعها لا ترويهــا الجداول ، ولا ينجدها الا الجــود المزاول (210) ، فان أخصب العام أعيا (211) الطعام ، وان أخلــف الانعام ، هلكت الناس بها والانعام . والفواكه يطرف بها الجلب ، وتزر عليها العلب ، وعصيرها لا يليق بالأكل ولا يصلح للحلب ، وبردها شديد وان لم يقض بــه المنقلــب .

---

206) الحمة : هي Alhama بلدة صغيرة تقترب مدينة بجانة من أعمال المرية، وقد اطلق عليها العرب هذا الاسم نسبة الى العين الحارة الموجودة بها ، والتي هي مقصد كثير من ذوي العلل والاسقام .
كما يقصد السياح اليوم هذه المدينة للاستشفاء بعينها ، وما تزال بهــا الحمامات العربية والعين حتى الآن .
راجع : الحميري في « الروض المعطار » ص 39 ، وابن بطوطة في رحلتــه ج 2 ص 187 .

207) في نسخة اخرى « الصحة » .

208) في نسخة (س) « والصيد » ، وهو ما لا يتناسب والسياق بعد .

209) يفهــق : يعصــر .

210) الجود المزاول : المطر الغزير المعالج .

211) يحتمل معنى (أعيا الطعام) أعجز الناس عن حمله لكثرته ووفرته متى أخصب العــام .

28 ـ « صالحـــة » (212)

قلت : فصـــالحـــة ؟

قال : لولا أنها مناخ لم تذكر ، فليس مما يذم ولا مما يشكر ، وان كان ماؤها فضيا ، ووجه جوها وضيا ، وعصيرها مرضيا ، ورزقهـا أرضيا ، وفضلها ذاتيا لا عرضيا . فهي مهب نسف ، ودار خسف ، وأهلها بهم ، ليس ـ لأحد منهم ـ فهـم .

29 ـ « أليـرة ومنتفـريـد » (213)

قلت : فأليرة ومنتفريـــد ؟

قال : بلد ارتفاق (214) ، باجماع واتفاق ، معدن البر الذكى ، والصيد الزكى ، وهد شاهق ، ومصرخ ناهق ، ومعدن بر فائق ، ان لـم يعق ـ من عدو القلعة ـ (113 : أ) عائق .

30 ـ « لـوشـــة » (215)

قلت : فلـــوشـــة ؟

قال مرأى بهيج ، ومنظر يروق ويهيج ، ونهر سيال ، وغصن مياد ، وجنات وعيون ، ولذات لا تمطل بها ديون ، وجداول تنضح بها الجوانح ،

---

212) صالحة : مدينة زالت معالمها منذ أواسط القرن السادس عشر الميلادى ، يطلق عليها الكتاب الاسبان اسم Zalea موقعها قديما كان قرب الحمة .

213) اليرة Illora ومنتفريد Montefrio تقع المدينتان شمال مدينـــة لوشـــة . .Loja

214) ارتفاق : استقرار واعتماد .

215) راجع ما كتباه عن هذه المدينة باول الكتاب ، عند التعريف بالمؤلف ، فهـــى مسقط رأسه .

ومحاسن يشغل بها عن وكره السائح ، ونعم يذكر ــ بهــا ــ المانح المانح . ما شئت من رحا يدور ، ونطف تشفى ــ بهــا ــ الصدور ، وصيد ووقود ، وأعناب كما زانت اللبات عقود ، وأرانب تحسبهم أيقاظا وهم رقود (217) . الى معدن الملح ، ومعصر الزيت ، والخضر المتكفلــة بخصب البيت ، والمرافق التى لا تحصر الا بعد الكيت . والخارج الذى عضد مسحة الملاحة ، بجدوى الفلاحة . الا أن داخلها حرج الازقة ، وأحوال أهلها مائلة الى الرقة ، وأزقتها قذرة ، وأسباب التطوف (218) بها متعذرة ، ومنازلها ــ لنزائل الجند ــ نازلة ، وعيون العدو ــ لثغرها الشنيــب (219) ــ مغازلــــة .

31 ــ « أرجــذونــــة » (220)

قلت : فأرجــذونـــــة ؟

قال : شر دار وطلل لم يبق منه غير جدار ، ومصام يرجع البصــر عنه وهو حاسر (221) ، وعورة ساكنها ــ لعدم الماء ــ مستأثرة (222). وقومها ذو بطر وأشر ، وشيوخها ــ تيوس فى مسالخ بشر ، طعام مــن

---

216) اقتباسا من قوله تعالى : « وتحسبهم ايقاظا وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » الكهف : 18 .

217) فى نسخة (ط ، س) « ومعاصر » .

218) فى نسخة (ط) « التصرف » .

219) الثغر الشنيب : ما كان أبيض الاسنان حسنها ، ويقصد صفحة المدينــــة الجميلة .

220) ارجذونة : هى حاليا Archidona بلدة متوسطة تتبع ولاية مالقة التى لا تبعد منها كثيرا .

221) اقتباسا من قوله تعالى : « ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئــا وهو حسير » الملك : 4 .

222) مستأســـر : قابـــض .

يقوت منهم أو يعول ، التيوس والوعول ، وحرثها مغل ، (113 : ب) وخلقهـا حســد وغــل .

32 ـ « أنتقيـــــرة » (223)

قلت : فأنتقيـــــرة ؟

قال : محل الحرث والانعام ، ومبذر الطعام ، والمرآة التى يتجلى بها وجه العام ، الرحب والسهل ، والنبات والطفل ، والهشيم والكهل ، والوطن والاهل . ساحت الجداول فى فحصها الافيح وسالت ، وانسابت حيات المذانب (224) فى سقيها الرحب الجوانب وانسالت . لا تشكو مــن نبــو ساحة ، ولا تسفر الا عن ملاحة ، ولا تضاهى فى جدوى فلاحة ، وعظــم ملاحة . الا أنها جرداء الخارج ، بل مارد ومارج (225) . وشدة فرجها فارج . لا تضبطها المسلحة للاتساع ، والدرع الوساع ، قليلة الفواكه ، عديمة الملاطف والمفاكه . أهلها أولو شرور وغرور ، وسلاح مشهور ، وقاهر ومقهــور ، لا تقبل غريبا ، ولا تعدم (226) من العدو تثريبا .

---

223) أنتقيرة : هى حاليا Antequera أحدى مدن الاندلس القديمة ، تبعد من مالقة بحوالى 60 كم ، وهى عبارة عن حصون بين مالقة وغرناطة . ينسب اليها : الحكيم أبو بكر يحيى بن محمد بن يحيى الانصارى الانتقيرى .
راجع : معجم البلدان ــ للحموى ــ ج 3 ص 259 .

224) المذانب : ج مذنب بوزن منبر ، وهو جدول الماء ذو المسيل الضيق .

225) المارد : العاتى القاسى ، والمارج : الشعلة ذات اللهب الشديد .

226) فى نسخة (س) « عن » بدل « من » .

33 ــ « ذكـــــوان » (227)

قلت : فذكـــــوان ؟

قال : روض وغدير ، وفواكه جلت عن التقدير ، وخورنق وسدير (228) ، ومائدة لا تفوتها فائدة . دارت على الطحن أحجارها ، والتفت أشجارها ، وطاب هواؤها ، وخفق بالمحاسن لواؤها . الا أنها ضالـــة ساقطة ، وحبة ترتقب لاقطة ، لا تدفع عن قرطها وسوارها باسوارها ، ولا تمنع نزع صدارها بجدارها ، وقضت بغلة (114 : أ) أعيانهـا حداثة بنيـانهـــا .

34 ــ « قـــرطمـــة » (229)

قلت : فقرطمـــة ؟

قال : الكرك (230) ، الذى يؤمن عليه الدرك (231) ، وان عظـم المعترك . جوها صاف ، في مشتي ومصطاف ، وتربها للبر مصاف، وعصيرها

---

227) ذكوان : عبارة عن حصن يسمى « Coin » موقعه غرب مالقـة ، يرجـع تاسيسه الى أيام عبد الرحمن الثالث الاموى ، اعظم واشهر ملوك بنى أمية (300 ــ 350 هـ = 912 ــ 961 م) ، ويروى ابن عذارى ان السبـب في اقامته هو مواجهة حصون عمر بن حفصون وأولاده ، الذين أعلنوا عصيانهم لحكومة قرطبة .
راجع : ابن عذارى في « البيان المغرب » ج 2 ص 189 وكذا :
Simonet Op. cit. p. 81

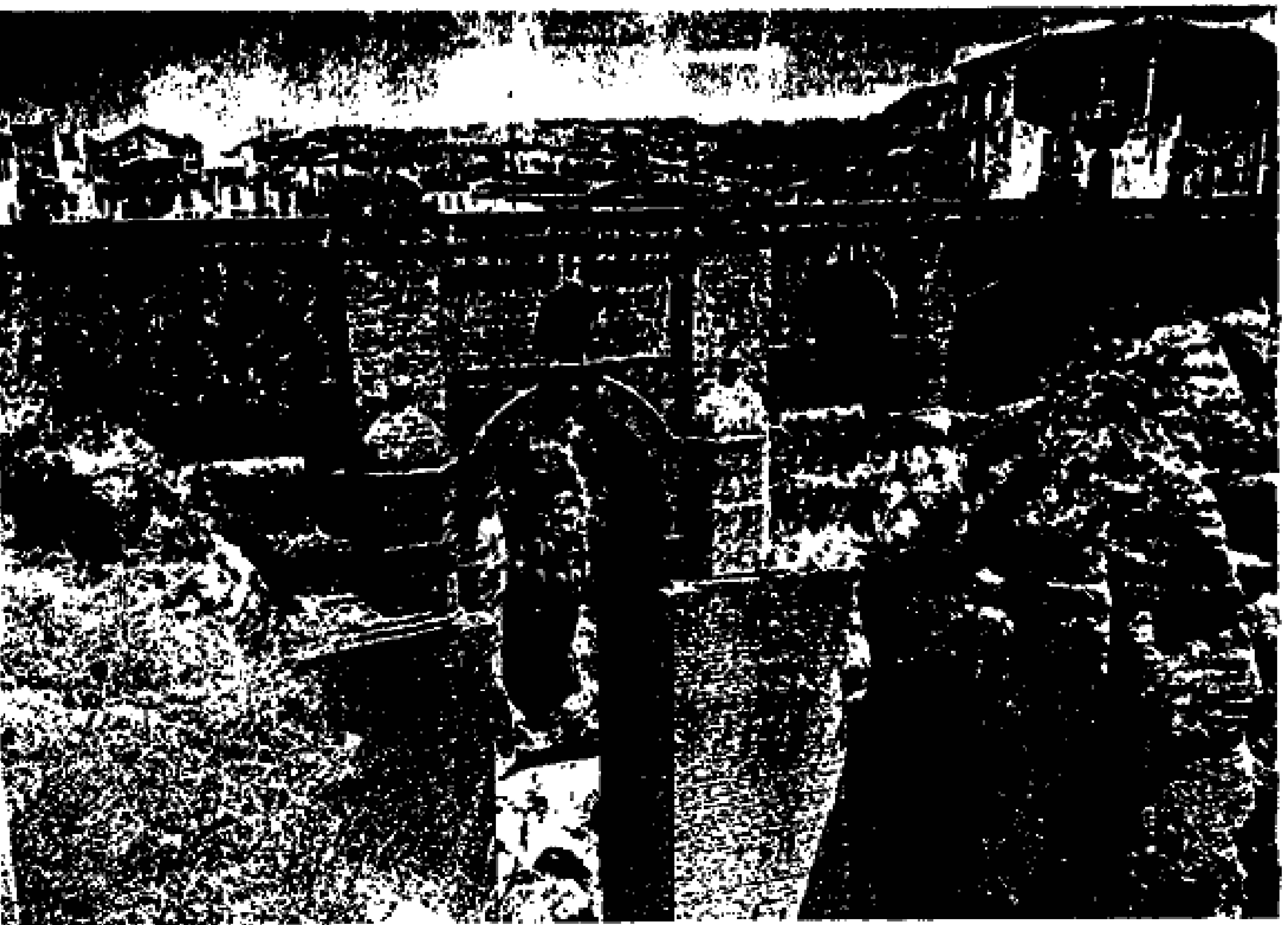
229) الخورنق والسدير : قصران ينسبان في التاريخ للنعمان بن المنذر ملـك الحيرة ، وتنسج حولهما طرائف .
راجع : الحموى في معجم البلدان ج 3 ص 54 ، والاغاني للاصفهانـي ج 2 ص 144 .

229) قرطمـــة : هي بالاسبانيـة ، Cartama ، احدى مدن الاندلس الصغيرة .

230) الكرك : نوع من الطير .

231) الدرك : الحراسة .

رنـــــدة



القنـــطـــرة العربيـــة

بالكثرة ذو اتصاف . الا أن الماء بمعقلها مخزون ، وعتاد موزون ، وأهلها فى الشدائد لا يجزون ، أيديهم ـ بالبخل ـ مغلولة ، وسيوف تشاجرهم مسلـــولـــة .

35 ـ « رنـــــدة » (232)

قلت : فـــرنـــــدة ؟

قال : أم جهات وحصون ، وشجرة ذات غصون ، وجناب خصيب ، وحمى مصون . بلد زرع وضرع ، وأصل وفرع ، مخازنها بالبر مالية ،

---

(232) رندة : هى « Ronda «تقع غرب مالقة ، وقد كانت من أهم القواعد الاندلسية، كما كانت من أهم مدن غرناطة ، وتعتبر الحصن الذى يحمى مالقة من ناحية الغرب ، ولذلك لما سقطت رندة فى يد الاسبان فى ابريل 1485 (جمادى الاولى 890 هـ) ، أضحى الطريق سهلا لاستيلاء القشتاليين على مالقة ، فقد سقطت بعد قليل فى ايديهم فى اغسطس 1487 م (شعبان 892 هـ) . وهى تشرف على منطقة عالية من الربى ، ويشقها من وسطها وادى ليبين Guadalebin وقد وصف ابن بطوطة مدينة رندة حينما زار الاندلس عام 1350 م بقولـــه : « وهى من أمنع معاقل المسلمين وأجملها وصفا » ، ويبلغ سكان رنــــدة حاليا اكثر من 35.000 نسمة ، فهى مدينة متوسطة الحجم ، ويغلب عليها طابع القدم والبساطة ، وعليها المسحة الاندلسية . هذا ، وأهم المعالـــم والآثار الاندلسية الباقية بها أطلال القصبة الشهيرة ، والقنطرة العربية عند مدخل المدينة الغربى ، وهى ذات عقد واحد بالغ الارتفاع ، ثم الحمامـــات العربية ، وهى أطلال دارسة من حمامات أندلسية قديمة ، على مقربة من الكنيسة العظمى ، وكذلك من الآثار « المنارة » فى نهاية المدينة ، ويبلـــغ طولها حوالى 12 مترا ، والظاهر انها من ايام الموحدين لشبهها بمآذنهم ، ثم قصر الامير ابى مالك ، ويعرف فى رندة باسم« Casa del Gigante » وهو اسم الاسرة التى تملكه ، ويقع القصر فى طرف المدينة الجنوبى ، وكذلك باب المقابر Puerta de Almocabar ويقع فى حى فرانسسكو . وينسب الى هذه المدينة الفقيه ابن عباد الرندى .

راجع ما كتبه ليفى بروفنسال عن هذه المدينة الاسلامية فى Enc. ISl. III, P. 1254 ومجلة الاندلس Al-Andalus (1944) 472.

رنـــــدة



بـاب المـقـابـر

وأقواتها جديدة وبالية ، ونعمها — بجوار الجبل — متوالية . وهى بلد أعيان وصدور (233) ، وشموس وبدور ، ودور أى ودور ، وماء واديها يتوصل اليــه فى جدور ، محكــم مقدور . وفى أهلها نضاضــة (234) وغضاضة (235) ، ما فى الكلف بها غضاضة (236) ، يلبس نساؤهــا الموق (237) ، على الاملد المرموق ، ويسفرن عــن الخد المعشوق ، وينعشن قلب المشوق ، بالطيب المنشوق . الا أن العدو طوى ذيل بردها ، وغصب بنيانها ، وكيف السبيل الى ردها ، وأضاق خارجها ، وخفض معارجها ، وأعلى طائرها ودارجها (238) .

فلما بلغ هذا الحد قال : هل اكتفيت ؟ فقد شرحت صدرك (114 : ب) وشفيت ، وبما طلبت منى قد وفيت . يا بنى كأنى بالصبــاح السافر ، وأدهم الظلام النافر ، قد أجفل أمام مقتنبه (239) الوافر ، وترك مــن الهلال نعل الحافر . ونفسى مطيتى ، وقد بلغت الليلة طيتى (240) ، وأجزلت عطيتى ، فلنجم بالحمض (241) ، ونلم بالغمض ، وأنا بعــد

---

233) فى نسخة (ط) « وجدور » ولعل الصواب فى نسختنا .

234) نضاضة : سعة الصدر .

235) غضاضة : حلــم .

236) غضاضة : حط من القدر . وفى (س) ما فى الكلف بها « حضاضــة » ، اى : ما فى الكلف بها شىء .

237) الموق : خف غليظ تلبسه النساء فوق خف أرق منه .

238) كناية عن أن العدو بغاراته يثير طيورها فتعلو فى الجو ، وفى الوقت نفســه يثير غبار طرقها .

239) المقتنب : الوعاء للصائد يجعل فيه ما يصيده .

240) طيتى : حاجتى .

241) فلنجم بالحمض: الحمض هو الفاكهة، والابل لها طعامها ولها حمضها، ويقصد بالتعبير : المذاكــرة .

نزيلك ، ان سرني جزيلك ، وعديلك ان ضحك الى منديلك ، وسميرك ان رواني نميرك . فبادرت البــدرة ففضضتها ، والصــرة فافتضضتها ، والعيبة (242) فنفضتها ، والمعادن فافضتها . فقال : بوركت من مواس، وانشد قول أبي نــــواس (243) :

مــا من يـــد فى الناس واحــدة   كيد أبو العباس (244) أولاهــا
نــام الثقــات على مضاجعهــم   وســرى الــى نفســى فاحياهــا

ثم قال : نم فى أمان ، من خطوب الزمان ، وقم فى ضمان ، مــن وقاية الرحمن . فلعمرى وما عمري على بهين ، ولا الحلف على بمتعين ، لو كان الجود ثمرا لكنت لبابه ، أو عمرا لكنت شبابه ، أو منزلا لكنت بابــــه .

فما هو الا أن كحلت جفنى بميل الرقاد ، وقدت طرفه سلس المقاد، وقام قيم الخان الى عادة الافتقاد ، وبادر سراجه بالايقاد ، ونظرت

242) العيبــة : الزنبيـــل .

243) ابو نواس : هو الشاعر ابو الحسن بن هانيء الفارسي الاصل ، المولود عام 140 هـ (747 م) عاصر هارون الرشيد الخليفة العباسي ثم ابنه الامـــين ، فكان شاعرهما . اشتهر بمجونه وتهتكه ، وكثيرا ما حبساه لظهور ذلــك فى شعره ، توفى بعد مقتل الامين عام 199 هـ (813 م) ببغداد . ويعتبر ابــو نواس ممثل المدرسة الشعرية الحديثة ، وقد ظهر تجديده فى خمرياتـــه وغزله بالمذكر . فهو فى هذين المجالين خصب الفكرة ، واسع الخبــــرة ، بحيث يستطيع ان يتغنى بمحاسنهما فى صور متجددة .
راجع : ديوان ابى نواس « المقدمة » ج 1 ص 248 ، نشر وتحقيق ايفالــد فاغر (القاهرة عام 1958 م) .

244) يعنى بابى العباس الوزير « الفضل بن الربيع » المكنى بابى العباس . وابو نواس بهذين البيتين يمدح ابا العباس هذا ، بعد ان تم اطلاقه من السجن على يده . وقوله « وسرى الى نفسى .. » يعنى : سرى الممدوح الى نفســـه فاحياها ، بعد ان انقذه من السجن .

(115 : أ) الى مضجع الشيخ ليس فيه الا زئبر أطماره (245) ، وروث حماره ، فخرجت لايثاره ، مقتفيا لآثاره ، فكان الفلك لفه فى مداره ، أو خسفت الارض به وبداره (246) ، وسرت وفى قلبى ــ لبينه وذهاب أثره وعينه ــ حرقة ، وقلت متأسيا : لكل اجتماع من خليلين فرقة .

⁂



245) زئبر اطماره : اثر ثيابه البالية .

246) اقتباسا من قوله تعالى : « فخسفنا به وبداره الارض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين » سورة القصص ، آية: 81.

الفصل الخامس

المجلس الثاني



(116 : أ) المجلــس الثـانــى

قال المخبر : فلما اندمل جرح الفراق بعد طول ، وزمان مطول (1) ومحا ـ رسم التذكر ـ تكرار فصول ، ونصول خضاب (2) ، وخضاب نصول (3) ، بينا أنا ذات يوم فى بعض أسواق الغبار ، أسرح طرف الاعتبار ، فى أمم تنسل من كل حدب ، وتنتدب من كل منتدى ومنتدب ، ما بين مشتمل للصماء يلويها ، ولاثث للعمامة لا يسويها ، ومتلفظ بالشهادة وهو لا ينويها ، وصاعد من غور ، ومتظلم من جور ، وممسك بذنب عير أو روق (4) ثور ، يموجون ، ومن الاجداث يخرجون ، كأنهم النمل نشرها وقد برزت للشمس ، من مطر الامس ، يشيرون (116 : ب) بأجنحة الاكسية ، ويتساقطون على ثماد القلب (5) وأسئار الاحسية (6) ، وقد اصطف ذابحو الجزور ، وبائعو اللبوب (7) والبذور (8) ولصق بالاملياء (9) حللة العقد وشهدة الزور ، ونظرت فى ذلك المجتمع الهائل المرأى والمسمع .

الى درسة غي ، وطهاة كي ، ورقاة جنون ، بضروب من القول وفنون ، وفيهم كهل قد استظل بقيطون (10) ، وسل سيف

---

1) فى نسخة (ط) « ممطول » .

2) نصول خضاب : ذهاب الحناء .

3) خضاب نصول : حناء مزالة .

4) روق ثور : قرن ثور .

5) ثماد القلب : حفر الآبار .

6) أسئار الاحسية : بقايا الماء فى المستنقعات .

7) اللبوب : الجوز واللوز .

8) البزور والابزار : التوابل .

9) الاملياء : ج ملى ، كغنى وزنا ومعنى .

10) قيطون : يطلقها اهل المغرب على الخيمة ، والجمع : قياطين .

لاطون (11) ، وتحدى برقية لديغ ومداواة مبطون ، قد اشتمل بسمل غفاره وبين يديه غبار فى جلد فاره ، وطحن من اطعام كفارة (12) . وأمامه تلميذ قد شمر الاكمــام ، والتفت الخلف والامام ، وصرف لــوحــى لحظه ــ الاهتمام . وهو ياسو ويجرح ، ويتكلم بلسان القوم ثم يشرح ، ويقيد من حضره بقيد العزيمة فلا يبرح . ويقول :

أيهــا البهــم الســارح ، والحــزب المســرور بمــا لــديـــه الفـــارح ، والســـرب الـــذى تقتاتـــه لـــولاة البـغـــى الجوارح (13) . صرفتم غروب اعتنائكم ، لمآرب نسائكــم وأبنائكم ، وذهلتم عمن حل بغنائكم ، وجعلتم تطعمون وتجمعون ، « انما يستجيب الذين يسمعون » (14) . من وقعت على منكم عينه ، فقد رأى فاتح أقفال الاسرار ، ومثبت (117 : أ) الفرار ، ومصمت أولئك الصرار ، ومغور مياه الآبار بيسير الغبار ، ومخرج الاضمار فى المضمار ، ومذهب المس وطارد العمــار (15) .

أنا قاطع الدماء اذا نزفــت ، وكاشف الغمــاء اذا ما انكشفت ، أهنــا (16) الابل فلا تجرب ، وأخط حول الحمى فلا تدنو السباع ولا تقرب ، وأدخل بها فلا تتسلل الحية ولا تدب العقرب ، ان نعيت الشمس ــ لوقت محدود ــ طمس فيها نورها (17) ، وان وعدت الارض بـــرى

---

(11) يرجح أستاذنا عبد الله كنون انها ربما تكون مشتقة من الكلمة الاسبانية لاطون « Laton » بمعنى النحاس ، فقد استعملها المقرى فى كتابه « نفح الطيــب » بهذا المعنى .

(12) ولاة البغى : يقصد بهم شرطة المكوس .

(13) كان العامة يعتقدون نوعا من الشفاء فى مثل هذه الامور .

(14) اقتباسا من قوله تعالى : « انما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ، ثم اليه يرجعون » سورة الانعام ، آية : 36 .

(15) العمار : الجن يسكنون البيوت .

(16) اهنا الابل : اطلى الابل بالقطران .

(17) كناية عن تنبؤه بأحوال الطقس .

محمود فار تنورها (18) ، وان كتبت لعقد النكاح انحلت ، وان عقلت خطى الضالة وقفت حيث حلت ، وان زجرت الجنون تركت وخلت ، وان استثرت الدفائن ألقت الارض ما فيها وتخلت (19) . أنا جردت البيضة الشقراء ، وزوجت الفتى الشرقى من الجارية العذراء . أنا صافحت الملك، ورصدت الفلك ، ومزجت ــ بسر الحكمة ــ الضياء والحلك ، فاحتقرت الملــك وما ملــك .

دعوت علم الطباع فأطاع ، وقطعت شكوك الهيئة بالشكل القطاع ، وقلت بالقدر وبالاستطاع ، وسبقت فى صناعة البرهان (20) يوم الرهان . ورضت صعاب الرياضيات حتى ذل قيادها ، وسهل انقيادها ، وعدلت الكواكب (117 : ب) واختبرت القلوب اليابانية والمناكب ، وبشرت عند رجوع خنسها (21) بالغيوث السواكب ، ووقفت بالامتحان ، على صناعة الالحان ، وقرأت ما بعد علم الطبيعة ، وناظرت قسيس البيعة (22) ، وأعملت فى الاصول مرهفة النصول ، وأحكمت أمزجة الطباع وطبائع الفصول . وامتزت بالبروع فى علم الفروع ، وقمت فى المهد الحديث بالحديث، وحزت فى علم اللسان درجة الاحسان . وحققت قسمة الفروض،

---

18) فــار تنورها : فاضت مياهها .

19) اقتباسا من قوله تعالى : « واذا الارض مدت ، والقت ما فيها وتخلت » سورة الانشقاق ، آية 3 ، 4 .

20) يقصد علم المنطق والمناظرة فى البحث العلمى .

21) خنسها : الخنس ، قيل : الكواكب كلها ، وقيل : السيارات منها فقط ، وقيل : الخنس ، هى زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد . وقد أقسم اللــه تعالى بها فى قوله : « فلا اقسم بالخنس ، الجوار الكنس ... انه لقول رسول كريم » آية 15 ــ 19 من سورة التكوير .

22) قسيس البيعة : يرمى بهذا الى ما كان يحدث أحيانا بين بعض المسيحيــين المستعربين من جهة ، وبين الاندلسيين الذين اتقنوا لغة المسيحيين من جهة اخرى ، فهؤلاء واولئك كثيرا ما التحما فى مجادلات دينية .
راجع ابن الخطيب فى : الاحاطة ، لوحة 111 ، 222 من مخطوطة جاييجوس بالاسكوريال .

وعدلت الشعر بميزان العروض ، ونظمت ونثرت ، وأكثرت فما عثرت . وعبرت حلم النوم ، ولبست الخرقة بشرط القوم (23) ، ولزمت خلوة الذكر ومعتكف الصوم .

وأما معرفتي بالاخبار ، وزرع الارض بالاشبار ، ما بين جليقية (24) الى الانبار (25) ، وأوصاف المدن الكبار — فقد ثبت بالاختبـــار .

قال : فاثار قديمي ، وأذكرني بنديمي ، فقلت : الله أكبر ، أوضح — الخبـــر — المخبر . فخضت اليه ومن بيني وبينه وهم بحر زاخر ، وأول ليس له آخر ، وبهم يسخر منه الساخر ، ما بين كبش مجتـــر وعجل ناخر (26) . وقلت : أيها الحبر ، ضالتي قريب أمدها ، معروف معتمدها . وعلى ذلك فالشكر (118 : أ) ممنوح ، والرفد طوفان نوح . فالان (27) العريكة ، وسلم النطع والاريكـــة ، وقال : أجل واعرض ،

---

23) بشرط القوم : يعني وفق شروط قوم الصوفية في اللباس المرقع .

24) جليقية : ادارة اسبانية انشاها « فرناندو الاول » لابنه « غارسيا » ، ضمت الى قشتالة عام 1662 م ـ 1073 هـ ، وتمتع امراؤها ببعض الاستقلال الذاتـــي الى اواخر القرن الخامس عشر ، موقعها شمالي الاندلس في اقصى الغرب. وقد وصل الى هذا المكان « موسى بن نصير » لما فتح الاندلس ، وينسب الى هذه الناحية « عبد الرحمن بن مروان الجليقي » من الخارجين بالاندلس ايام بني امية .
راجع : المعجم للحموي ج 3 ص 257 .

25) الانبار : آثار مدينة قديمة في العراق على ضفة الفرات ، فتحها خالد بن الوليد القائد الاسلامي على عهد الخليفة ابي بكر الصديق عام 634 هـ (1236 م). وكانت مقرا للخلافة الاسلامية حتى تاسست بغداد ، فأضحت حاضرة الخلافة حيث جددها ابو العباس السفاح ، اول خليفة عباسي . وينسب لهذه المدينة القاضي احمد بن نصر بن الحسين الانباري .
راجع : المعجم للحموي ج 3 ص 257 .

26) عجل ناخر : اي يمد نفسه من خياشيمه .

27) في نسخة (س) « فالن » بصيغة الامر ، ولعل سياق المحاورة يتمشى مـــع نسختنا .

وأنزل السؤال وافرض . فقلت : بى الى تعرف البلدان جنوح وجنون ، والجنون فنون ، وقد ظفرت قبلك بنقاب (28) ، وعود احتقاب ، وسارب أنقاب (29) ، حصل به من طلبى الشطر (30) ، وبك يتم الشكر (31) ، ويعظم الخطر . فقال : الناس متهم (32) ومنجد (33) ، (وخائل وممجد)، ولا تجود يد الا بما تجد .

والله المرشد . وجعل ينشد :

اذا المشكلات تصدين لى ... كشفت غوامضها بالنظر
ولست بامعة فى الرجال ... أسائل هذا وذا : ما الخبر (34)
ولكننى مذرب الاصغرين ... أبين ـ مع ما مضى ـ ما غبر (35)

ثم قال : هات ، أمن عقدك الشبهات .

---

28) نقاب : رجل علامة .

29) سارب أنقاب : السارب ، هو الذاهب على وجهه بالانقاب ، وهى الطرق ف الجبل .

30) ف نسخة (س) « الشكر » .

31) ف نسخة « الشطر » .

32) متهم : ساكن تهامة ، وهى اراضى السهل الساحلى الضيق ، الممتد من شبه جزيرة سيناء شمالا الى اطراف اليمن جنوبا ، وفيها مدن نجران وجدة وصنعاء ، وسكانها يميل بعضهم الى الزراعة بينما يميل البعض الى التجارة والملاحة وصيد اللؤلؤ .

33) منجد : ساكن نجد ، ونجد ، اقليم بالسعودية ، والعاصمة الرياض ، وهى بلاد جبلية ف شمال شبه جزيرة العرب ، نقيضها تهامة ، وهى البلاد الساحلية الغربية هناك .

34) ف نسختى (س ، ر) « وما الخبر » بالواو ، وهو خطا ف الوزن، وهكذا اوردها موللر .

35) ف نسختى (ط ، س) « وما غبر » ، وهو خطا ف الوزن ايضا ، وقد اوردها موللر هكذا ايضا .

المملكة المغربية

في حدودها الطبيعية والتاريخية



1 ـ « بـــادس » (36)

قلت : ما تقول فى بـــادس ؟

قال : بدأت بحمدلة الرقعة ، وبركة انبقمة ، ومدفن الولى (37) ، والنحر غير العاطـــل ولا الخلى من الحلى . بلد السراوة والشجاعة ، والايثـــار علـــى فرض المجاعـــة ، والنفوس الاوابـــة (الـــى اللــه) الرجاعة ، حيث البر والحوت ، والخشب الذى ينشأ منه كل منحوت ، والباس والاقدام ، والفاكهة الطيبة والادام ، (118 : ب) ورب الجبال ، وفضل للمدافعة لصهب السبال . الا انها موحشة الخارج ، وعـــرة المعارج ، مجاورة غمارة (38) بالمارد والمارج ، فهم ذوو دبيب ، فى مدارج تلك الغرابيب (39) ، وكيدهم ـ ببركة الشيخ ـ فى تتبيب (40) .

---

36) بادس : مدينة اندثرت فى اواخر القرن السادس عشر الميلادى ، حيث خربها الاسبان ، ويقال لها : « باديس » « وبادس غمارة » ، كما يقال لها «بادس فاس » تمييزا لها عن « بادس الزاب » الواقعة بالجزائر ، اما الاولى فكانت تقع على ساحل البحر الابيض المتوسط ، وتبعد عن « الحسيمة » بنحو 40 كم راجع : صحيفة الميثاق المغربية عدد 7 من السنة الاولى 1962 م ، وكـــذا ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 2 ص 29 .

37) يقصد بالولى هذا : ابو يعقوب يوسف بن محمد بن عبد الله الزهيلى البادسى ، نسبة الى بادس . (640 ـ 734 هـ = 1242 ـ 1333 م) عالم متصوف ذكره ابن خلدون عرضا فى حديثه عن قبائل البربر . عاصر الملك ابا الحسن المرينى ، وقد عثر مؤخرا على مخطوط الفه « ابو محمد الاوربى » فى مناقب ابى يعقوب البادسى .
راجع : صحيفة الميثاق المغربية عدد 7 ، 8 من السنة الاولى 1962 م .

38) غمارة : قبيلة بربرية ، وتسمى الجبال التى تسكنها بهذا الاسم ايضا .

39) مدارج غرابيب : طرق حالكة السواد .

40) تتبيب : هـــلاك .

2 ـ « سبتـــــة » (41)

قلت : فمدينـــة سبتـــة ؟

قال : عروس المجلى ، وثنية الصباح الاجلى . تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر فى المرآة الصقيلة ، واختص ميزان حسناتها بالاعمال الثقيلة . واذا قامت بيض أسوارها مقام سوارها ، وكان جبل بنيونش (42) شمامة أزهارها ، والمنارة منازه شوارها (43) ، كيف لا ترغب النفوس فى جوارهـــا ، وتخيم الخواطر بين أنجادهـــا وأغوارها ! ! الى المينا الفلكية ، والمراسى (44) الفلكية ، والركيـــة الزكية (45) ، غير المنزورة ولا البكية (46) ذات الوقود الجزل ، المعد للازل ، والقصور المقصورة على الجد والهزل ، والوجوه الزهر السحن ،

---

41) سبتة : هى Ceuta احدى المدن الساحلية على شواطىء البحر الابيـــض المتوسط شمال المغرب ، ولكنها تتبع حاليا اسبانيا ، لها تاريخها على مـــر العصور الوسطى الاسلامية ، من حيث كونها قاعدة سياسية هامة ، وقـــد اتخذها الامويون فى العصر الاسلامى قاعدة يصدون منها تيار الفاطميـــين . وفى القرن الثالث عشر استولت عليها اسرة اندلسية اسمها « بنى العزفى » ، وبقيت تحت حكم بنى الاحمر فترة من الوقت ، ثم استولى عليها البرتغال فى القرن الخامس عشر ، واخيرا استولى عليها الاسبان ، وما تزال تحت حكمهم حتى اليوم . ومنها « مرانة السبتى » من اعلم الناس بالحساب والهندســـة والفرائض والتاليف ، ومن تلاميذته ابن مرانة الفرضى « الحاســـب » ، يقولون : انه كان من اهل بلده ، وكان المعتمد بن عباد يقول : « اشتهيت ان يكون عندى من اهل سبتة ثلاثة نفر : « ابن غازى » الخطيب ، « وابن عطاء» الكاتب ، « وابن مرانة » الفرضى .
انظر : معجم البلدان للحموى ج 10 ص 182 ـــ 183 .

42) بنيونش : قرية تجاور سبتة من الغرب ، لا زالت آثارها باقية حتى اليوم .

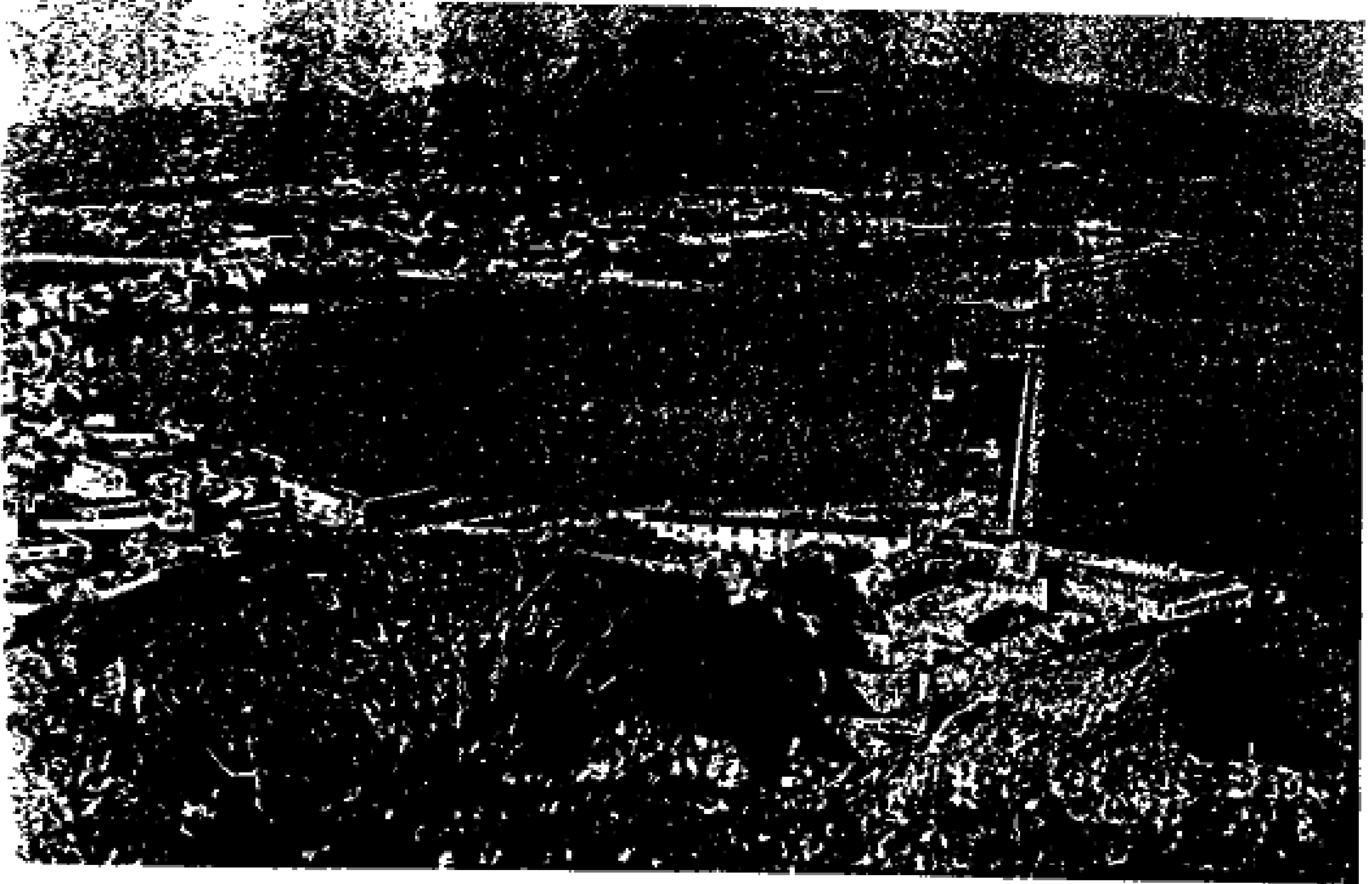
43) شوارها : حسنها .

44) فى نسخة « س » والمراقى ، بدل « والمراسى » .

45) الركية الزكية : البئر الطاهرة .

46) البئر غير البكية : هى التى لا تفيض فيض الدموع حين البكاء ، والتعبير عموما كناية عن أن منسوب المياه فيها معتدل .

سبتة



ساحل المدينة وجبل بنيونش

المضنون بها عن المحـــن . دار الناشبة ، والحامية المضرمة للحــرب المناشبة ، والاسطول المرهوب ، المحذور الالهوب ، والسلاح المكتوب المحسوب ، والاثر المعروف المنسوب . كرسى الامراء والاشراف ، والوسيطة لخامس أقاليـم البسيطة ، فــلا (119 : أ) حظ لهــا فى الانحـــــراف .

بصرة علوم اللسان ، وصنعاء الحلل الحسان ، وثمرة امتثال قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » (47) ، الامينة على الاختزان ، القويمة المكيال والميزان ، محشر أنواع الحيتان ، ومحط قوافــــل العصير والحرير والكتان ، وكفاهــا السكنـــى ببنيونش (48) فى فصـــول الزمان ، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الاثمان . والمدفن المرحوم غير المزحوم ، وخزانة كتب العلوم ، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم (49) ، الا أنها فاغرة أفواه الجيوب (50) للغيث المصبوب ، عرضة للريـــاح ذات الهبوب ، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ، ثغر تنبو (52) فيه المضاجع بالجنوب . وناهيك (59) بحسنة تعد من الذنـــوب ، فأحـــوال أهلها رقيقة (52) ، وتكلفهـــم ظاهر مهما عرضت وليمة أو عقيقـــة ، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة ، وأنساب نفقاتهم ـ فى تقدير الارزاق ـ عريقة ، فهم يمصون البلالة مص المحاجم ، ويجعلون الخبز فى الولائم بعدد الجماجم ، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم ، بالبشير الهاجم (53) ،

(47) اقتباسا من قوله : « ان الله يامر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » سورة النحل ، آية : 9.

(48) هى « Boliones » قرية تجاور سبتة من الغرب ، كانت تشتهر بحماماتهــا وبساتينها وانهارها ، ويسمى الجبل هناك باسمها .

(49) الحلوم : العقول ، والمفرد ، حلم .

(50) فى نسخة (ط) « الجنوب » وهى انسب للسياق .

(51) ناهيك : حسبك ، بمعنى يكفيك .

(52) فى نسخة (س) « دقيقة » وكلتاهما مناسبة للمعنى العام .

(53) كناية عن حبهم الشديد لبلدهم ، فهم مفتونون بها ، كفتنة الحزين ببشير مندفع نحوه ، أو كفتنة راعى أرض مجدبة تدفق عليها المطر .

وراعى الجديب بالمطر الساجم (54) ، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة ؛ (119 : ب) الشك — عنــدى — فى مكة والمدينة .

3 — « طنجــــة » (55)

قلــت : فطنجــــة ؟

قال : المدينة العادية ، والبقعة التى ليست بالخبيثة ولا بالردية ، اليها بالاندلس كانت نسبة المغاربة ، والكتائب المحاربة ، والرفق (56) السائحة فى الارض الضاربة . سورها ليس بمثلوم ، وساكنها غير ملوم ، وفضلها معلوم ، ودارها ليست بدار لوم . ميدان أفراس كبير ، ومعدن هند (57) وذكير (58) . مثلت بين المنار والقالة «59» ، وحكماهــا فى التفضيل ، فأشكل الحكم وتعذرت المقالة ، ولم يصح البيع ولا وجبت الاقالة . هذى سماء بروج ، وهذى أزهار مروج ، وكلاهما مركب سرور

---

54) المطر الساجم : الكثير المنصب .

55) طنجة :« Tangier » احدى مدن المغرب القديمة ، موقعها على المحيط الاطلسى بينها وبين اوروبا مسافة مضيق جبل طارق . عرفها الفينيقيون مركزا تجاريا هاما ، ثم القرطاجنيون كذلك فى تبادل السلع الهامة ، وتموين السفن التى فى طريقها الى المحيط . ولما ظهرت الدولة الرومانية واكتسحت الدولـــــة القرطاجنية فرضت سيادتها — ضمن ما فرضت — على طنجة ، والتى عرفت ازدهارا تجاريا ضخما بين المغرب — عن طريقها — وبين روما مركز الدولة الرومانية . وتوالى الزمن على المدينة ، حتى جاء عقبة بن نافع وموسى بن نصير الفاتحان الاسلاميان للمغرب عام 62 هـ (681 م) ، ومن يومها وطنجة العربية الاسلامية محافظة على طابعها ، حتى غدت قطعة من المغرب عام 1956 م (1376 هـ) .

56) الرفــق : المعونــة .

57) هند : السيف . ويقال ايضا للمائة من الابل فما فوقها .

58) ذكير : الذكير هو اجود الحديد .

59) القالة : يعنى بها الميناء ، وهى بالاسبانية : La Cala

طنجة



المدينة العربية

وسروج ، ومتمتع فروج ، ومطعم قديد ومروج . ديارها نبيهة ، وأحوالها ــ بأحوال جارتها (الاندلس) شبيهة .

لكن رملها يحشو العين بالذرور عند المرور ، (**ويدخل الدور ، ويفسد القدور**) ورياحها لا تسكن الا فى الندور ، وظلمة جوها متسببة عما وراءها من مغرب الشموس والبدور . وعين برقانها ــ أعذب عيونها ــ مشهور بتوليد الهوج ، قران عند الناس غير ذى عوج ، ويذكر أن سليمان اختصها بسجن مردة الجن ، فيعثر بها على (120 : أ) أوان ملئت ريحا ، تثير تبريحا (60) ، ويسندون ــ لذلك ــ افكا صريحا .

4 ــ « قصر كتامة » (61)

قلت : فقصر كتامة ؟

قال : مغرد عندليب (62) ، وعنصر بر وحليب ، ومرعى سائمة ، ومسرح بهيمة فى الجميم هائمة ، ومسقط مزنة عادية وديمة دائمة . وبه التفاح النفاح ، ترتاح الى شميمه الارواح ، والفوائد قد ثقلت بها الادواح ، يقذف به السماء والصباح ، ويتفنن فيه الحرام والمباح ، والسمك كما جردت الصفاح اذا استبحر الكفاح . وطريقه مسلك القافلة ، وببابه السوق الحافلة . ينسل اليها من غمارة قرود وفهود (63)

---

60) تبريحا : شدة وهلاكا .

61) قصر كتامة : اراد به « القصر الكبير » أحد مدن الشمال بالمغرب ، على بعد 25 كم من مدينة العرائش ، كما يبعد عن ساحل المحيط الاطلنطى بنحو 35 كم .
راجع : ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 15 ص 360 .

62) الجميم : يقال ارض جميم اى ملساء .

63) الوان مختلفة من افراد قبيلة غمارة

وأمة صالح وهود ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود (64). الا أنه قور (65) قد تهدم ، ودار الندوة لام ملدم (66) ، ومنتزى لهائج المرار وثائر الدم . جثم الهواء الخبيث فى بطيحته وربض ، وانبسط وما انقبض ، وجهز ليله عسكر البعوض الهاجم ، دربة بمص المحاجم . وأما وحله فلا يعبر ولا يسبر ، وان اسهبت العبارة فالامر أكبر .

5 ـ « أصيـــــلا » (67)

قلـــت : فـــأصيـــــلا ؟

قال : كثيرة المرافق ، رافعة فى الخصب اللواء الخافق ، (120 : ب) العصير الاثير ، والحوت الكثير ، والادام الذى يرمى به من حكم عليه بالتعزيز (68) ، والسفن المترددة فيها الملف (69) والابازير . الا أن حصنها من المنعة برى ، وساكنها بربرى ، وجارها ـ من غمارة ـ جـــــرى .

---

64) اقتباسا من قوله تعالى : « ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الاخرة ، ذلك يـــوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود » سورة هود ، آية : 103 .

65) قـــور : بئر .

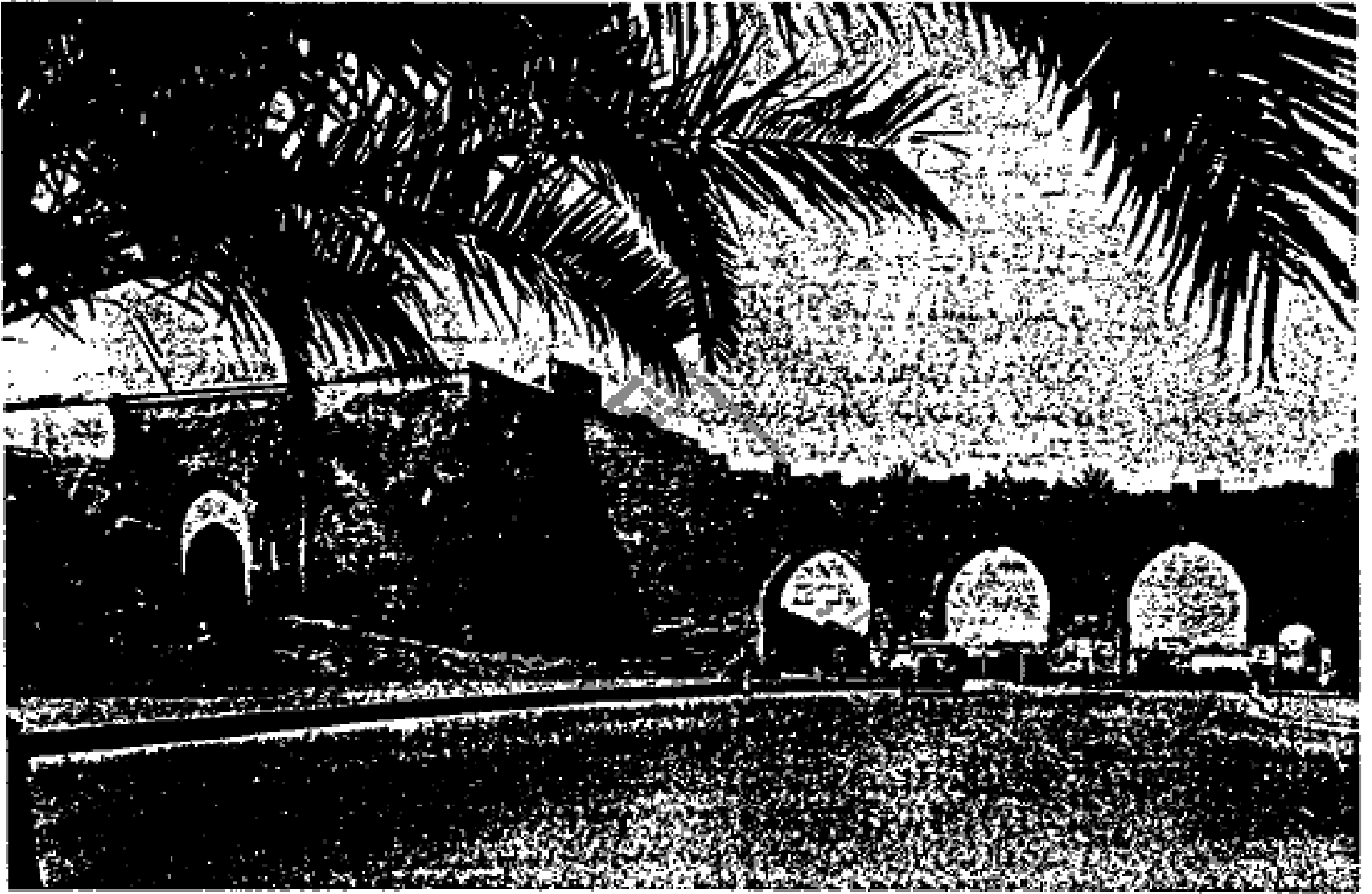
66) ام ملدم : كنية الحمـــى .

67) اصيلا : هى « Arcila » مدينة صغيرة على ساحل المحيط الاطلنطى ، ينسب اليها الاديب المحدث أبو محمد عبد الله بن ابراهيم بن محمد الاصيلـــى ، تراس الكتابة بقرطبة على عهد المستنصر .
راجع : ياقوت الحموى « معجم البلدان » ج 15 ص 212 .

68) كناية عن وفرة الزاد بالبلد .

69) الملف : لفظ شامل للغطاء والكساء .

ســـــلا



الاسوار القديمة الاثرية
(مدخـــل المدينـــة الشمالي)

6 ـ « ســـــلا » (70)

قلــت : فمدينــة ســـــلا ؟

قال العقيلة المفضلة ، والبطيحة المخضلة ، والقاعدة المؤصلة ، والسدرة المفصلة . ذات الوسامة والنضارة ، والجامعة بين البداوة والحضارة . معدن القطن والكتان ، والمدرسة والمارستان ، والزاوية كأنها البستان ، والوادي المتعدد الاجفان ، والقطر الآمن عند الرجفان ، والعصير العظيم الشأن ، والاسوق الممتازة حتى برقيق الحبشان . اكتنفها المسرح ، والخصب الذي لا يبرح ، والبحر الذي يأسو ويجرح ، وشقها الوادي يتمم محاسنها ويشرح .

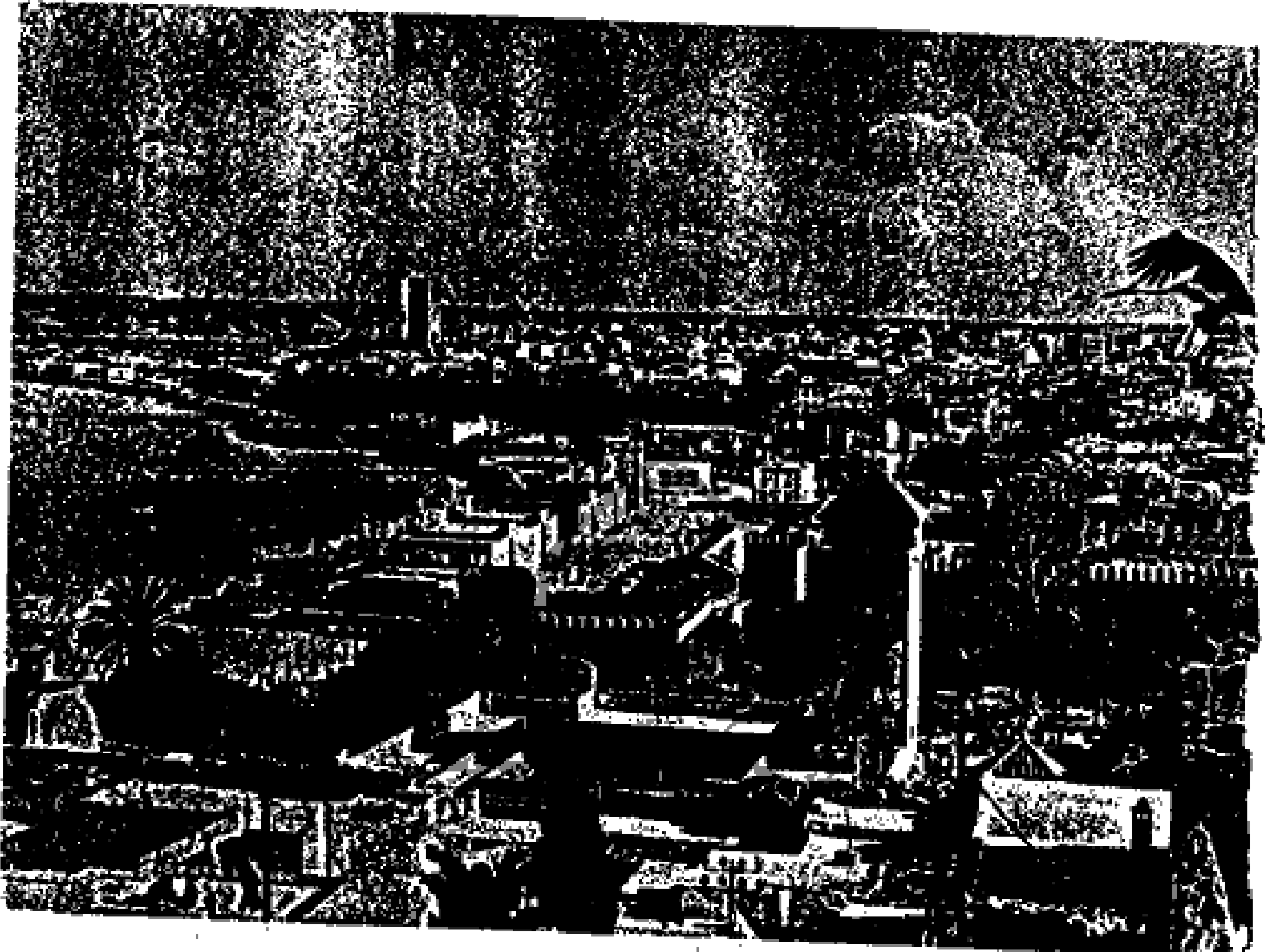
وقابلها **الرباط** (71) ، الذي ظهر به ـ من المنصور ـ الاغتباط ، حيث القصبة والساباط (72) ، ووقع منه بنظرة الاعتباط ، فاتسع الخرق

(70) هي Salé مدينة موازية لوادي ابي الرقراق الذي يفصلها عن مدينة الرباط العاصمة ، يعتقد بأنها تأسست في القرن الحادي عشر الميلادي ، ويـرى بعض المؤرخين انها مدينة رومانية قديمة ، نالت عناية بني مرين فسوروها ، وانشأوا بها كثيرا من المرافق العامة ، وتعتبر عمارتها نموذجا للفن المغربي الرائع في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ولسلا شهرة صناعية تجاريـة في الجلد والاواني النحاسية والحديدية ونسج الزرابي والطـرز وصناعـة الحصر ، وهي المدينة التي بقي فيها ابن الخطيب منفيا لمدة ثلاث سنـوات تقريبا (760 ـ 763 هـ / 1358 ـ 1361 م) حيث الف بها كتابه هذا ضمن ضمن كتب اخرى ، حينما جاء الي المغرب مع سلطان غرناطـة المخلـوع « الغني بالله محمد الخامس ابن الاحمر » .
راجع : المعجم للحموي ج 10 ص 231 .

(71) الرباط : « Rabat » هي عاصمة المغرب الادارية، وقد أسسها الخليفة المنصور ابو يوسف بن عبد المؤمن ، (554 هـ 595 هـ) = (1159 ـ 1198 م) اشهر ملوك الموحدين ، وسماها « رباط الفتح » ، وهي مدينة الابواب المظيمة ، اقامها الموحدون ، فقد كانت رباطهم العسكري ، كما ان بها صومعة حسان الشامخة البتراء ، تشرف على المدينة وعلى بقايا اطلال المسجد ، وهـذه الصومعة من طراز الكتبية بمراكش والخيرالدا باشبيلية .
راجع : « السلاوي » في الاستقصا ج 1 ص 16 ـ 181 .

(72) الساباط : سقيفة بين دارين تحتها طريق .

الربـــــاط



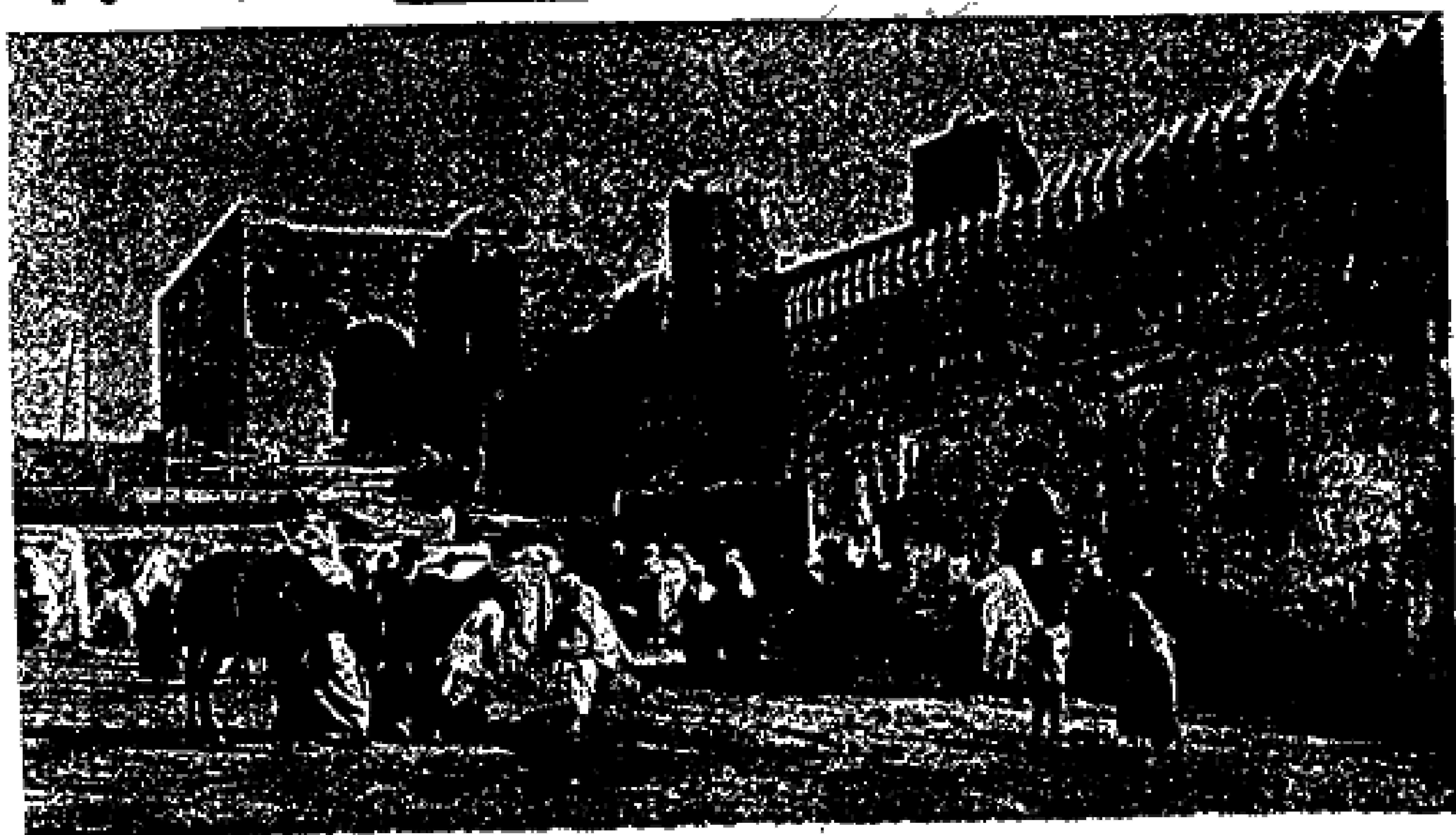
المدينة كما تبدو من وادى ابى الرقراق
وحيث تطـل عليه قصبــة الاوداية

مسجد حسان

« الصومعة وبعض الاعمدة »
— الرباط —



قصبة الاوداية



وعظم الاشتطاط ، وبعد الكمال يكون الانحطاط (73) . الى **شامة (74)** مرعى الذمم ، ونتيجة (121 : أ) الهم ، (**ومشمخ الانوف ذوات الشمم**) (75) وعنوان بر الديم ، حيث الحسنات المكتتبة ، والاوقاف المرتبة ، والقباب كالازهار ، مجودة بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ، وطلل حسان المثل فى الاشتهار .

وهى — على الجملة من غيرها — أوفق ، ومغارمها — لاحترام الملوك الكرام — أرفق ، ومقبرتها المنضدة عجب فى الانتظام ، معدودة فى المدافن العظام ، وتتاتى بها — للعبادة — الخلوة ، وتوجد عندها — للهموم — السلوة ، كما قال ابن الخطيب :

وصلت حثيث السير فيمن فلا الفلا   فلا خاطرى لما ناى وانجلى انجلى
ولا نسخت — كربى بقلبى — سلوة   فلما سرى فيه نسيم سلا سلا

وكفى بالشابل رزقا طريا ، وسمكا بالتفضيل حريا ، يبرز عدد قطر الديم ، ويباع ببخس القيم ، ويعم حتى المجاشر (76) النائية والخيم الا أن ماءها لا يروى به بارد (77) ، لا كريم ولا بارد ، وأليفها شارد ، والخزين بها فاسد ، وبعوضها مستاسد ، راضع غير مفطوم ، وأسم للخد والخرطوم ، بذيالك الخرطوم ، خالع للعذار غير مخطوم ، تصغى

73) يرمى بهذا الى ما روى عن المنصور مؤسس الرباط عند ما توفى ، من أنه قال: ندمت على ثلاثة اشياء : بناء مدينة الرباط ، واسكان عرب بنى هلال فى المغرب ، واطلاق اسرى النصارى ، وهم الذين كان قد أسرهم فى موقعة « الارك » الشهيرة (ربيع الاول 592 هـ = 1195 م) ، وقد تحققت نبوءة المنصور فى العاقبة السيئة لهذه الامور الثلاثة ، فقد اتخذ الفرنسيون مدينة الرباط قاعدة بعد احتلالهم المغرب فيما بعد ، واثار عرب بنى هلال القلاقل والفتن فى المغرب ، واخذ النصارى بثارهم فى موقعة « العقاب » حيث هزموا المسلمين فيها شر هزيمة (15 صفر 609 هـ = 18 يوليو 1212 م).

74) فى نسختى (ط ، س) « شالة » وهو الاوفق .

75) زيادة فى (س ، ط) .

76) المجاشر : يعنى القرى والضياع ، ويقال لها فى المغرب الآن « المداشر » .

77) فى نسخة (س) « وارد » وهو أصوب .

ـ لرنته ـ الآذان ، ويفتك بوكز السنان ، كالقوس تصمى (121 : ب) الرمايا وهى مرنان (78) ، وديارها ـ فى الماء ـ دار عثمان (79) ، وطواحنها غالية الاثمان ، وكثبانها العفر تلوث بيض الثياب ، طى العيا ب، وعابر واديها ـ الى مأرب أكيد ـ فى تنكيد . الى غلبة الامساك، وخوض النساك (80) ، وكثرة أرباب الخطط ، (81) والاغياء فى الشطط ، تذود ـ عن جناته للاسد ـ جنان ، (82) فلا يلتذ ـ بقطف المنقود منهـا ـ بنان ، وفى أهلها خفة ، وميزانها لا تعتدل منه كفة .

7 ـ « أنفـا » (83)

قلت : فأنفـــا ؟

قال : جون (84) الحط والاقلاع ، ومجلب السلاع ، تهدى اليهـا السفن شارعة ، وتبتدرها مسارعة . تصارف برها الذهبى بالذهـب الابريز ، وتراوح برها وتفاديه بالتبريز .

---

78) قوس مرنان : صلبة مرنة .
79) يرمى بذلك الى انه لا ماء فيها ، اذ دار سيدنا عثمان بن عفان الخليفة لم يكن بها ماء اثناء حصـــاره .
80) يغلب على اهل البلد البخل ، وعلى نساكها خوضهم فى اعراض الناس .
81) الخطط : اربـــاب الوظائـــف .
82) جنان : حراس كالجن فى الذب عن البساتين .
83) انفا : الدار البيضـاء Casablanca العاصمة التجارية للمغرب الاقصى علـى ساحل المحيط الاطلنطى ، تشتهر بالانتاج الزراعى والصناعى . وقد وقـع عليها اعتداء من الاساطيل البرتغالية عام 1465 م حيث دمرتها تماما ، بسبب منافستها التجارية لثغر قادس ، ولكن اعيد بناؤها عام 1515 م ، وقد قست عليها الطبيعة من البحر فاجتاحت معظمها الامواج عام 1755 م ، ولم تعـد مدينة تتطور وتزدهر الا فى عام 1907 م . وهى اليوم كبرى مدن المغـرب مساحة ، واعظمها تعدادا للسكان ، ذات مرسى ضخم تبلغ ارصفته مساحة 6 كيلومترات . والسكان حاليا يتجاوزون المليون والنصف نسمة تقريبا .
84) الجون : احد انواع القطا ، اسود البطن والجناح ، والجونة : الشمس عنـد مغيبها والسياق يحتمل احد المعنيين .

الـــدار الـــبـــيـــضـــاء



« منظـــر حديـــث للمدينـــة »

يكثـر الطيـر حيث ينتشر الحـ ـب وتغشـى منـازل الكرمـاء

وخارجها يفضل كل خارج ، وقانصها يجمع بين طائر ودارج ، وفواكهها طيبة ، وأمطار عصيرها صيبة ، وكيلها وافر ، وسعرها — عن وجه الرخاء — سافر ، وميرتها لا ينقطع لها خف ولا حافر . لكن ماءها وهواءها عديما الصحة ، والعرب عليها في الفتن ملحة ، والامراض بهـا تعيث وتعبث ، والخزين بها لا يلبث .

8 — « أزمـــور » (85)

قلـت : فـأزمـــور ؟

قال : جار واد وريف (86) ، وعروس ربيع وخريف ، وذو وضع شريف . أطلت على واديه المنازه (122 : أ) والمراقب ، كأنها النجوم الثواقب ، وجلت من خصبه المناقب (87) ، وضمن المرافق نهره المجاور وبحره المصاقب (88) . بلد يخزن الاقوات ، ويملأ اللهوات . باطنه الخير ، وادامه اللحم والطير ، وساكنه رفيه ، ولباسه يتحد فيه ، ومسكنه نبيه ، وحوته الشابل ليس له شبيه . لكن أهله — أنما حرثهم وحصادهم — اقتصادهم ، فلا يعرفون ارضاخا (89) ، ولا وردا نضاخا ،

85) أزمور : هـي « Azammur »مدينة ساحلية على المحيط الاطلنطي بالمغـرب. موقعها على الجانب الايسر لمصب وادى أم الربيع ، وعلى مسافة 80 كم من الدار البيضاء جنوبا ، وهي مدينة صغيرة مشيدة بجانب رأس صخـرى عال ، كانت عاصمة اقليم دكالة القديمة .
راجع : J. Leon Africano, Op. Cit. P. 83
والتعريف بابن خلدون ص 44 حاشية 4 .

86) وريف : ممتد واسع .

87) المناقب : الطريق في الجبل .

88) المصاقب : المجاور .

89) ارضاخا : تساهـلا .

يترامون على حبة الخردل (90) بالجندل (91) ، ويتضاربون على الأثمان الزيـوف (92) بالسيوف . بربرى لسانهم ، كثير حسانهم ، قليـل احسانهم ، يكثر بينهم ــ بالعرض ــ (93) الافتخار ، ويعدم ــ ببلدهم ــ الماء والملح والفخـــار .

9 ــ « تيـــــط » (94)

قلــت : فتيـــــط ؟

قال : معدن تقصير ، وبلــد بين بحرى ماء وعصير ، وربـــاط للاولياء بـــه (ســـرور)(95) ، واغتباط ، ومسجدها تضيق عنه المدائن منارا عاليا ، وبقلادة الاحكام حاليا . الا أن خارجها لا يروق عين المقيم والمسافر ، ولا يشوق بحسن سافر ، ومؤمنه يشقى بصداع كافر ،

---

90) الخردل : نبات برى ينبت فى الحقول مع الزرع ، أو على حافة الطرق ، حبـه أسود وصغير جدا ، يستعمل فى التوابل ، وله فوائد طبية ، كما يستخرج منه الزيــت .

91) الجندل : الصخر العظيم .

92) الاثمان الزيوف : النقود الزائفة .

93) العرض : ضد الجوهر .

94) تيط : هى« Tit » تقع جنوبى مدينة الجديدة ، وهى ضمن اقليم دكالة ، علـى ساحل المحيط الاطلنطى .

95) زيادة فى (س ، ط) .

وحماه عدو كل خف وحافر ، فلولا ساكنه لم ينبس يوم فخر ، ولم ينم الا الي صخـر (96) .

10 ـ « آسفـــــي » (97)

قلت : فربـــاط آسفـــي ؟

قال : لطف خفي ، وجناب حفي ، ووعد وفي ، ودين ظاهره مالكي ، وباطنه حنفي . الدماثة والجمال ، والصبر (122 : ب) والاحتمال ، والزهد والمال ، والسذاجة والجمال (98) . قليلة الاحزان ، صابرة علـــى الاختزان ، وافية المكيال والميزان ، رافعة اللواء ، بصحة الهواء . بلد

---

96) كناية عن أنها بلدة شبه منتطعة عن سواها ، لوعورة الطرق اليها ، كما أسلف في وصفها ، وهو يوري بصخر المبكي عليه من أخته الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية ، عاش صخر هذا فيما بين القرنين السادس والسابـــع الميلادي ، وخرج في احدى الغزوات ، فقاتل حتى أصابه جرح فمات ، فحزنت عليه أخته أكثر من حزنها على أخيه معاوية ، الذى توفي قبله ، لما للاول من أياد كريمة عليها ، ولها ديوان خاص في رثاء صخر ، فمن قولها فيه ترثيه :

وان صخـرا لتأتـم الهـداة بـه ... كأنـه علـم علـى رأسه نـار
جلـد جميـل المحيـا كامـل ورع ... وللحروب غـداة الروع مسعار
حمـال الويـة ، هبـاط أوديـــة ... شهاد أنديـة ، للجيش جــرار

راجع : الموجز في الادب العربي وتاريخه ، نشر دار المعارف ج 1 ص 204 ،

97) رباط آسفي : هي « Safi » مدينة على ساحل المحيط الاطلنطي بالمغـــرب ، وهي أصلا مؤسسة برتغالية ، كادت تندثر عندما غادرها مؤسسوها ، ولم يبق من آثارهم فيها غير حصن عظيم ، وثكنة ، وقصر يسمي « دار البحر » ، وترتكز ثروة آسفي على صيد الاسماك، فهي من أهم مراسي الصيد للسردين في العالم ، ومن مرسى آسفي يصدر الفوسفات المستخرج من مناجـــم « كشكاط » ، وتبعد المدينة عن الدار البيضاء بمسافة 252 كم .

98) في نسخة اخرى « والجلال » وهو أنسب .

موصوف ، برفيع ثياب الصوف ، وبه تربة الشيخ أبى محمد صالح (99) . وهو خاتمة المراحل ، لمسورات ذلك الساحل . لكن ماءه قليل ، وعزيزه ــ لعادية من يواليه من الاعراب ــ ذليــل (100) .

11 ــ « مــراكـــش » (101)

قلت : فمدينـــة مـــراكـــش ؟

قال : فتتنفس الصعداء ، وأسمع البعداء ، وقال : درج الحلى ، وبرج النيــر الجلى ، وتربة الولى ، وحضرة الملك الاولى ، وصرح الناصر الولــى . ذات المقاصير (102) والقصور ، وغابــة الاسد الهصــور ،

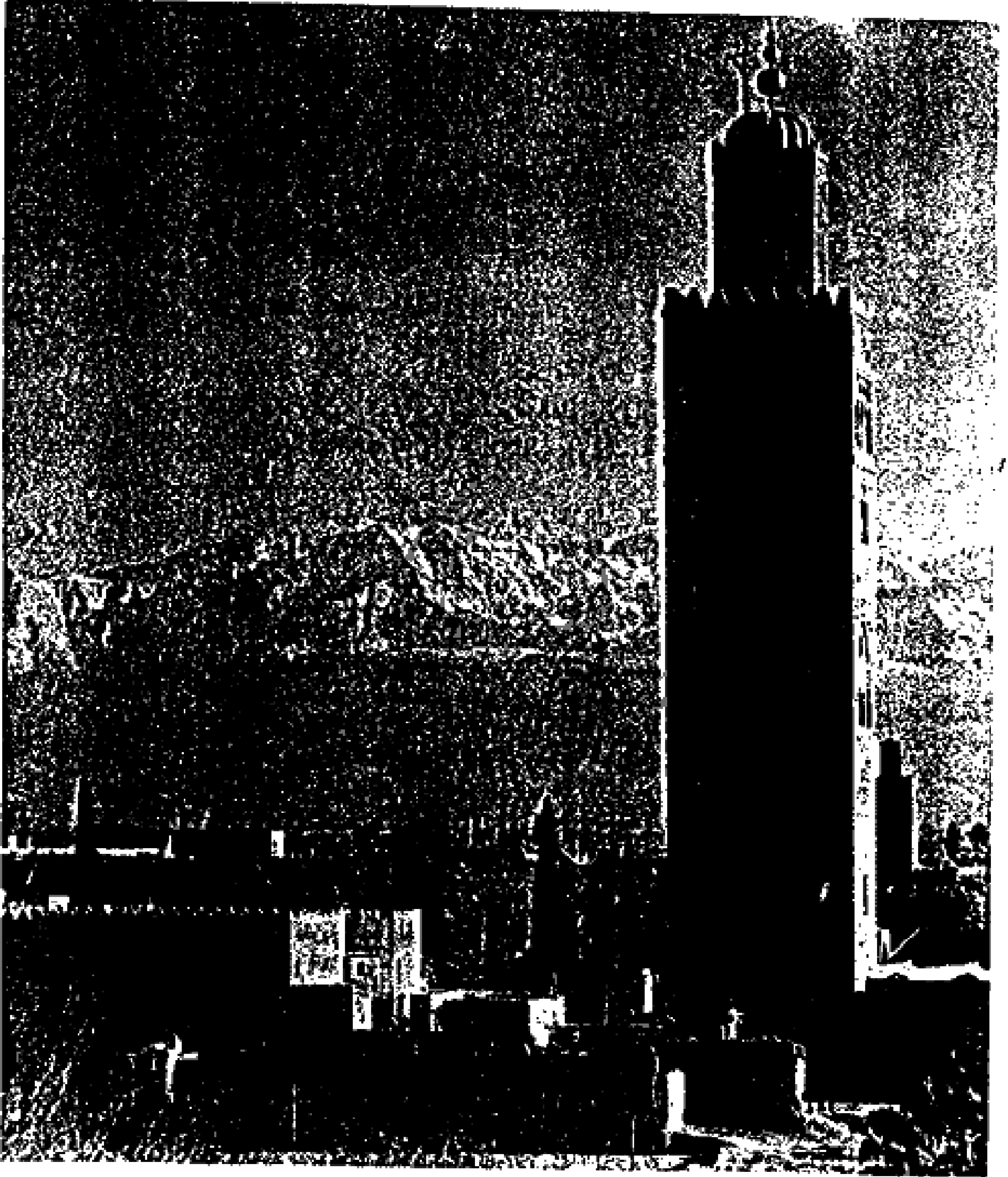
99) هو أحد رواد الطرق الصوفية ، عاش فى أوائل القرن السابع الهجرى ، كـان براس ــ بهذه البلاد ــ جمعية لتيسير الحج ، لحراسة القوافل الذاهبة الى الاراضى المقدســة .

100) كناية من كثرة السطو على الموسرين بالمدينة من قبل الاعراب المجاورين لهـــا .

101) هــى بالاسبانية « Marraquex » تبعد عن الرباط بمسافة 326 كم ، عاصمة الجنوب بالمغرب ، أسسها يوسف بن تاشفين أعظم ملوك المرابطين عــام 454 هـ = 1062 م ، كما بنى بها مسجده المعروف باسم « جامع يوسف » . استمرت عاصمة للموحدين كما كانت عاصمة للمرابطين ، ولكن بنى مريــن تحولوا عنها الى فاس ، ففقدت مراكش من يومها مركزها السياسى ، وقد شيد بها الموحدون جامع الكتبية بمنارته الشهيرة ، كما أن بها من آثـــار السعديين مقابرهم العظيمة . وتشتهر المدينة بصناعة الجلد والصباغــة والنحاس ، والمنسوجات الوطنية ، والزرابى . وخارجها مزارع الــزيتون ، وواحات النخيل الشاسعة ، تحوطها جبال الاطلس التى تكسوها الثلـــوج شتاء . وللعلويين بها جنان اكدال التى أنشأها عبد الرحمن بن هشام العلوى، وبها ضريح القاضى عياض ، وأبو العباس السبتى ، وأبو القاسم السهيلى، ومحمد بن سليمان الجزولى .
راجع : البغدادى فى « مراصد الاطلاع ، على أسماء الامكنة والبقاع » ج 3 ص 1251 . وكذا : J. Leon. Op. Cit. P. 67-68

102) المقاصير : ج مقصورة ، وهى الدار الواسعة المحصنة .

مراكش



صومعة مسجد الكتبية — واحدة من ثلاث ذات هندسة واحدة : الخيرالدا باشبيلية ، والكتبية بمراكش ، وحسان بالرباط .

وسدة(103) الناصر والمنصور . بعدت عن المركز دارتها ، وجرت ــ على قطب السياسة ــ ادارتها ، وسحرت ــ العيون ــ شارتها ، وتعبد الاباءة اشارتها ، وخاضت ــ البحر الخضم ــ نذارتها وبشارتها . اقتعدت البسيط المديد ، واستظهرت بتشييد الاسوار وأبراج الحديد . وبكى الجبل من خشيتها بعيون العيون ، فسالت المذانب كصفاح القيون ، وقيدت طرف الناظر المفتون ، أدواح الشجر بها وغابات الزيتون .

(123 : أ) فما شئت من انفساح السكك ، وسبوع الشكك(104)، وانحلال التكك ، وامتداد الباع فى ميدان الانطباع ، وتجديد فنون المجون بالمد والاشباع . زينتها الزمن يعصر ، وخيرها يمد ولا يقصر ، وفواكهها (لا تحصى) ولا تحصر . فاذا تناصف الحر والبرد ، وتبسم الزهر وخجل الورد ، وكسا ــ غدرانها الحائرة ــ الحلق السرد (105) ، قلت : أنجز ــ للمتقين من الجنة ــ الوعد ، وساعد السعد ، وما قلت الا بالذى علمت سعد (106) . ومنارها العلم فى الفلاة، ومنزلته ــ فى المآذن ــ منزلة والى الولاة . الا أن هواءها محكم فى الجباه والجنوب (يحمى عليها بكير الجنوب)(107) وحمياها كلفة بالجسوم ، طالبة ديونها بالرسوم ، وعقاربها كثيرة الدبيب ، منغصة مضاجعة الحبيب ، وخرابها موحش هائل ، وبعد الاقطار ــ عن كثير من الاوطار ــ بها ــ حائل ، وعدوها ينتهب ــ فى الفتن ــ أقواتها ، وجرذان

---

103) سدة : السدة : المنصب الرفيع .

104) الشكك : ج شكة ، وهى اللباس يقى لابسه ضربة السلاح .

105) السرد : المنتظم المتتابع .

106) مثل عربى يضرب فى اسناد الاخبار الى مصادرها ، وهو الشطر الاخير من قول الشاعر :

ويعذلنى أبناء سعد فيهم ... وما قلت الا بالذى علمت سعد

107) زيادة فى (س) .

المقابر تأكل أمواتها . وكانت أولى المنازل بالاغياء ، لو أنها — اليوم — معدودة فى الاحيـــاء (108) .

12 — « أغمــــات » (109)

قلت : فاغمـــــات ؟

قال : بلدة — لحسنها — الاشتهار ، وجنة تجرى من تحتها الانهار ، وشمامة تتضوع منها الازهار ، متعددة البساتين ، (123 : ب) طاميــة بحار الزياتين ، كثيرة الفواكه والعنب والتين . خارجها فسيح ، والمذانب فيه تسيح ، وهواؤها صحيح ، وقبولها للغريب شحيح ، وماؤها نمير ، وماء وردها ممد للبلاد وممير . الا أن أهلها يوصفون بنــوك (110) . وذهول ، بين شبان وكهول ، وخرابها يهول ، وعدوها تضيق — لكثرته —

108) يرمى بهذا الى ان مراكش قد فقدت مركزها السياسى فى العصر الذى يعيشه ابن الخطيب ، وهو عصر المرينيين ، الذين اتخذوا فاس عاصمة لهـــم ، فتحولوا بذلك عن مراكش ، التى ظلت العاصمة فى عهد كل من المرابطــين والموحدين . هذا ، والاغياء هو : بلوغ الغاية من الشأن .

109) اغمــات« Agmat »موقعها قرب مدينة مراكش ، وفى هذه الفترة التى يؤرخ لها ابن الخطيب كانت اغمات عبارة عن مدينتين مواجهتين لبعضهما وهما : اغمات ميلان ، واغمات وريكة ، وكان بينهما خصام مستحكم ، فرق بينهما حتى فى دور العبادة ، وقد انتهى هذا الخلاف فيما بعد ، واندثرت أغمـــــات وريكة وبقيت الاخرى ، وذلك فى القرن السادس عشر الميلادى ، وتشتهــر المدينة بوفرة مياهها وكثرة بساتينها ، وبها قبر المعتمد بن عباد ملك اشبيلية زمن الطوائف ، الذى قبض عليه ملك المغرب يوسف بن تاشفين بعد تغلبه عليه عام 480 هـ (1087 م) .
راجع : Discripcion de Africa P. 73. J. Leon Affricano,
وكذا : مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، لصفى الدين البغدادى ج 1 ص 98 .

110) نوك : حمــق .

السهول ، وأموالها ــ لعدم المنعة ــ فى غير ضمان ، ونفوسها لا تعرف طعـم أمـــان .

13 ــ « مكـنـاســة » (111)

قلت : فمدينــة مكناســة ؟

قال : مدينة أصيلة ، وشمب المحاسن وفصيلة ، فضلها الله ورعاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها (112) ، فجانبها مريع (113) وخيرهـا سريع ، ووضعها له ــ فى فقه الفضائل ــ تفريع ، عدل فيها الزمان ، وانسدل الامان ، وفاقت ــ الفواكه ــ فواكهها ، ولا سيما الرمان ، وحفظ ــ أقواتها ــ الاختــزان ، ولطفت فيها الاوانى والكيــزان ، واعتــدل ــ للجسوم ــ الوزان . ودنا ــ من الحضرة (114) ــ جوارها ، فكثر قصادها من الفضلاء وزوارها ، وبها المدارس والفقهاء ، ولقصبتها الابهة

---

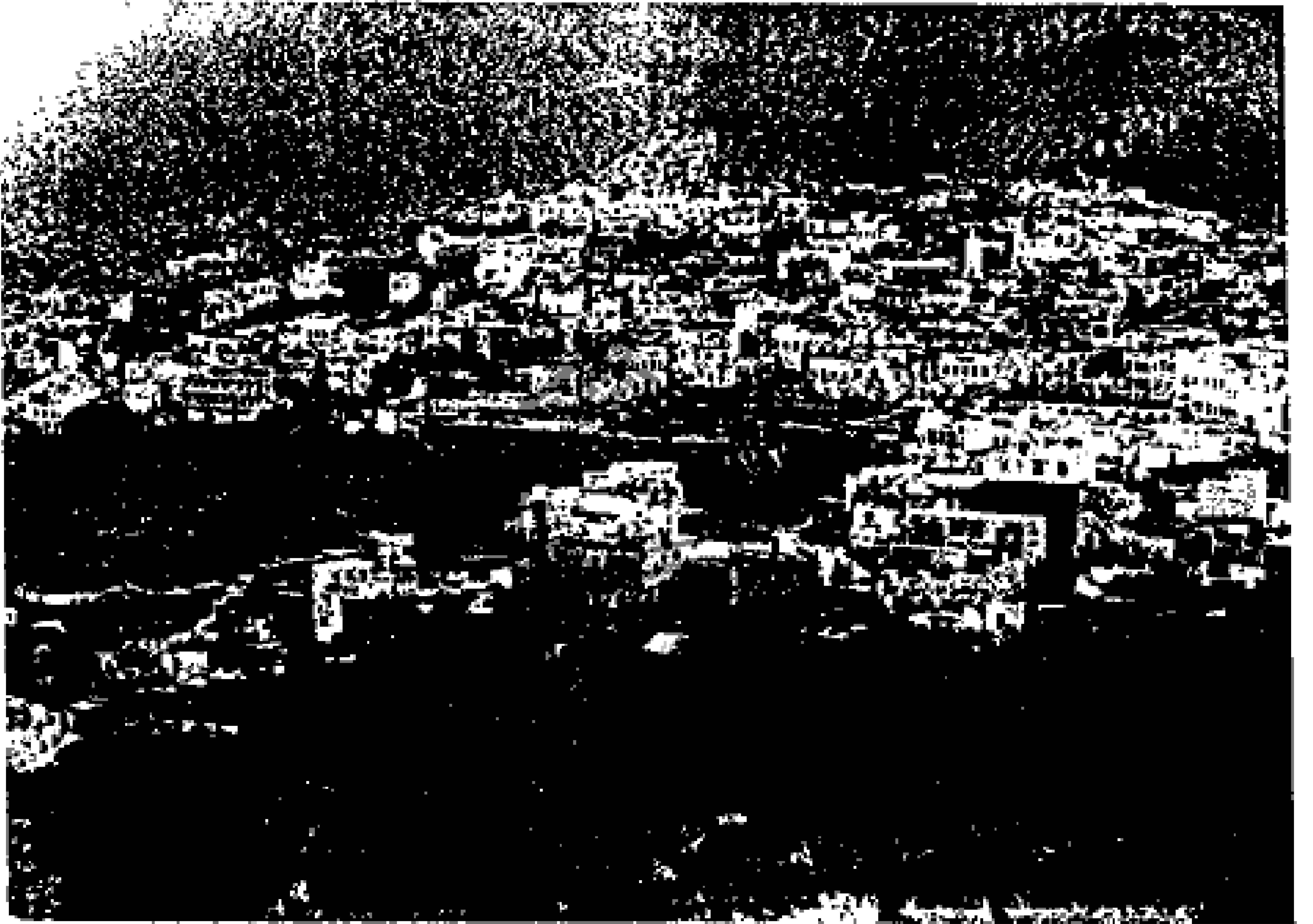
111) مكناس او مكناسة : هى بالاسبانية Mequinez اتخذها المولى اسماعيـــل عاصمة له (1673 ــ 1726 م) وطبعها بطابع عبقريته . تقع جنوب غرب فاس على مسافة 60 كم ، وقد سميت باسم قبيلة مكناسة البربرية التـــى اختطت المدينة اولا ، ويحيط بمكناس نطاق مثلث من أسوار وحصون يبلغ طولها 40 كم . من آثارها العتيقة باب منصور ، والاصطبلات القديمــــة ، وبركة البساتين التى تبلغ مساحتها 4 هكتارات مربعة ، وهى على غــرار بركة مراكش . وتعتبر مكناس اليوم خامس مدن المغرب سكانا ، اذ تتقدمها الدار البيضاء والرباط ومراكش وفاس . ويبلغ تعداد السكان حاليا حوالــى 230 الف نسمة ، وارتفاعها عن سطح البحر بنحو 522 مترا .
راجع : التعريف بابن خلدون ، ص 221 حاشية 3 ، و « الروض الهتون ، فى أخبار مكناسة الزيتون » لابن غازى العثمانى المكناسى (ط. القصر الملكى بالرباط 1966 م) بتحقيق عبد الوهاب بن منصور . وكذا مجلة « الثقافـــة المغربية » ج 7 عدد 7 (1972) تحت عنوان (التخطيط المعمارى لمدينـــة مكناس) للاستاذ محمد المنونى ، ص 21 ــ 56 .

112) اشارة الى قوله تعالى : « اخرج منها ماءها ومرعاها » النازعات : 31 .

113) مريــع : خصب .

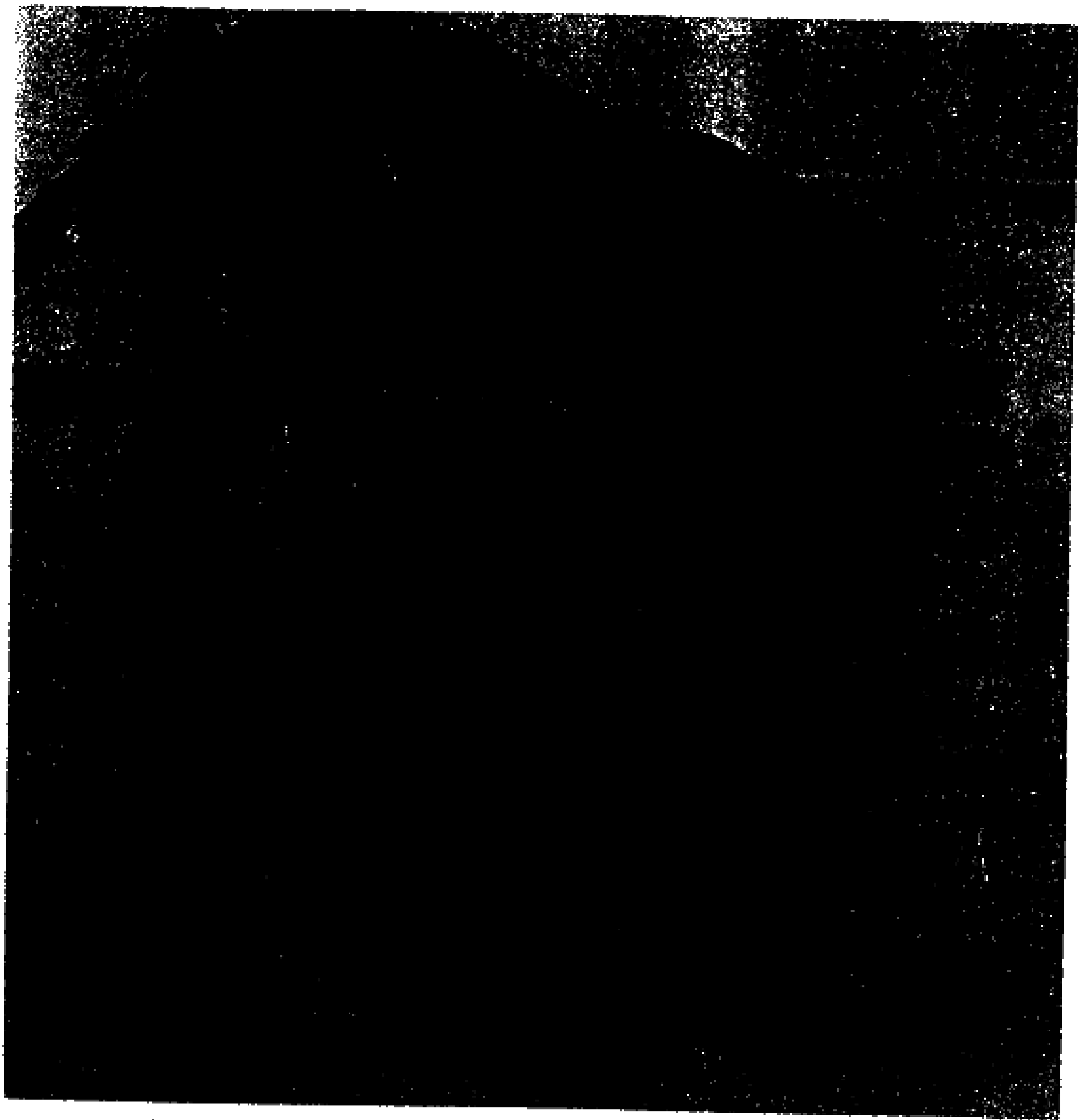
114) يقصد بالحضرة المرينية : فاس العاصمة .

مكناس



منظر عام امدينة مكناس

مكناس



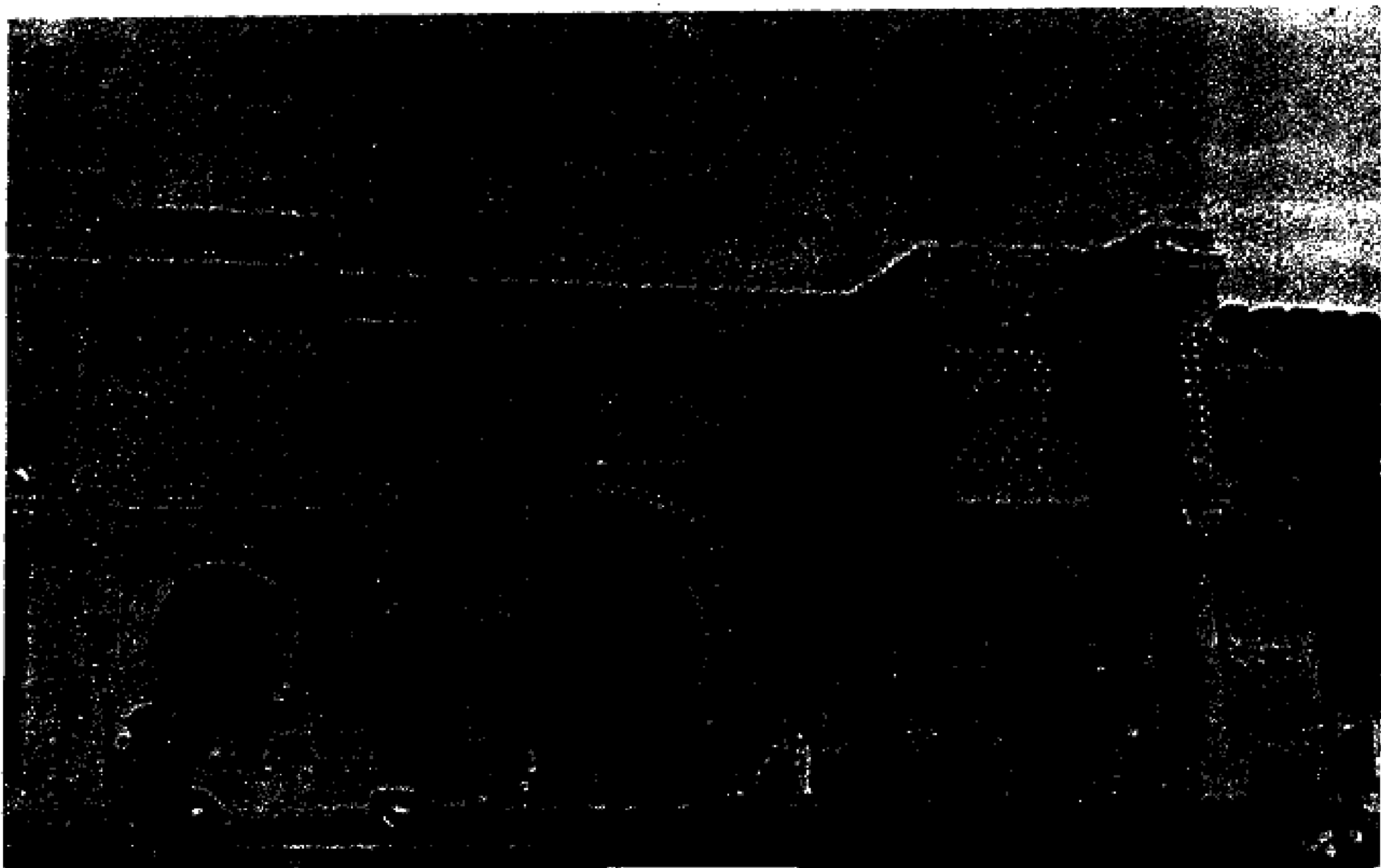
مدخل ضريح مولاى أسماعيل

مكنـــــاس



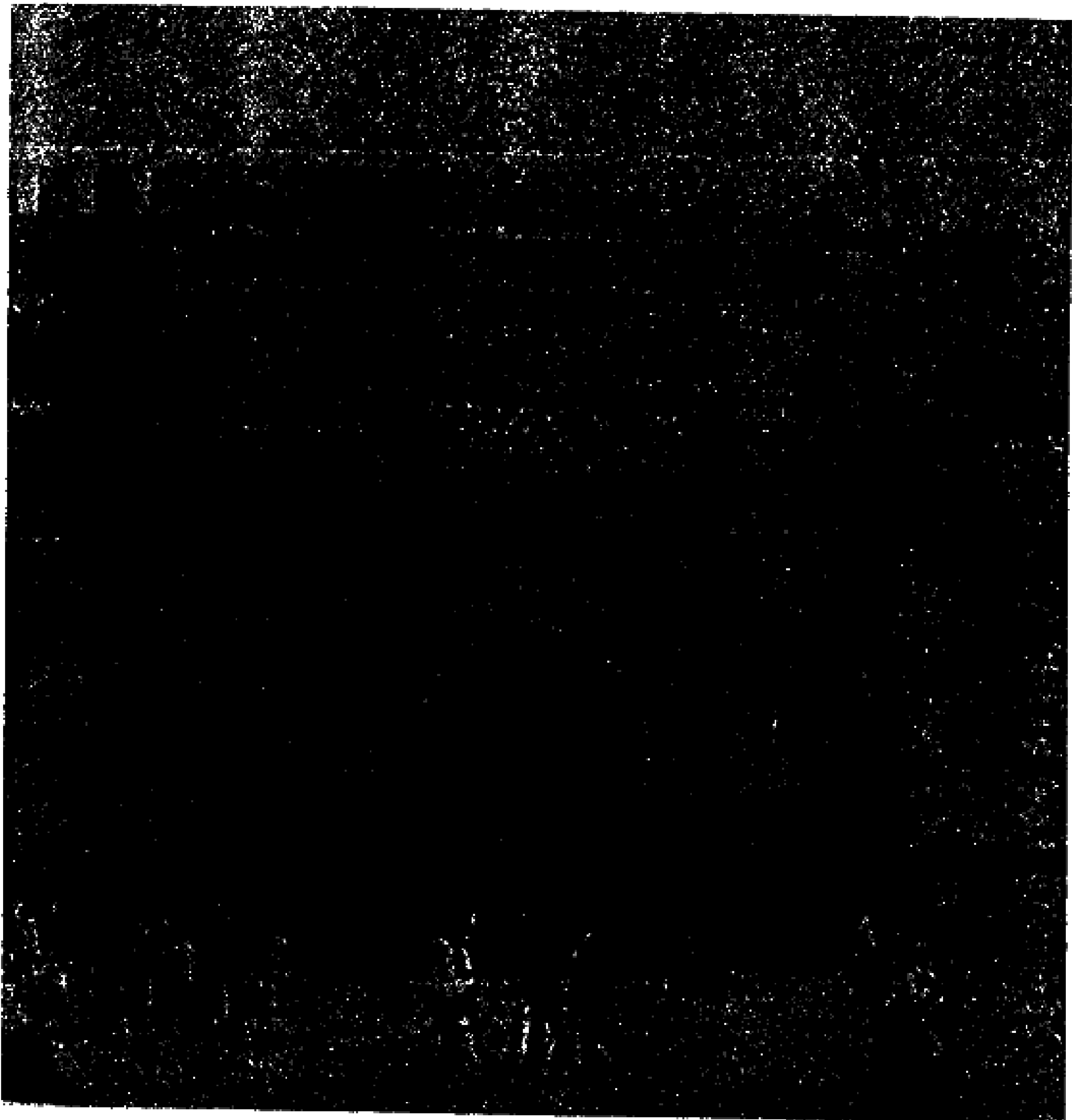
بـــــاب الــريـــــح
أحد المداخل الرئيسية لمدينة مكناس

مكناس



باب منصور
المدخل الرئيسي للمنشئات الملكية بالعاصمة الاسماعيلية

مـكـنـــاس



بـــاب مسجـــد الانـــوار

فــــــاس



« . . حيث البنى التي نظر اليها عطارد فاستجفاها ، وخاف عليها الوجود ان يصيبها بعينه الحسود ، فسترها بالفور واخفاها . . . »

والبهاء ، والمقاصير والابهاء (115) . الا أن طينها ضحضاح (116) ، لذى الظرف فيه افتضاح ، وأزقتها لا يفارقها القذر ، وأسواقها يكثر بها الهـــذر ، (وعقاربها لا تبقـــى ولا تذر) (117) ، ومقبرتها لا يحتج (124 : أ) عن اهمالها ولا يعتـــذر .

14 — « فـــــــاس » (118)

قلت : فمدينـــة فــــاس ؟

فقـــــال :

رعـــى اللـــه قطرا ينبت الغنى وآفاقـــه ظل على الديـــن ممدود

نعم العرين ، لاسود بني مرين ، ودار العبادة التـــى يشهد بهـــا

---

115) الابهاء ، ج بهو ، وهو : قاعة الاستقبال .
116) يعنى انتشار الاوحال فى طرقات المدينة .
117) زيادة فى نسختي س ، ط .
118) فاس : هى بالاسبانية Fez اسسها المولى ادريس الثانى عام 808 م ، فهى أقدم عواصم المغرب التاريخية ، وتبعد من « الرباط » العاصمـــــة الادارية حاليا بنحو مائتي كم ، وقد عاصر مؤسسها الامير الاموى الحكم بن هشام بالاندلس ، وهو الذى كان قد نفى وشرد معظم سكان ضاحية الربض فى قرطبة ، اثر الموقعة الشهيرة التى تغلب فيها على هؤلاء الثائرين (202 هـ = 817 م) فلجأ الربضيون الى فاس ، وفيها أحيوا الصناعات المختلفة ، وطبعوا المدينة بطابع الفن الاندلسى ، ولاسيما فى المعمار ، حتى سميـــت فاس لذلك « مدينة الاندلسيين » . أما « مدينة القرويين » فهى الضاحية التى عمرها سكان المغرب الادنى ، بعد ان وفدوا من القيروان ، وحيث بنى بهـــا « جامع القرويين » ، الذى اسسته السيدة فاطمة الفهرية الادريسية ، وهو الآن يمثل اقدم جامعات العالم ، ويؤمها الطلاب من كل حدب وصوب .
وتجدر الاشارة الى أن مركز فاس السياسى قد تضاءل فى عصر المرابطين ثم الموحدين ، الذين اتخذوا من مراكش عاصمة ، حتى تغلب بنو مريـــــن فأعادوا الى فاس سابق مجدها ، باتخاذهم اياها العاصمة . اما « فـــاس الجديد » فهى التى بناها الامير ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى عام



ناعـورة فى جنـان السبـيـل
(فـــاس)

مطرح الجنة ومسجد الصابرين . (119) أم القرى ، ومأم السرى ، وموقد نار الوغى ونار القرى . ومقر العز الذى لا يهضم ، وكرسى الخلافة الاعظم . والجرية (120) التى شقها ثعبان الوادى فما ارتاعت والابية التى ما أذعنت اذعانها للايالة المرينية ولا أطاعت .

أى كلف وكلف ! ومتفق ومختلف ! ومحاباة وزلف ! وقضيم وعلف ! وخلف عن سلف ! انما الدنيا أبو دلف (121) ! .

674 هـ = 1275 م ، وقد اطلقت عليها عدة أسماء ، مثل المدينة البيضاء ، والبلد الجديد ، والمدينة الجديدة . وتتصل فاس القديمة بفاس الجديدة عبر حدائق أبى الجنود الغناء ، وتعتبر أبواب فاس غريبة الشكل ، كباب الدكاكين ، وباب الساكمة ، وباب السمارين .

هذا وتعتبر المدينة فى مقدمة مدن المغرب ثقافيا وصناعيا وتجاريا ، وتزدهر فيها السياحة ، نظرا لما تشتمل عليه — غير ما ذكرنا — من آثار هامة ، كالمدرسة البوعنانية ذات الساعة الشمسية الغريبة ، ومدرسة العطارين ، ومدرسة المصباحية ، ومسجد الاندلس ، وزاوية المولى ادريس الثانى مؤسس المدينة ، حيث يوجد بها الضريح . كما توجد قبور المرينيين على مرتفع يمكن منه رؤية المدينة فى السفح ، وقد احاطتها الاسوار الاثرية ، فبدت فتنة الناظرين ..

راجع : ابن خلدون فى « العبر » ج 7 ص 194 — 195 ، والسلاوى فى « الاستقصا » ج 2 ص 22 ، ثم :

ود. عبد الهادى التازى فى : « جامع القرويين » .

وانظر : Descripcion de Africa, P.P. 122-148 (juin Léon Africano).

(119) مسجد الصابرين : أحد المعالم الاسلامية بفاس .

انظر: مجلة البحث العلمي — السنة الثانية عشرة — العدد 14 الصادر بالمغرب.

(120) الجرية : حوصلة الطائر .

(121) هذا التعبير اقتباسا من قول الشاعر المكوك على بن جبلة :

انما الدنيا أبو دلف — بين مغزاه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف — ولت الدنيا على اثره

وأبو دلف هذا هو القاسم بن عيسى بن ادريس العجلى ، أمير الكرخ ، وسيد قومه ، وأحد الاجواد من الشعراء ، كما كان من رجال الرشيد ، ثم ابنه المأمون وقد عقد له الكاتب ابن طيفور فصلا خاصا فى كتابه « بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية » عند حديثه عن الخليفة المأمون ، توفى أبو دلف عام 226 هـ . والشهرة بعدئذ واضحة للرجل فى الغنى العريض ، والكرم النادر ...

سألت عن العالم الثانى (122) ، ومحراب السبع المثانى ، ومعنى المغانى ، ومرقص النادب والغانى ، وارم المبانى(123) ، ومصلى القاصى والدانى . هى الحشر الاول ، والقطب الذى عليه المعول ، والكتاب الذى لا يتاول . بلد المدارك والمدارس ، والمشايخ والفهارس ، وديوان الراجل والفارس . والباب الجامع من موطأ المرافق ، ولواء الملك الخافق ، وتنور الماء الدافق ، ومحشر المؤمن والمنافق ، وسوق الكاسد والنافق ، حيث البنى التى نظر اليها عطارد (124) فاستجفاها (125) وخاف عليها الوجود أن يصيبها بعينه (124 : ب) الحسود فسترها بالغور وأخفاها (126) . والاسواق التى — ثمرات كل شىء اليها — قد جبيت ، والموارد التى اختصت بالخضر وحبيت ، والمنازه المخطوبة ، وصفاح الخليج المشطوبة ، والغدر التى منها أبو طوبة (127) .

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه ريش جناحه الطاووس
فكأنما الانهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس

اجتمع بها ما أولده سام وحام ، وعظم الالتئام والالتحام ، فلا يعدم فى مسالكها زحام . فأحجارها طاحنة ، ومخابزها شاحنة ، وألسنتها — باللغات المختلفة — لاحنة ، ومكاتبها مائجة ، ورحابها متمائجة ، وأوقافها جارية ، والهمم فيها — الى الحسنات وأضدادها — متبارية .

---

122) ويقصد بالعالم الاول الاندلس .
123) ارم المبانى : علم المبانى .
124) عطارد : نجم سيار قريب من الشمس .
125) استجفاها : طلب منها البعد ، والتعبير كلية كناية عن علو شأن المدينة ومنزلتها السامية .
126) يعنى أن موقع المدينة فى السفح المنخفض ، وهو حسن تعليل رائع ، لوقاية المدينة من عين الحسود بموقعها هكذا .
127) أبو طوبه : الريح الطيبة .

بلد نكاح وأكل ، وضرب وركل ، وامتياز من النساء بحسن زى وشكل ، ينتبه بها الباه ، وتتل الجباه ، وتوجد للازواج الاشباه . الى وفور النشب (128) ، وكثرة الخشب ووجود الرقيق ، وطيب الدقيق ، وامكان الادام ، وتعدد الخدام ، وعمران المساجد والجوامع ، وادامة ذكر الله فى المآذن والصوامـــع .

وأما مدينة الملك (129) ، فبيضاء كالصباح ، أفق للغرر الصباح ، يحتقر — لايوانها — ايوان كسرى ، وترجع العين حسرى ، ومقاعـــد الحرس ، وملاعب (125 : أ) الليث المفترس (130) ، ومنابت الدوح المغترس ، ومدرس من درس أو درس ، ومجالس الحكم الفصل ، وسقائف الترس والنصل ، وأهداف الناشبة أولـــى الخصل (131) . وأواوين الكتاب ، وخزائن محمولات الاقتاب ، وكراسى الحجاب ، وعنصر الامر العجاب .

الى الناعورة التي مثلت من الفلك الدوار مثالا ، وأوحى المــاء الى كل سماء منها أمرها فابدت امتثالا ، ومجت العذب البرود سلسالا ، وألفــت أكوابها الترفـــه والترف ، فـــاذا قاموا الـــى الصلاة قامـــوا كســالـــــى (132) .

---

128) النشب : نوع من الشجر تستعمل من خشبه القسى .

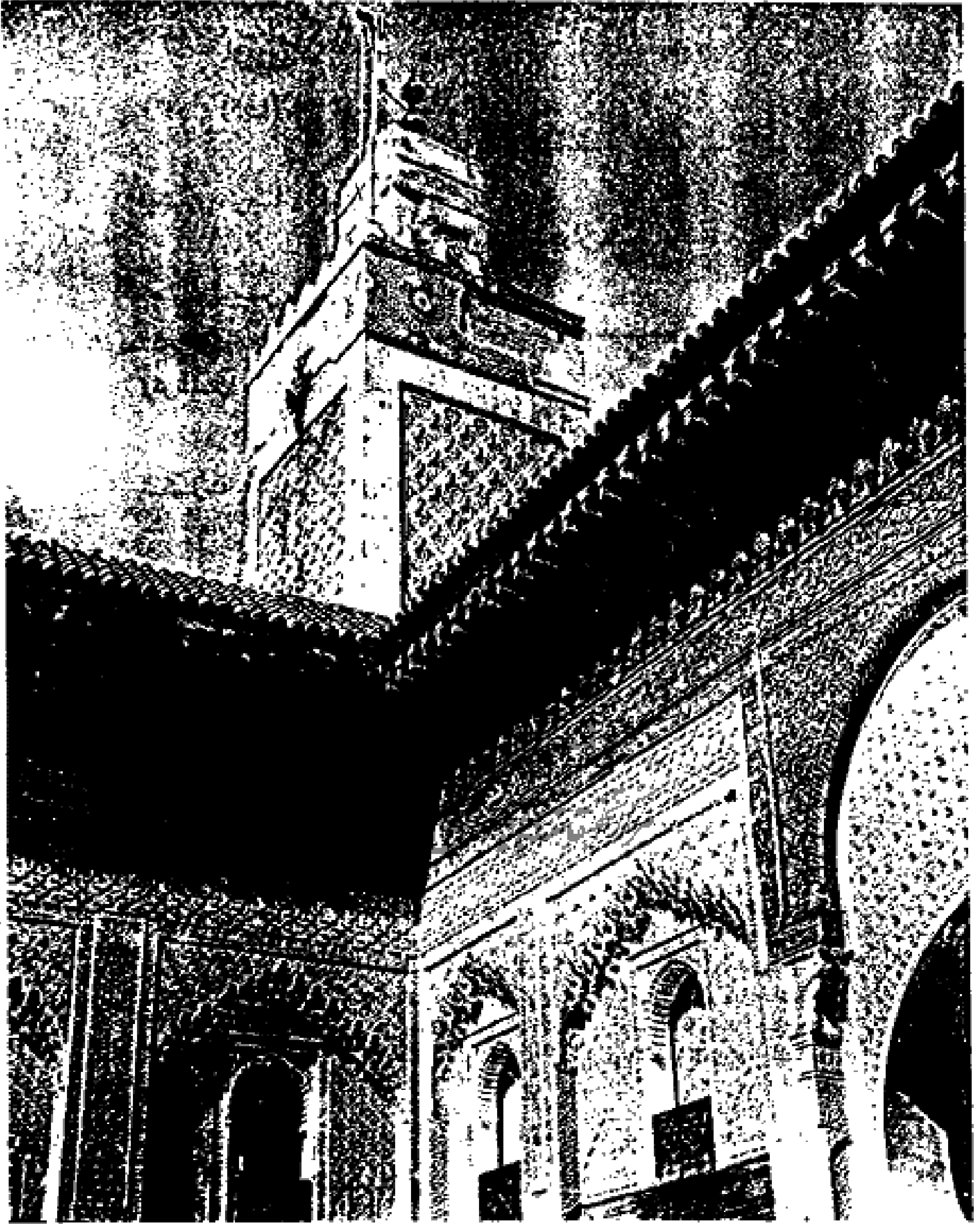
129) مدينة الملك : يقصد بها فاس الجديد .

130) كان من عادة ملوك بنى مرين أن يشهدوا فى حلبة خاصة مصارعة بين الثور والاسد ، وكثيرا ما كانت تنتهى بانتصار الثور . ولعل هذا أصل مصارعـــة الثيران باسبانيا اليوم .

131) الخصل : عود عليه شوك .

132) قوراء : قرص مدور متسع المحيط مخروق الوسط ، والناعورة هكذا ، وعليها الاوانى الفخارية ، وبدورانها تحمل المياه ، ثم تلقيها من عـــل كالشهـــــب الراصدة .

فـــــاس



(المدرسـة البوعـنـانيـة)

وقوراء (133) من قوس الغمام ابتغوا لها
مثـالا أداروهـا عليـه بـلا شـك

فبيـن الثريـا والثـرى سـد جـرمهـا
وللفلـك الـدوار قـد أصبحت تحكـى

تصوغ لجيـن النهـر فى الروض دائمـا
دراهـم نـورقـد خلصن مـن السبك

وترسـل مـن شهبانهـا ذا ذؤابـة
فتنفى استراق السمع عن حوزةالملك (134)

تذكـرت العهـد الـذى اخترعـت بـه
وحنـت فمـا تنفـك ساجعـة تبكـى

ثم قال : الا أن حر هذه المدينة مذيب ، وساكنها ذيب ، ومسالكها وعرة ، وظهائرها مستعرة ، وطينها هائل ، وزحامها حرب وائل (135) . ان نشد الجفاء ناشد ، ففى ضالته المنشودة ، أو حشد أصنافه حاشد

133) يشير بذلك الى قوله تعالى : « وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » سورة الجن ، آية : 9 ، وفى هذا ــ كما فى البيت التالى ــ حسن تعليل لطيف .

134) اقتباسا من قوله تعالى : « ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ، ولا يذكرون الله الا قليـلا » سورة النساء ، آية : 142 .

135) وتعرف بحرب البسوس ، حدثت فى الجاهلية قبيل الاسلام ، وقد قامت بسببه ناقة لدار جساس ، قتلها كليب ، فقتل جساس قاتلها كليبا ، ودارت الحرب بين بكر وتغلب اثر ذلك ، واستمرت قرابة اربعين عاما ، وكانت بينهما فى تلك المدة خمس وقعات شهيرة ، تارة يكون الظهور فيها لبكر ، وتارة لتغلب ، وتارة ينتصفان ، حتى تصالحا بعد أن سقط خيرة القبيلتين وزهرة شبابهما ، فضرب المثل بحرب وائل ، كما قيل فى التطير فى الامثلة العربية : اشأم من البسوس .

(125 : ب) فهي كتيبته المحشودة . الى بعد الاقطار ، وعياث الميازب أوقات الامطار ، والاشتراك في المساكن والديار، على الموافقة والاختيار، وتجهم الوجوه للغريب ، ذي الطرف المريب ، وغفلة الاملس عن الجريب (136) ، ودبيب العقارب ، أرسالا كالقطا القارب (137) . وأهلها يرون لانفسهم مزية الفضل ، ويدينون في مكافاة الصنائع البالغة بالعضل (138). يلقى الرجل أبا مثواه فلايدعوه الى بيته، ولايسمح(139) له ببقله ولا زيته (140) ، فلا يطرق الضيف حماهم ، ولا يعرف اسمهم ولا مسماهم ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ماهم (141) . ومقبرتهم غير نابهة ، وأجداثها غير متشابهة ، مشربة حيوان ، ومشبعة جرذان ، غير وان (142) .

15 — آقر سلوين (143)

قلت : فما تقول في آقر سلوين ؟

قال : واد عجيب ، وبلد لداعي الايناع مجيب ، مخضر الوهاد ، كثير شجر الجوز والزيتون ، كنفته الجبال الشم ، وحنا عليه الطود كما تحنو

---

136) كناية عن ان اهل المدينة يتميزون ومعروفون ، والغريب حينئذ ظاهر بينهم مهمل ، لا يلقونه كما يلقون بعضا .

137) القطا القارب : القطا الذي يطلب الماء ليلا .

138) العضل : بفتح العين وسكون الضاد ، الشدة .

139) في نسختي (ط ، س) « ولا يسمع » ، وهو ما لا يتناسب والسياق .

140) في نسخة (ط) « ولا بزيته » ، وهو أوفق للعطف باعادة الجار .

141) اقتباسا من قوله تعالى : « قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود انما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخر راكعا واناب » سورة ص ، آية : 24 .

142) غير وان : غير مقصر .

143) آقر سلوين : يحتمل ان يكون المراد بها قصبة سلوان ، حيث تقطن قبائل « بني بطلقتي » ، بالريف شمال المغرب .

على ولدها الام ، فهواؤها ملائم ، والعنب على الفصـــول دائـــم . الا أن الشمس لا تطرقه بنوال ، ولا ترمقه الا وقت زوال. قد باء بالحظ الموكوس وانكمش تحت أبط الظل المنكوس ، فجوه عديم الطلاوة (126 : أ) ، وعنبه ــ للبرد ــ قليل الحلاوة .

16 ــ « سجلماســـــة » (144)

قلت : فسجلماسة ؟

قال : تلك كورة (145) ، وقاعدة مذكورة ، ومدينة محمودة مشكورة، كانت ذات تقديم ، ودار ملك قديم (146) ، وبلد تبر وأديم ، ومنمى تجر ومكسب عديم (147) . معدن التمر ، بحكمة صاحب الخلق والامر ، تتعدد أنواعه ، فتعيي الحساب . وتجم بها فوائده فتحسب الاقتناء والاكتساب. قد استدار بها ــ لحلق السور ــ الامر المجاب ، والقطر الذى تحـــار فى ساحته النجاب ، فضرب منه على عذارها الحجاب (148) ، باطنه فيـــه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب (149) ، يحيط بها مرحلـــة راكـــب ،

---

144) سجلماسة : يطلق هذا الاسم على مقاطعة فى جنوب المغرب تسمـــى الآن « تافيلالت » .
راجع فى هذا : ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 5 ص 41 ، والتعريف بابن خلدون ص 40 حاشية 1 .

145) كورة ، اى بلد به قرى ومساكن ، يقول الحموى فى معجم البلدان « ان الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولابد لتلك القرى من قصبة او مدينـــة او نهر » (ج 1 ص 36) .

146) يقصد دولة « بنى مدرار » التى عاصرت دولة الادارسة ، فقد اتخـــذت سجلماسة قاعدة لملكها .

147) اى عديـــم النظيـــر

148) كناية عن السور المحيط بالمدينة .

149) اقتباسا من قوله تعالى : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنـــوا : انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب » سورة الحديد ، آية : 13 .

ويصيرها سماء مخضرة ذات كواكب . فمنازلها لا تنال بهوان ، وفدنها ودمنها تحت صوان ، ونخلها تطل من خلف الجدار ، وتتبوأ الايمان والدار، وحللها مبثوثة بين الدمن، وضياعها تتملك على مر الزمن، وسوائمها آلفة للسمن ، موجودة بنزر الثمن ، وفواكهها جميمة ، ونعمها عميمة ، وسورها حصين مشيد ، وجسرها يعجز عن مثله معتصم ورشيد (150) . وسقيها يخص دار الملك بحظ معلوم ، ويرجع الى وال يكف كل (126 : ب) ظلوم .

وهى أم البلدان ، المجاورة لحدود السودان ، فتقصدها ــ بالتبر ــ القوافل ، وتهدى الى محرابها النوافل ، والرفاهية بها فاشية ، والنشافى (151) الحلية ناشية (152) . لكنها معركة غبار ، وقتيل عقربها جبار (153) ، ولباسها خامل ، والجفاء بها شامل ، والجو يسفر عن الوجه القطوب ، والمطر معدود من الخطوب ، لبناء جدرانها بالطوب ، والقرع برؤوس أهلها عابث ، والممش (154) فى جفونهم لابث ، والحصا يصيبهم، ويتوفر (155) منه نصيبهم .

---

150) المعتصم والرشيد ، من اشهر وأعظم خلفاء بنى العباس ، فالمعتصم هو ابو اسحاق محمد بن هارون الرشيد ، 218 ــ 227 هـ (833 ــ 842 م) ، وأما هارون الرشيد فقد حكم من عام (170 ــ 193 هـ ، 786 ــ 809 م) ، ويرمى بهذا الى المبالغة فى عظم شان الجسر المؤدى الى المدينة .

151) النشافى الحلية : الاحجار ذات التخاريب ، تستعملها النساء فى الحمامات .

152) ناشية : ذات رائحة طيبة .

153) جبار : هدر ، وذهب دم القتيل جبارا ، اى لم يؤخذ له بالقصاص ولا بالدية .

154) الممش : ضعف بالبصر تصحبه الدموع .

155) فى نسختى (س ، ط) « يتوتر » ، والصواب فى نسختنا .

17 ـ « تـــازة » (156)

قلت : فتــازا ؟

قال : بلد امتناع ، وكشف قناع ، ومحل ريع وايناع ، ووطن طاب ماؤه ، (وصـــح)هواؤه ، وبان شرافه واعتلاؤه ، وجلت فيه مواهب الله وآلاؤه . عصير مثل ، وأمر الخصب به ممتثل ، وفواكه لا تحصى ، يماريها (157) البلد الاقصى ، وحبوبه تدوم على الخزن ، وفخاره آية فى لطافة الجرم وخفة الوزن . الا أن ريحه عاصف ، وبرده لا يصفه واصف ، وأهله فى وبال ، من معرة أهل الجبال ، وليوثه مفترسة ، وأخلاق أهلـــه شرســـة .

18 ـ غساســة (258)

قلت : فغساســة ؟

---

156) تـــازة : « Taza » تبعد هذه المدينة المغربية عن فاس بنحو 119 كم ، كما تبعد عن مدينة وجدة بمسافة 230 كم . وتتمتع بموقع جغرافي هام ، ممـــا جعلها تتخذ على مر العصور قاعدة حربية ، هكذا فعل ادريس الثانى ، كمـــا اتخذها عبد المؤمن الموحدى حصنا هاما ، وفى عهد بني مرين جعل منهـــا أبو يعقوب المرينى قاعدة لغزو تلمسان ، وهى قرب نهر « أناون » علـــى آخر الجبال المحاذية للاطلس المتوسط ، والمواجهة لجبال الريف ، وقـــد تاســـت فى القرن الثامن الميلادى . من آثار المرينيين بها المدرسة والجامع الاعظم ، وهما آيتان فى روعة الفن الاندلسى المغربى .
راجع : التعريف بابن خلدون ص 134 حاشية 2 ، وتاج العروس ج 4 ص 12

157) يمـــار : يمـــون .

158) غساســة : مدينة ذات موقع يقرب من مصب نهر ملوية Mulula بالبحـــر المتوسط ، وقد كانت هذه المدينة ـــ يومئذ ـــ مترا لقبائل بطوية Buthoia ومن قبل فهى مرسى له اهميته ، يقع غرب مليلية ، اجهز عليه الاستعمار الاسبانى عام 1496 م ، ويعتقد ان عبد الرحمن الداخل ابحر من « غساسة » الى الاندلس ، كما نزل بها عبد الله ابن الاحمر آخر ملوك بنى نصر اثـــر سقوط غرناطة (2 يناير 1492 م) ، كما ان هذه المدينة التى اندثرت « كانت

قال : فريسة وأكيلة ، وحشف وسوء كيلة (259) . الا أنها مرسى مرســى مطروق ، بكل ما يروق ، ومرفأ جارية (127 : أ) بحريــــة ، ومحط جبايــة تجريــة .

19 ـ تلمســـــان (260)

قلت : فمدينة تلمسان ؟

قال : تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووضعت فى موضع

المعبر المفضل للمهمات السرية والسريعة » ولذلك يشير ابن الخطيب فى وصفهـــا .

راجع : ابن خلدون فى « العبر » ج 6 ص 101 وانظر : د. عبد الهادى التازى فى مجلة « البحث العلمي » (عدد 24 من السنة 12 ص 13) تحــت عنوان « الثغور المغربية بين المواجهة المسلحة والتدخل الديبلوماسى » .

159) هذا التعبير كناية عن سوء الخارج من المحاصيل الزراعية ، بالاضافة الـى غش اربابها لها ، وبهذا يشير المؤلف الى المثل العربى (أحشفا وســوء كيلة !!) الذى يضرب للظلم يلحق صاحبه مضاعفا .

160) تذكر المعاجم والمؤرخات أن كلمة « تلمسان » مركبة من « تلم » ومعنــاه : لها ، « وشان » أى : لها شان ، ثم صرفت الشين ــ بمرور الزمن ــ الى السين . وذكر المقرى نقلا عن الكاتب ابى زكريا يحيى ابن خلدون من كتابــه « بغية الرواد ، فى أخبار بنى عبد الواد ، وايام ابى حمو الشامخة الاطواد » ، بعد كلام فى شأن البربر ما صورته : « ودار ملكهم وسط بين الصحــراء والتل ، تسمى بلغة البربر « تلمس » كلمة مركبة من « تلم » ومعناه : تجمع « سن » ومعناه : اثنان ، أى الصحراء والتل ، فيما ذكره شيخنا العلامة ابو عبد الله الابلى ، رحمه الله ، وكان حافظا بلسان القوم » .

وتقع المدينة غرب الجزائر ، وهى مركز للمحافظة التى تسمى باسمها ، ويبلغ عدد سكانها حوالى 85.000 نسمة ، وتشتهر بينابيعها وكرومها وصناعاتها المحلية ، والتى اهمها السجاد والجلود ومعامل النسيج . وللمدينة شهــرة علمية تاريخية ، كما كانت سوقا تجارية هامة ، ولا سيما فى عهد المرابطين الذين اسسوا بها « المسجد الكبير » . وقد اتخذها بنو عبد الواد عاصمــة المغرب الاوسط ، وقد أخذت شهرتها فى الاضمحلال ، منذ الاحتلال العثمانى. من مشاهير علمائها ابو اسحاق الانصارى (1212 ــ 1291 م) وغيره من فقهاء العصر الاسلامى الوسيط .

راجع : المقرى فى « نفح الطيب » ج 9 ص 331 ــ 342 (تحقيق محى الدين عبد الحميد ــ القاهرة 1369 هـ) .

شريف . كأنها ملك على رأسه تاجه ،وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه عبادها يدها ، وكهفها كفها ، وزينتها زيانها ، وعينها أعيانها. هواء المقصور بها فريد ، وهواؤها الممدود صحيح عتيد ، وماؤها برود صريد . حجبتها أيدى القدرة عن الجنوب ، فلا نحول فيها ولا شحوب .

خزانة زرع ، ومسرح ضرع . فواكهها عديدة الانواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع ، وبرانسها رقاق رفاع .

الا أنها بسبب حب الملوك (161) ، مطمعة للملوك ، ومن أجل ، مغلوبة للامرا . أهلها ليس عندهم (162) جمعها الصيد فى جوف الفرا الراحة ، الا فيما قبضت عليه الراحة ، ولا فلاحة ، الا امن أقام رسم الفلاحة . ليس بها لسع العقارب ، الا فيما بين الاقارب ، ولا شطارة (163) الا فيمن ارتكب الخطارة (164)

ثم لما وصل الى هذا الحد ، نظر الى حاج السوق (165) قد أفاض ، ومزاده قد أعمل فيه الانفاض ، وعلو الاصوات به قد صار الى الانخفاض، فقال : وجب اعتناء بالرحيل واهتمام ، وكل شىء الى تمام . ومددت يدى الى الوعاء فخرقته ، والى العين فأرقته ، وقلت له : لاحكمنك من كرام بنى الاصفر ، فى العدد الاوفر ، ماثلة فى اللباس المزعفر ، فلما خضب كفيه بحنائها ، وحصلت النفس على استغنائها ، استدنانى ، وشبك بنانه ببنانى، وقال : لاحبط عملك ، ولا خاب أملك ، ولا عدم — المرعى الخصيب —

---

161) حب الملوك فاكهة صيفية ، ولاسيما فى مناطق الجزائر والمغرب ، ويتم « مهرجان » خاص فى مدينة صفرو المغربية فى موسم هذه الفاكهة حتى الآن.

162) اشارة الى المثل المشهور « كل الصيد فى جوف الفرا » .

163) الشطارة ، بفتح الشين ، الخبث ، وتقول ، « شطر فلان شطارة — من باب ضرب — فهو شاطر » وذلك اذا أعيا أهله خبثا .

164) الخطارة : ما يراهن عليه وهو السبق .

165) حاج السوق : المشترى بالسوق ، والمحتاج فيه .

هملك ، فنعم مغلي البضائع ، وحافظ الفضل الضائع ، ومقتني الفوائد ، ومعود العوائد . واستثبت مخيلته ، فاذا الشيخ وتلميذه ، وحماره ونبيذه ، قد تنكر بالخضاب المموه ، والزى المنوه ، وعاث بخد الغلام الشعر المشوه . فقلت : هيه (166) ، أبت المعارف أن تتنكر ، والصباح أن يجحد أو ينكر ، كيف الحال بعدي ؟ وما اعتذارك عن اخلاف وعدي ؟ فقال :

خذ من زمانك ما تيسر — واترك بجهدك ما تعسر
ولرب مجمل حالة — ترضى به ما لم يفسر
والدهر ليس بدائم — لا بد أن سيسوء ان سر
(127 : ب) واكتم حديثك جاهدا — شمت المحدث أو تحسر
والناس آنية الزجاج — اذا عثرت به تكسر
لا تعدم التقوى ، فمن — عدم التقى فى الناس أعسر
واذا امرؤ خسر الاله — فليس خلق ـ منه ـ أخسر

ثم ضرب جنب الحمار ، واختلط فى الغمار (167) ، وتركني أتقرى الآثار ، وكل نظيم (168) فالى انتثار .

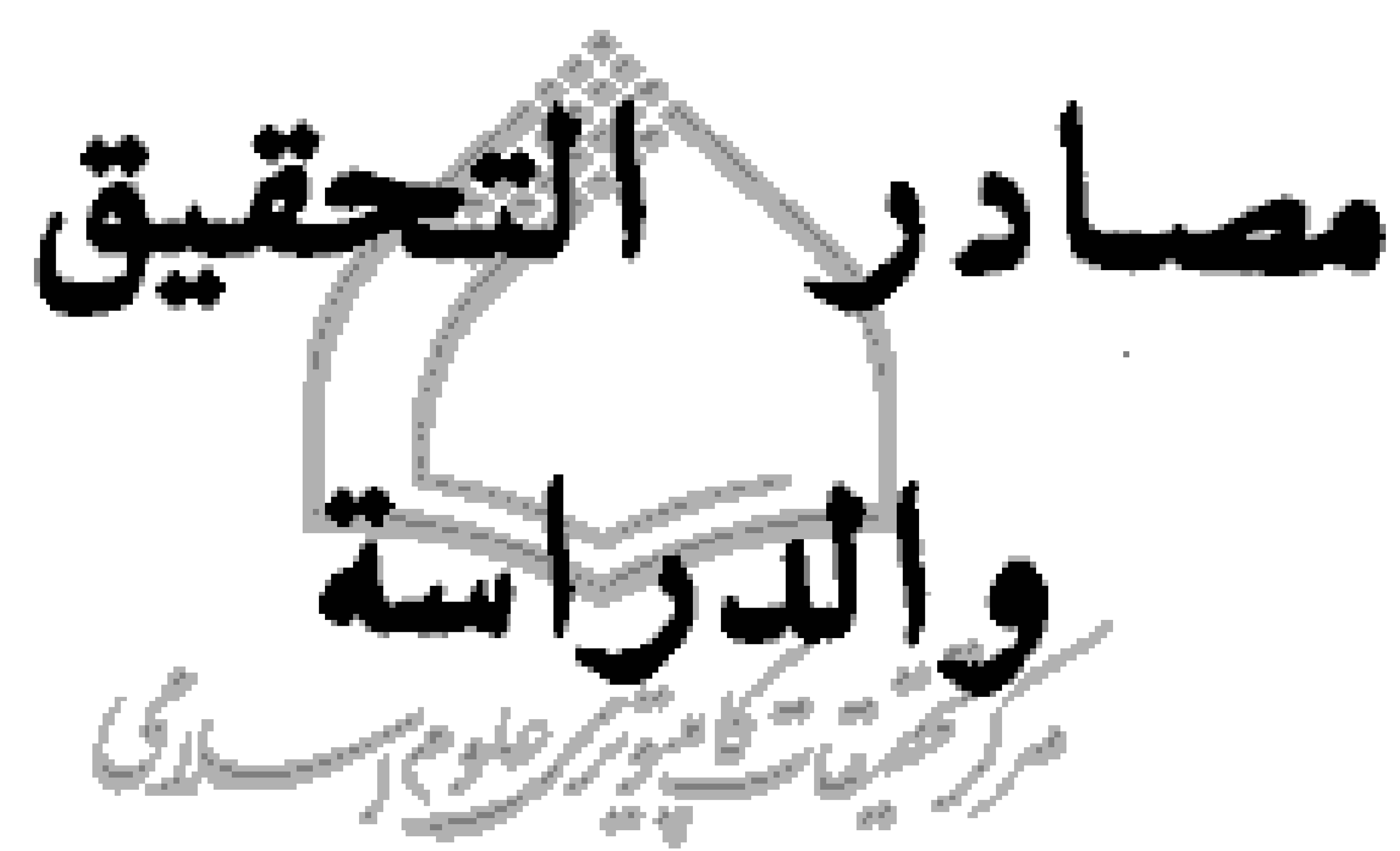
تمت والحمد لله (169)

166) هيه : كلمة تقال لطلب الاستزادة .
167) الغمار : زحمة الناس .
168) فى نسختى س ، ط « نظم » ، ولعل الصواب فى نسختنا ، اذ فعيل هنا بمعنى مفعول اى : منظوم .
169) زيادة ـ فيما اعتقد ـ من وضع الناسخ .



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مصادر التحقيق والدراسة





أ ــ المصــادر العــربيــة

1) **ابن الاحمــر :** (الامير ابو الوليد اسماعيل بن يوسف النصرى)
(ت. 810 هـ ــ 1325 م)
(2) نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان
دراسة وتحقيق : محمد رضوان الدايــــة (بيروت 1967 م)
(1) نثر الجمان فى شعر من نظمنى واياه الزمان
ــ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 1863 ــ ادب

2) **ابن بطوطة :** (ابو عبد الله محمد عبد الله الطنجــى) .
(ت. 779 هـ ــ 1377 م)
تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ج 2 (القاهرة 1938)

3) **ابن الخطيب :** (لسان الدين ابو عبد الله محمد)
(ت. 776 هـ ــ 1374 م)
(1) الاحاطة فى اخبار غرناطة
نسخة خطية بالاسكوريال رقم 1673 ونسختان خطيتان بالاكاديمية الملكية التاريخية بمدريد تحت رقمى 34 ، 142 وتوجد النسخــة مطبوعة فى جزاين (القاهرة 1319 هـ) كما توجد نسخة خطية اخرى برواق المغاربة بالازهر . وقد نشر الاستاذ عبد الله عنان الجــزء الاول من كتاب الاحاطة فى مجموعة ذخائر العرب .
(ب) نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ،
تحقيق الدكتور احمد مختار العبادى القاهرة ــ 1948 م)
(ج) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، مخطوط بالاسكوريال رقم 1825 وقد نشر جزءا كبيرا منه العالم الاسبانى جاسبار ريميرو تحــــت عنوان :
Gaspar Remiro. Correspondencia diplomatica entre granada y Fez en el siglo XLV.
(د) اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام
نشــره ليفى بروفنســال فى طبعتين (رباط 1934) ، بيروت 1956 .
نشر محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة 1951 .
(هـ) كناسة الدكان بعد انتقال السكان
نشر وتحقيق د. محمد كمال شبانه ــ دار الكتاب العربى بالقاهرة 1347 هـ)
(س) رقم الحلل فى نظم الدول (تونس 1317)

4) ابن خلــدون : (عبد الرحمن بن محمد)
(ت. 808 هـ ــ 1405 م)
أ ــ المقدمة (نشر مصطفى محمد بالقاهرة)
ب ــ كتاب العبر وديوان المبدأ والخبر (7 أجزاء بما فى ذلك المقدمة) ، القاهرة 1284 .
ج ــ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا
نشر محمد بن تاويــت الطنجي ، القاهرة 1951

5) الادريســي : (صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس) عن (نزهة المشتاق) نشر دوزى ودى خويه (ليدن 1866 م)

6) ابن غازى : (محمد بن أحمد العثمانى المكناسى)
(841 ــ 919 هـ)
(الروض الهتون فى اخبار مكناسة الزيتون)
تحقيق عبد الوهاب بن منصور (الرباط 1964)

7) ابن القاضــي (احمد بن محمد بن احمد)
عاش فى القرن السابع عشر الميلادى .
أ ــ جذوة الاقتباس فيمن حل من العلماء مدينة فاس
(فاس 1309) .
ب ــ درة الحجال فى غرة أسماء الرجال 2 ج
(نشر ملوش ، رباط 1934 م)

8) ابو نواس : (أبو الحسن بن هانىء)
(ت. 813 م ــ 198 هـ)
ديوان ابى نواس بتحقيق « ايفالد فاغر » ــ (طبعة القاهرة 1958)

9) الجاحــظ : (ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى)
(ت. 255 هـ ــ 868 م)
« البيان والتبيين »
تحقيق عبد السلام هارون طبعة (القاهرة 1948 م) .

10) الجواليقى (منصور بن احمد الخضر)
« المعرب من الكلام الاعجمى على حــروف المعجــم » .
تحقيق احمد محمد شاكر (دار الكتب المصرية بالقاهرة 1361 هـ)

11) (جمال : الدين محمد بن سالم بن نصر الله)
(ت. 697 هـ — 1394 م)
تجريدة الاغانـــى للاصبهانـــى

12) الحميـــرى : (ابن عبـد المنعـم)

عاش فى القرن الثامن الهجــــرى .
الروض المعطار فى خبر الاقطار .
نشره ليفى بروفنســـال .
(ليدن 1938)

13) السباعـــى : (بيومـــى)

« تاريخ القصة والنقد فى الادب العربى »
(القاهـــرة 1956) .

14) الســلاوى : (شهاب الدين محمد بن خالد الناصرى)

ت. 1319 هـ — 1901 م
الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى (4 اجزاء فى مجلدين)
القاهرة 1894 م .

15) شبانــه : (دكتور محمد كمال احمد)
يوسف الاول ابن الاحمر ، سلطان غرناطة (القاهرة 1969 م)

16) الطبــرى : (ابو جعفر محمد بن جرير)
(ت 922 م — 310 هـ)
« تاريخ الامم والملوك » (12 جزءا طبعة القاهرة 1908)

17) عنــان : (محمد عبد الله) معاصر
(لسـان الدين ابن الخطيب) .
(القاهرة 1968 م)

18) القلقشندى : (ابو العباس احمد بن على)
ت 821 هـ — 1418 م
صبح الاعشى فى صناعة الانشا 14 جزءا
(القاهرة 1212 — 1219 هـ)

المصادر الأجنبية

1. Ballesteros, A. :
   Historia De Espana, Tomo III.
   (Barcelona-Buenos Aires 1948)

2. GARIOS DE LUNA, JOSE :
   Historia De Gibraltar (Madrid 1944).

3. LEVI PROVENCAL. E. :
   La penisule iberique Du Moyen-Age d'après le Kitab Al-Rawd al Mitar, D'Ibn Abd al Munim al Himyari. (Tetuan 1950).

4. LEON AFRICANO, JUAN (A) HASAN IBN MUHAMMAD ALWAZZAN AL-FASI) :
   Description De Africa y De las cosas natables que en ella se encuentran.
   (INSTITUTO GENERAL FRANCO-TETUAN 1952)

5. MULLER, MARCUS JOSEPH :
   Beitrage zur Geschichte der westlichen araber (Munchen 1866)

6. SECO DE LUCENA, LOUIS :
   Sobre el viaje de Ibn Battuta al Reinocle Granada (Al Andalus, Vol, XVI 1951).

7. SIMONET, FRANCISCO JAVIER :
   Descripcion del Reine de Granada bajo la dominacion de los Nazaritas.
   (Madrid 1860).

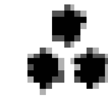
الفهارس الموجودة بالكتاب

* * *

فهرس عام لمحتويات الكتاب

الصفحة

فهرست المدن التي ورد وصفها فى المعيار



ا ــ المدن الاندلسية :

ب ـ المدن المغربية :

فهرست الخرائط والصور والوثائق

1) الخرائط

2) الصور

ا ـ الاندلس :

ب — المغــــرب

3) الــوثــائــق